رواية

لوران غوديه

أنْصِتوا إلى هزائِمِنا



ترجمة:
أيف كادوري- حازم عبيدو

رواية

اسم المؤلف: لوران غوديه

Author: **Laurent Gaudé**

عنوان الكتاب: أنصِتوا إلى هزائمِنا

Title: **Écoutez nos défaites**

ترجمة: أيف كادوري ـ حازم عبيدو

Translated by: **Ève Cadoret _ Hazem Obedo**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: **Majed Al_Majedy**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al_Mada**

الطبعة الأولى: 2018

First Edition: **2018**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Écoutez nos défaites _ Actes Sud, 2016

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999

+ 964 (0) 770 8080 800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017

+ 961 175 2616

+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لوران غوديه

أنصِتوا إلى هزائمِنا

ترجمها عن الفرنسيّة:

أيف كادوري – حازم عبيدو

إلى ألكسندرا

حين ستسمع، في منتصف الليل، فرقةً غير مرئيّة تعبرُ مُصدِرةً ألحاناً موسيقيّةً أخّاذةً وأصواتاً، لا تأسَ بلا جدوى على قدركَ الذي يخذلكَ في آخر التّطواف، أعمالُك التي باءت بالفشل، مشاريعُك جميعها التي تبيّنتْ محضَ خيال. وبشجاعة رجل استعدّ منذ أمد بعيد، ودّعِ الإسكندريّةَ الراحلة. لا تقل إنّ سمعك ضلّلك أو إنّ ذلكَ ليس سوى حلم، إياك واقترافَ خطأ كهذا. ترفّعْ عن هذا الأمل العقيم... وادنُ من النافذة بخطى ثابتة، وبشجاعة رجل استعدّ منذ أمد بعيد؛ هذا خليق بك، بما أنّك اعتُبِرتَ جديراً بمدينة كهذه... متأثراً، بلى، ولكن دون أن تُسْلِمَ نفسك إلى توسّلاتِ الجبناء وتضرّعاتهم، أَنصتْ إلى لذّتك الأخيرة، إلى أصوات الآلات الأخّاذة للفرقة السماويّة، ووَدّعِ الإسكندريّةَ التي تفقدُها.

قسطنطين كفافي،

«الآلهة تخذل أنطونيو»،

عن الترجمة الفرنسية التي قامت بها مارغريت يورسنار،

من كتاب قصائد، شعر/ غاليمار.

–I–

زيوريخ

كلّ ما يترسّب في داخلنا، عاماً تلو عام، دون دراية منّا؛ من وجوه ظننّاها منسيّةً، من أحاسيسَ، من أفكارٍ كنّا على يقين بأنّنا رسّخناها في وجه الزمن، فلا تلبث أن تختفيَ، وتعودَ لاحقاً، ثمّ تختفي مُجدّداً، إشارة إلى أنّ ثمّة وراء الوعي شيئاً يعيش في أعماقنا يُفلت من فهمنا إلّا أنّه يغيّرنا، كلُّ ما يتحرّك في تلك الأعماق، يتقدّم بغموض، عاماً تلوَ عام، على نحو سرّيّ، إلى أن يطفوَ ذات يوم ويُصيبنا بما يشبه الهلع، لأنّه سيتّضح جليّاً بأنّ زمناً قد مرّ عليه ولا نعرف إذا ما كان في وسعنا التعايشُ مع كلِّ هذه الكلمات، كلِّ هذه المشاهد المعيشة، ومكابدتها، والتي تُحمّلكَ في النهاية كما يجوز القول عن تحميل سفينة. ربمّا هذا ما يُدْعَى حكمةً: هذه الغمرة من كلّ شيء، سماء إفريقيا، عهود الأطفال، المُلاحقات في مدينة طنجةَ، وجه شافين المقاتلة الكرديّة ذات الضفائر السوداء السميكة، كلّ شيء، الأسماء المُستخدمة، المواعيد المقطوعة، الرجال الذين سقطوا قتلى وأولئك المحصَّنون، أنا، لا أستطيع، أيّةُ حكمة في هذا، هذه الوفرةُ الحيّة لا تُعينني على أن يكونَ ذهني أكثرَ صفاءً، ولا تُثقلُ عليّ في المقابل، كلّا، إنّ الأمر مختلف: إنّها تمتصُّني. أشعر بأنّ ذهني مدعوٌّ وعلى نحو متزايد إلى اكتشاف هذا البلد الداخليّ. الحشدُ الساخط على الطريق بين مصراته وسرت، الخوفُ الذي أحاول السيطرة عليه غير أنّه يتزايد في داخلي، القهوةُ البيضاء البيروتيّة، الجلبةُ الخاصّة للأسلحة الثقيلة في ضواحي بنغازي وسطَ جيشٍ مُتمرّدٍ في حالة اندحار، تلك اللحظاتُ الكثيرة التي اعتقدتُ فيها أنّه قُضيَ عليّ، والنشوةُ لاحقاً، التي تخصّني وحدي، بأنّني لا أزال على قيد الحياة،

وما منْ أحد ليعلم، ليقاسمني هذه السعادة، كلُّ ذلك، والطائرات التي تمزّق سماء مالي لتذهبَ وتقصف المواقعَ التي أرسلتُها لهم للتوّ، القيظُ، لحظاتُ الترانزيت الغريبة في المطارات، بين منطقتي حرب، حيث أتسكّع في المنطقة الحرّة دون رغبة في شراء شيء كما لو أنّ هذا العالم، عالم صناديقِ السجائر المعفيّةِ من الضرائب، وزجاجاتِ الويسكي المصفوفة على هيئة هرم، لم يعدْ لي. كلُّ ذلك بات عالماً مكتملاً يحيا، يتلوّى، دافعاً بين حين وآخر، في ساعة متأخرة من الليل، صورةً إلى الانبثاق مجدّداً: الأولادُ الذين يلعبون بفرقعة الرصاصات التي يُعثَر عليها على الأرض في الأحياء الشيعيّة لبيروت، عذوبة سهرة في حدائق مقرّ السفير في باماكو، كلُّ ذلك يحثّني كما لو أنّه ثمّة من الآن فصاعداً عالم آخر ممكن، للاستكشاف، للفهم، العالم الذي أحمله في داخلي. واليوم، بينما أسير على طول الرصيف نحو ساحة بلفيو، أشعر بهذا الشيء: ثمّة شيءٌ مختلف في داخلي أعجز عن تسميته، لا يكفُّ عن أن يتّسعَ ويمتصّني. أعرف أن ذلك غيرُ بادٍ بعد. وأعرف أنّه، بعد بضع ساعات، سأكون أمام أوغست كما كنتُ دوماً: عاصم غريّب. سأحمل مجدّداً هذا الاسم الذي ليس لي لكنّي اعتدتْه، عاصم غريّب، العميل السرّي منذ أكثرَ من عشر سنوات لدى الاستخبارات، عاصم غريّب، الذي يحصل حين أن أصادفَ بعضاً من أولئك الشبّان المُستجدّين، في شارع مورتييه، في باريس، أثناء احتفال رسميّ، ينظرون إليّ بوقار لأنهم، دون أن يعلموا تماماً ما فعلته، يعرفون قائمة ميادين العمليّات التي أُرسِلتُ إليها: أفغانستان، الساحل الإفريقي، ليبيا، العراق، وهذا يكفي لإبهارهم. عاصم غريّب الذي يدْعونه فيما بينهم «الصيّاد» ومعهم حقّ، فمن كثرة العمليّات التي قمتُ بها طوال كلّ تلك السنين أصبحتُ صيّاداً في المحصّلة، قاتِلَ الجمهوريّة الذي لا يكفُّ عن مُلاحقة رجال جُدد. بالنسبة لهم جميعاً، سأظلّ هذا، لأنّ عاصم غريّب بنظرهم لا يزال حيّاً، وعلى حاله، لكنّي أعرف أن ثمّة شيئاً يكبر ويغيّرني وربّما ذات يوم سيفغرُ مثلَ فمٍ داخليّ هائل -ومَنْ يعلمُ حينَها ما الذي سأفعله...

عندما سألني من أين أنا وأجبتهُ: «عراقيّة»، رأيتُ، في نظرته، أنّه يعرفُ بلدي. فيما بعد اتّخذ هيئة المُستغرِب، ونطق بجملة من تلك الجمل التي أسمعها حين أُعلن عن جنسيّتي: «أليسَ صعبٌ جدّاً...؟»، ولكنّه اكتسى تلك السحنة بالضبط لتبدوَ عبارتهُ عاديّة. شعرتُ بذلك مسبقاً، في نظرته، كان يعرفُ بلدي وهذه الكلمة البسيطةُ «عراقيّة»، كانت كافيةً لتحملَه إلى هناك. أنا على يقين من ذلك. فيما بعد، في السهرة، فيما كنّا لا نزال في البار، عاد إلى الموضوع وسأل: «من أين في العراق؟» قلتُ: «بغداد»، وهنا رأيت أيضاً أنّ مجرّد ذكر اسم مدينتي جعل ذهنه يسافر إلى هناك. مُبدياً مداراة أقلَّ. لبثَ صامتاً لوقت طويل. وأنا لم أنبسْ بكلمة. ثمّ ارتسمَتْ على وجهه ابتسامةٌ عذبةٌ وعرفت أنّنا سوف نصعدُ إلى غرفته، وعرفتُ أنّنا سنمارس الحبّ. ليس بداعي بغدادَ فحسب، ولكن لأنّه قبِلَ الكفّ عن لعب دورِ مَنْ يجهلُ، ولأنّه في المرّة الثانية لم يسألْني أحدَ تلك الأسئلة التي توجَّهُ إليّ مراراً: «ألا زلْتِ تعودين إلى هناك...؟» كلّا. اكتفى فقط بالبقاء في صحبة صور هذه المدينة التي في داخله واستغرق وقتَه. أدركتُ مباشرة أنّه كان عسكريّاً، أو ما يشبه ذلك. قلتُ له ذلك. هناك، في البار. قبل أن يأخذَني برفق من يدي، كما كان سيفعلُ طالب ثانويّة يُغادر المقعد مع حبيبته للبحث عن مكان لا يلفت النظر. في هذه القاعة التي كنّا نرى منها نهر ليمات يجري، والتي كنّا الأخيرين فيها، قلت له: «عسكري، أليس كذلك؟» فضحك. لم ينكرْ. حتّى إنّه قال: «أبادٍ إلى هذا الحدّ...؟» ثمّ على سبيل الدعابة ربّما «إذاً، ينبغي أن أغيّرَ مهنتي...» عرفتُ لأنّه قبِلَ ألا يخفيَ شيئاً طوال السهرة. وأنا لم أطرحْ عليه أسئلةً يعجز عن الإجابة عنها. تبسّمَ حين قلت له «عسكريّ». أخذ وقته مستغرقاً، حين قلتُ «بغداد»، في المشاهد العراقيّة التي تسكنه. لم يكذبْ. تبعتُهُ إذاً، وصعدْنا. تعثّرتُ، على ما أظنُّ، في ممرّ الطّابق الثالث. كتم الموكيتُ السميك الصوتَ لكنّنا ضحكنا. كنت قد أفرطْتُ في الشرب. وهو أيضاً. ما اضطرّني أن أغلقَ فمي بيد. بينما أحملُ حذائي في الأخرى. سرتُ مترنّحةً وهو كان يضحك. يدُهُ، التي

كانت تطوّقُ خصري، أحببتُها على الفور. لا أعرف كم مضى وقتٌ وأنا ألتقي برجال في بارات الفنادق. في مدن شتّى؛ باريس، جنيف، نيويورك. لم يكن الرجلَ الأوّلَ. بدأتُ بعد انفصالي عن مروان. يُفاجأُ بعضُهم أحياناً كوني عراقيّةً، كما لو أنّ هذا المنبتَ يحولُ دون شهوةِ الجسد أو «الحاجة البائسة للحبّ». كان مروان يستهويه ذِكرُ إيلوار، وهذه إحدى الأشياء التي أخذتُها عنه. وربّما، الشغفُ بالجنس، أيضاً... أتذكّرُ، حين كنّا نمارس الحبَّ، في الإسكندريّة، في تلك الشقّة التي كان يستأجرها، قُبالة البحر، متعجّلين لانتهاز تلك السّاعات التي كان يغتنمُها من حياته، وزوجته، والقاهرة، والمتحف... لبعض الوقت كان مروان لي وحدي، بضعُ ساعاتٍ في الشهر، أَيْ ما يؤلّف أيّاماً قليلة في السنة ليس أكثرَ... استهوتني تلك الأوقاتُ. كنتُ أظنُّ نفسي حرّةً. الشّعرُ، الحبُّ والوجباتُ التي يتمّ تناولها خارج الأوقات المعتادة، في الشارع، على شرفة في المرفأ، في الساعة التي يغطُّ بها الآخرون في قيلولة أو يشربون القهوة. أحببتُ ذلك. كانت الوحدةُ تستتبع تلك اللحظات دوماً، والانتظار. إلى أن هجَرني. باغتني. كنتُ على يقين أنني أنا مَنْ سيرحل. أتذكَّرُ ذلك اليومَ: كان قد وصل متأخراً، مُقطّبَ الحاجبين. لم ألحظْ فوراً أنّه لن يكونَ هناك عناقات، نزهات عشقيّة، ليس أكثر من حوار جافّ، سريعٍ، وبأنّ مروان قَد أتى، هذه المرّةَ، لكي يذهب. لا بدّ أنّه فيما بعدُ، أجلْ، بدأتُ أقول نعم للرجال في الفنادق.

الهواء بارد ومنعش. كان حريّاً بي أن أغذَّ السيرَ، كما فعلتُ مراراً في مناسبات مماثلة. فأنا على وشك اللقاء بأوغست، الضابطِ المسؤول عنّي. سيكلّفني بمهمّة جديدة. كلُّ شيء سيُستأنفُ مُجدّداً. سأكون عاصم غريّب أو أحداً آخر. سأكون فرنسيّاً من أصل جزائري، أو تونسي، أو لبنانيّ. ألف حياة، الواحدة تلو الأخرى، والخطر، دوماً، ليمنحها الكثافة. لكنّي أسير ببطء والذي يشغل ذهني في هذه اللحظة، صرخاتُ

الاستثارة الصغيرة التي لم يكن يستطيع لاعب الشطرنج في حديقة ليندنهوف منعَ نفسه عن إطلاقها. لماذا أعود للتفكير به؟ لا أعلم. نظرت إليه لوقت طويل بالأمس. لأكثرَ من ساعة. بقيتُ جالساً على مقعد، أمام رقعتي الشطرنج الكبيرتين اللتين وضعتهما بلديّة زيوريخ في هذه الحديقة المشرفة على المدينة، والتي نطلُّ منها كما أطلّ جنْدُ الرومان في الماضي على جريان نهر ليمات. نظرتُ إلى هذا الرجل يتنقّل منهمكاً في كافّة الاتّجاهات، وهو يكظم جنونه ليتمكّنَ من اللعب، وألّا يحيدَ عن مجرى الجولة. مكثتُ وقتاً طويلاً وفي النهاية سمعت اسمه ينطقه الآخرون، خصومهُ المُتعاقبون إذ باتوا كثرةً، طلّاباً، وجهاءَ، مُتقاعدين، والذين تركوا جميعُهم أماكنهم في آخر الأمر، مغتمّين لخسارتهم بهذه السرعة: فيروتشيو، der Verrückte [1]. جلستُ لساعات، بلى، مسحوراً، أتفحّص بدقّة حركاتِ كتفيه، تشنّجاتِ فمه، طريقتَه في رفع حاجبيه والانحناء كمَنْ تلقّى ضربةً مُباغتة أسفل البطن. كان مجنوناً، فيروتشيو، لا يلبث في مكان، يجول بخطوات واسعة على طول رُقعة الداما المرصوفة على الأرض أو يناور بالقطع الخشبيّة، التي تصل حتّى الركبتين، كأنّه يقود جيشاً حيّاً. فيروتشيو، هو مَنْ أسمعُه في سيري. وتخطر في ذهني أيضاً غرفة الفندق التي تركتها ورائي للتوّ، تغرق في ضياء الصبح الأخّاذ، والسريرُ ذو الشراشف المُجعّدة، هذه الغرفة التي غادرتُها هيَ قبلي. وقد تذكّرتُ الآن فقط، وأنا بمحاذاة الليمات على مقربة من آخر جسر قبل البحيرة، أنّني أعطيتُها موعداً هنا، في ساحة بلفيو، في هذا المكان الذي عليّ أن ألتقيَ فيه بأوغست لكي يقدّمني إلى رجل من المخابرات الأمريكيّة، ولكنْ يسبقه بساعة، ولا أفهم لماذا أعطيتُ هذا الموعد، ولا ما هي غايته. فيروتشيو، في ذهني، يواصل حركته جيئة وذهاباً، وهو يدور كاسباً أحجارَ خصومه ومطلقاً صرخات قصيرةً حادّة، دون أن يُعرَف

1_ (der Verrückte، بالألمانيّة) وتعني المجنون. (جميع الحواشي من وضع المترجمَين باستثناء حاشية واحدة مقتبسة من الأصل الفرنسيّ، ومشار إليها في موضعها).

ما الذي يخافه أكثرَ الهزيمة أم الوحدة التي ستتبع الانتصار، حين يبتعد الوجيه أو الطالب، مغتمّاً مثل السابقين، مشيراً بحركة عجز، ومعترفاً له بأنّه الأقوى ويتركه في المكان بمفرده، غيرَ مهزوم إلّا أنّه وحيد. يلعب ببراعة، ببراعة فائقة. حيويٌّ وصافي الذهن، ولكن لديه دوماً، على وجهه، قلقٌ يلوي ملامحه، كما لو كان آسفاً على الفوز، كما لو كان يأمل بأن يُهزم أخيراً فتخفُّ تلك التشنّجاتُ غيرُ الإراديّة التي تنخرهُ ويسكت الصوتُ الداخليّ الذي يحاول كظمَه. إلّا إذا كان ما يأملهُ حقيقةً هو جولة لا تنتهي أبداً، جولةٌ تستغرقه بالكامل، عندئذ سيغدو العالم مُقَالاً وسيشعر هو، المجنون، بالارتياح. لن يبقى سوى أحجارِ اللعبة، الحركاتِ القطريّة، الضرباتِ المُسبّقة، الفِخاخ، التضحيات، الذكاء الخالص، وفيروتشو der Verrückte، الرجل الذي يلعب بقميص مُهمل، وأحياناً عاري الصدر، كثُّ اللحية، والذي يكلّم نفسه شاتماً، لن يعود له وجودٌ. لن يتبقّى سوى الكثافةِ لهذه الجولة التي تقوم على اثنين، والتي لم تعدْ تمتُّ بصلةٍ إلى الصراع، وإنّما إلى البحث عن شكل من الكمال، مثل لُقيةٍ علميّة: الجولة اللانهائيّة، هذه التي من أجلها صُمّمتِ اللعبة. أعود إلى التفكير بمريمَ التي قابلتُها بالأمس، في الليلة التي قضيناها معاً في الاتفاق الضمني بأنّ أيّاً منّا لن يسألَ الآخر مَنْ هو حقّاً، ما الذي يشغلُه وما هي حياته، مكتفيين باسمينا عاصم ومريم، وبجسديْنا. لماذا أعطيتُها موعداً هذا الصباح؟ أتذكّر سمْك شعرها الأسود، الانسيابيّ، الذي يلتمع في الحلكة. أتذكّر شفتيها اللتين تكلّمتا بإسهاب حين كنّا في البار ثمّ اللتين انفرجتا جزئيّاً، في وقت لاحق، بلذّة، مُفلِتةً، في هذه الغرفة التي تطلّ على مياه النهر الهادئة، تنهيدةَ نشوة –برهة صافية تعوّض عن كلّ شيء: التوهان، والإرهاق. شفتيها المنفرجتين قليلاً لتسمح بمرور أنفاس نشوةِ الجسدين، سعيدة، قريبة، ونفْضَ أعباء الذهن. وأتذكّر الآن ماذا شعرتُ في داخلي، على الأخصّ، وما عليّ أن أسميه بالفعل خجلاً، جديداً، وغريباً. هذا التردّد في لحظة نزع ثيابي، هل رأته؟ بدا لي لم تره. أو بالأحرى قد قبلتْ به، وأنّها رأتْ على جسدي الصدوعَ، التمزّقاتِ، لكنّ ذلك لم يفاجئْها. تقبّلتْها،

كما كانت تتقبّلُ الشكوك وإرهاق الذهن. دنونا من بعضنا دون حرج، ولكن بمراعاة. وربّما هذا، في العمق، هو ما دفعني أن أعطيَها موعداً هذا الصباح. لا أرى سبباً آخر. فإذاً، فيروتشيو، مجنونُ ساحة التيول[1]، يهزأ منّي لأنّه هو فقط من فهم أنّ شيئاً قد وُلِدَ وسوف يأخذُني أبعدَ بكثير من الأراضي التي ترسلني إليها فرنسا منذ عشرِ سنوات، قاتلاً أو حامياً لرجال دون أن أتمكّن يوماً من القول إذا كنّا ربحْنا أم خسرْنا لأنّه يلزم دوماً البدءُ من جديد، ثمّة دوماً ميادينُ عمليّات جديدة وأعداءُ جددٌ للتصفية، دائماً مناطقُ نفوذ جديدةٌ للحفاظ عليها أو نقاطٌ استراتيجيّةٌ جديدة للسيطرة عليها، وفيروتشيو يضحك لأنّه يعلم بأنّ حين تهبط العتمة، حين يُهزمُ الخصمُ الأخيرُ، يبتدئ الأسوأ، لأنّه وقتُ إذعانه للعودة إلى تشنّجاته غير الإراديّة وتباريحِ همومه.

يتناهى له، من بعيد، صوتُ الحوامة دون أن يتمكّن من الجزم إذا كان قادماً من وراء الجبال أو من أعماق ذاكرته. جلبةُ الشفرات تعلو إلى أن تطغى على كل ما عداها. يصفع الهواءُ وجهَه. يفكّر، في هذه اللحظة، بجميع الحوّامات التي صعد متنَها، جميع تلك الرحلات، ليلاً ونهاراً... يسمعُها تقترب ولا يهمُّ إذا لم يستطعْ فتحَ عينيه، هو يعلم أنّ وصولها سيزيح عنه التهديدَ، الضربَ المبرّح، وأنّ المركبة سترخي عليه ظلّاً حامياً. ولكنْ قد لا تصله أبداً؟ قد تصل متأخرةً جدّاً أو تُضطرَّ للعودة، عاجزة عن الهبوط في هذه المدينة العدوَّةِ، راسمةً في السماء منحنًى واسعاً وهي تقفل عائدةً في الاتّساع؟ فليكنْ. فكرة أنّها أتَتْ، أنّ مركبةً أُرسلتْ لتأخذَه، تمنحه السكينةَ وتملؤُه بالسلام. يفكّر بجميع الحوّامات التي انتزع نفسه منها قافزاً في الليل، على تلال بلادٍ بعيدة، عند الاقتراب من منازلَ أرادوا اقتحامها، هو والرجال الذين بصحبته، خالعين الأبواب، مُبعدين عن طريقهم دون مراعاةٍ نساء لا يزال النعاس على وجوههنّ

1ـ (Tilleuls): أشجار الزيزفون وإليها ينسب اسم الساحة.

يصرخْنَ من الذهول، يصمّون آذانهم عمّا يدور حولهم، الوجوه، الصرخات، التوسّلات، باحثين في عتمة الليل عن رجل ينتهي به المطاف دوماً بتسليم نفسه، جميع تلك المهمّات التي كان فيها هو اليد الضاربة. يتذكّر جميع تلك الرحلات الجويّة ليلاً التي كان فيها طيراً جارحاً، صامتاً، حادّ البصر، يبرز بغتةً داخل حياةِ أُناس لم تكنْ تتوقّع ظهوره ثمّ يغيب مختفياً قبل أن يتمكّن أحدٌ من الإتيانِ بردّ فعل حقيقيّ. استقلّ حوّاماتٍ كثيرةً. ويسمع هذه دون أن يتمكّن من القول إذا كانت تقترب حقيقة، إلى اللحظة التي ينبثق فيها هذا الصوت فجأةً، «سوليفان...؟»، يكرّر الصوتُ اسمه مراراً، «سوليفان...؟»، ويضيف عدّة جمل يعرفها لأنّه لفظها على بقاع أخرى، بمناسبات أخرى، حين كان هو من يأتي لنجدة أجساد تتألم، تلك الجمل التي تحثُّ المرءَ على التصبّر، وبأنّ كلَّ شيء سوف يسير على ما يرام، بأنّه سوف يُعاد إلى البلد، تلك الجمل لتؤكّدَ على ضرورة التشبّث بالحياة... بماذا يرغب هو أن يتشبّث؟ «سوليفان...؟» وهذا الاسم الذي لا يكفّ عن التردّد، الذي يُطلقونه عليه، كأنّهم يريدون ألّا يغلقَ عينيه، كأنّ ليس من حقّه أن يستسلم. «سوليفان...؟»، في النهاية يقول «أجل»، ليس بفمه ـ كلّا، يعجز عن ذلك ـ، ليست ملفوظةً بوضوح ولا مسموعةً، ما عاد يقوى على ذلك، قال «أجل» في ذهنه ومباشرة يلوم نفسه، كأنّه استسلم للسهولة، كأنّه لم يكنْ بمستوى اللحظة هذه حيث كان بإمكانه البقاء في هذه القرية التي تشتعلُ والموت فيها، ولكنّ الأوان فات، يقول في روحه «أجل»، وأذرعٌ تأخذه، تحملهُ، تجرّه إلى الحوّامة التي تَعِدهُ، بأزيز مُحرّكها المُصمّ وبقوّة شفراتها، بانتشاله من هذا المكان الذي كان عليه أن يكونَ قبرَهُ.

في فندق زوم ستورشين، بصحبة هذا الرجل الذي أخبرني أنّه يدعى عاصماً، كان ثمّة شيء مختلف. في منتصف الليل، استيقظتُ. مخفورةً بالهناء. تركتُ لعذوبة الغرفة أن تطوّقني. ظننتهُ نائماً وهو مستلقٍ إلى

جواري. أخطأتُ. لا بدّ أنّه شعر باستيقاظي من حركة جسدي. ودون أن يتحرّكْ همس بصوت دافئ، وطلب منّي أن أكلّمَه عن مهنتي، أن أرويَ له قصّة من قصص آثاريّة. خطر لي ماريت باشا. بسبب تمثال بيس[1]، على الأرجح. هل كنتُ، في تلك البرهة، قد قرّرتُ ما الذي سأفعله به؟ لا أعتقد. غير أنّ ماريت باشا دخل الغرفة وشعرتُ بأنّ عاصماً ينصتُ بشغفٍ. رويتُ عن ذلك اليوم، في أبيدوس، حيث أشارَ الآثاريّ الفرنسي لعمّاله نحو موقع للحفر. رويتُ كيف حفر الرجال وكيف أصابهم الذهول عندما عثروا على آثار. ورويتُ، في هذا الليل الهادئ، سعيدةً كمن يحظى باستراحة غير منتظرة من صخب حياتنا، أنّ عاملاً سأل ماريت كيف عرف أنّ الموقع هناك. وأجابه ماريت باشا: «عرفت لأنّ عمري ثلاثةُ آلاف عام...» أصغى عاصم. لم يضحك. عادةً، حين أروي هذه الحكاية، تضحك الناس، آخذيها على محمَل الطُّرفة. هو، لا. لم يضحكْ لأنّه مثلي: يعلم أنّ ذلك صحيح. ثمّ سأل عمّن يكون ماريت باشا. فقصصتُ عليه بعضاً من قصّة هذا الرائد، مُبتكر علم الآثار الحديث. حكيتُ له عن اكتشاف السيرابيوم. «ما هو، السيرابيوم؟» شرحت له بأنّه كان ضريحاً لثيران آبيس[2]. ما أثار فضوله. «ثيران آبيس...؟» فتابعتُ مُفصّلةً: أخبرته عن الكهنة التي تعيّن ثوراً مقدّساً، مكسوّاً بالوبر الأسود، وعلى جبينه مثلّث أبيض معكوس. حكيتُ له عن موكب الحيوان الطويل الذي يمتدّ على نهر النيل والناس التي على ضفّتيه، وفي كلّ الأرجاء، تخرُّ ساجدةً. حكيتُ له، عن أيّام الحداد السبعين، كلّما مات ثور آبيس، وعن تحنيط الدّابة، ثمّ الدفن داخل هذا المعبد الذي يتوالى دفنَ الثيران فيه، جيلٌ إثر جيل، والكهنة الذين سرعان ما يبحثون عنِ تقمُّصِ مَنْ مات للتوّ. «كلُّ هذا لأجل ثور؟» قال بإعجاب. بلى. وكيف أنَّ ماريت باشا هو من اكتشف المكان.

1ـ بيس: إله شعبيّ في مصر القديمة، الزواج مهمّته الرئيسيّة، وكان إلهاً مرحاً لعب دور المهرج عند الآلهة الذين راقهم شكله الغريب.

2ـ الثور آبيس هو الأكثر شهرة بين الحيوانات المقدّسة المصريّة، كان موضع عناية كبرى وعبادة.

كان الأوّلَ. دون أن يعلم حينها بأنّ حياته لن تعود يوماً هي نفسها بعد اكتشافه وبأنّه سوف يرتبط بمصر إلى الأبد، هو، البولونِيُّ[1] الفتيّ الذي غدا في النهاية باشا، ودُفن في متحف بولاق. عن صعوبة التنقيب في الأرض. والانتظار للحصول على الفرمان الشهير الذي يسمح بالحفر واليوم الذي، أخيراً، تمكّنوا فيه من فتح الباب بعد إزالة الرمل عنه. حكيتُ له عن عمود البخار الأزرق كيف تصاعدَ من الباب المفتوح، «كما لو من فوّهة بركان»، كما ذكر ماريت في كتاباته. استغرق أربع ساعات تفرّغ التابوت من هذا الهواء المحبوس منذ قرون. أرى عاصماً يُطبق جفنيه متخيّلاً المشهد. أبعدَ قليلاً، في غرفة الدفن، اكتشفَ ماريت ليس توابيتَ الثيران فحسب، وإنّما أيضاً في ذلك المكان، على الأرض، شكلَ قدم مطبوع على التراب. آخر كاهن انسحبَ قبل أن يُغلقَ الباب. أثرُ قدمه، ثابتٌ في التراب، لبث في مكانه لثلاثين قرناً. وما كان هشّاً، وما كان حريّاً بهبّة ريح أن تمحوَه نجا من كلّ المحن، الحروب، المجاعات، انهيار الحضارات، اضطراب العالم. أحكي له عن ذلك، وأعلم من كثافة صمته أنّه يفكّر مثلي، بأنه حدثٌ خارقٌ للمألوف وفي الوقت عينه، فتْحُ ذلك الباب، وتَرْكُ ذلك الهواء يهربُ والأثر يختفي، يُشكّل نوعاً من الانتهاك يدفع للبكاء. حين فرغتُ، في النهاية، اعتقدتُ بأنّه سيحتفظُ بصمته، شاعرةً ببعض الحرج لاستفاضتي في الكلام ربّما، إذ كان غريباً استدعاءُ ماريت باشا بتلك الطريقة وثيرانُ مصر المقدّسةُ بينما نحن عاريان، جنباً إلى جنب، إلّا أنّه لم يعترِنا إحراج. لبث صامتاً لبرهة قصيرة، كما ليُفسِحَ لصور الزمن الغابر أن تعيشَ أطولَ في داخله، لضفاف النيل، للحشد الساجد، والحيوان المختار لدخول المعبد ـ ثمّ استلم الكلام بدوره. نطقَ ببضعة أبيات فحسب. أتذكر أنّي عرفتُ عندئذ، على أغلب الظنّ، ما الذي سأفعله. قال: «أيّها الجسَد، تذكّر، ليسَ فقط الشّغفَ الذي أُحْبِبْتَ به، ليسَ فقط الأسرّةَ التي تمدّدتَ عليها، وإنّما أيضاً الشّهوات التي كانت تسْطَعُ في العيون من أجلكَ وترتعِشُ

1ـ نسبة إلى مدينة في شمال فرنسا.

على الشّفاه...» هذه كانت طريقته في الإجابة عن ثيران آبيس، ولأجل أن يقدّمَ لي شيئاً بدوره. أضاف اسم الشّاعر: كفافي. بكيتُ، بهدوء. كما لو أنّه حدسَ بمروان، الإسكندريّ. كما لو أنّه علم بالمرض الذي في داخلي والتعب، أحياناً، جرّاء حياة المشقّة هذه. إذن، بكيتُ، أجل، ولم يحاولْ مواساتي، كان يعلم أن هكذا أفضل، بأنّ الدموع تغسلني من شيء لم يكنْ بوسعي التصريح عنه. «أيّها الجسَد، تذكّر، ليسَ فقط الشّغفَ الذي أُحْبِبْتَ به...» عندئذ عرفتُ بأنّني سأُحبُّ هذا الرجل، عرفت أنّ كلمات كفافي، كان يقدّمُها لي، مستشعراً ـ لا أعرف بأيّة بصيرة ـ أنّها ستجلب لي الراحة، وإذاً عرفت بأن إليه سأعطي تمثالَ بيس الذي أحتفظُ به منذ زمن طويل جداً، دون أن أُعلِمَ أحداً بذلك، لأنّني قد التقيت، في هذه اللحظة، بالشخص الذي، هو مثلي، عمرهُ ثلاثةُ آلافِ عام.

هل من الممكن أنَّ تلك اللحظةَ، في 12 نيسان 1861 السّاعة الرابعة والنصف صباحاً، هي لحظةُ قيامته؟ هل من الممكن أنّ الشّاب بوريغارد، جنرال الجيوش الكونفدرالية، حين أعطى الأمر لمدفعيّته بأن تطلق على حصن سمتر[1]، الذي كان قد انسحب إليه روبرت أندرسون مع جنود الاتّحاد، في تلك الساعة التي سقط فيها عدد كبير من القتلى، حتى لو أنّ أحداً لن يسقط في الأربع والثلاثين ساعة التي تلتها، الأربع والثلاثين ساعة من القصف لإفناء الحصن، الأربع والثلاثين ساعة لكي يُعلنَ الجنوب انشقاقه العميقَ، السعيدَ، في لحظة التحرّر والتّحدي تلك، مُجسَّدةً في المواجهة بين الشّاب بوريغارد وبين من كان معلّمَه المدرّبَ في وست بوينت[2]، روبرت أندرسون الذي، قبل بضع سنوات، كان لشدّة دهشته بمواهب الشّاب الجنوبيّ وصل إلى حدّ أنه اقترح عليه بأن يصبح

1ـ (Fort Sumter، بالإنكليزيّة) حصن بحري يشرف على ميناء تشارلستون في ولاية كارولينا، وكان سقوطه إيذاناً ببداية الحرب الأهليّة الأمريكيّة.

2ـ الأكاديميّة العسكريّة الأمريكيّة، وسميت «وست بوينت» نسبة للمنطقة التي تقع فيها.

مساعدَه، هل من الممكنِ أنَّ تكون لحظة النّار تلك، حيث يتشظّى الحجر، ذلك الانتشاء بالتجشّؤ الهائل للحمم، لأجل أوليس إس. غرانت، لحظةَ قيامة؟ يشعر بذلك. يقرأ المقال ويعود إليه مراراً وتكراراً في هذه الصحيفة الصغيرة لولاية إلينوي التي تركها أبوه على الطاولة وسط جوّ المصبغة العابقة برائحة نفّاذة ويعلم بأنّ فرصة تتقدّم له. أربع وثلاثون ساعة من القصف ويرفع أندرسون، في النهاية، العلمَ الأبيضَ وتفترُّ شفتا الشّاب بوريغارد عن ابتسامة، ويهلل سكان الجنوب قاطبة. حصن سمتر سقط. والميسيسبي، لويزيانا، كارولينا الجنوبيّة يرقصون فرحاً. هذا الرئيس الذي انتخب حديثاً باسم لينكولن، الذي لا يعرفه أحد، لن يكون رئيساً عليهم. فليحتفظ به الشمال! يقرأ أوليس غرانت المقال ويعيد قراءته لمجرّد أن يستوعبَ الصفعة. لأنّ ذلك هو بالفعل ما صنعه بوريغارد مع مدفعيّاته: صفع في آن واحد لينكولن وواشنطن برمّتها. صفع الجنرال العجوز سكوت، وأبطال الحروب المكسيكيّة، واليانكي قاطبةً. يتمنى أوليس غرانت لو يشربَ. الشرب سيجلب له الراحة. حتى لو أنّها العاشرة صباحاً. لم يمنعه ذلك عن الشرب يوماً. حتّى يتهاوى. لا يتحمّلُ الخمر، لم يتحمّلْه يوماً. ولكن أليس هذا هو بالضبط ما يُحفّز على الشرب؟ تفجيرُ الرأس بكؤوس سكوتش. يرغب بشدّة، الآن، أن يشربَ كأساً أو كأسين، لتكفّ يده عن الارتجاف، ولمداراة حرقة الإهانة. ولكنّه يعلم أنّه لن يفعلَ ذلك. لأنّ مجنّدي مدفعيّة بوريغارد حرّروه للتوّ. لم يكن أكثر من حطام حتّى الآن. رجل بألف حياة فاشلة. أجبره الخمر على مغادرة الجيش. ما الذي كان يستطيع فعله؟ أن يظلّ مُرابطاً في تلك النقطة المهجورة من شمال كاليفورنيا حيث الأيام كانت تبدو تتلذّذ بتعذيبه ببطء حيث لا شيءَ آخر يمكنه فعله سوى مراقبة تسابق الغيوم في السماء والشرب وهو يتذكّر الخوف الذي شعره في مولينو ديل ري؟ حاول. جرّب سبع حيوات، أصبح مزارعاً، سمسار عقارات، تاجر حطب، حُطاماً. لم يكن يستطيع التحمّل. كانت الزّجاجة هي الأنسب على الدوام، وأعتقدَ بأنه سيظلّ محكوماً طوال حياته: بكراهيّة ذاته، وبمشهد تردّيه المتواصل تحت بصره، بالخجل أمام

نظرة زوجته التي كانت ترى أنّ عليها تربية أبنائهم الأربعة بمفردها، وهو يحبّها لأجل تفانيها، لأجل قدرتها على التحمّل، غير أنّ ذلك لم يكن كافياً لإبعاد الزّجاجة عنه. قذائفُ حصن سمتر فقط بوسعها فعل ذلك. شعر بذلك مباشرةً. انتظر زمناً طويل. كم هي عذبة... ما من صفعة كانت يوماً بهذه العذوبة. فإذاً أعاد مجدّداً قراءة المقال، إلى أن اصطبغت وجنتيه بالحمرة. يحاول تخيّل روبرت أندرسون، مطأطئ الرأس، خارجاً من الأنقاض مع رجاله وهتافات الفرح في كل الأنحاء ترسم على مُحيّا بوريغارد بسمةَ الرضا. ذلك، أجل، قوي بما يكفي ليجعله يستغني عن الشرب. ذلك، يشعر به، سوف يكنس مصبغة أبيه التي عاد ليعمل بها لأنّه لم يكن لديه خيار أفضل، وسيكنس معها أيّام الانهيار، وذكريات تشابولتبك الصعبة. سيغدو مُحارباً من جديد وهذا أفضل لأنّه لا يكون هو نفسه إلّا في الزيّ العسكريّ. وصل به الأمر أن يفضّل اسمه الذي غيّره الجيش بسبب هفوة، أوليس إس. غرانت، على اسمه الحقيقي، حيرام أوليس غرانت، لأن هذا اسم حيواته الفاشلة، مهنهُ التي لم يجنِ فيها قرشاً واحداً، اسم الزّجاجة التي تتدحرج عند قائمة الكرسيّ الذي غفا عليه، إنّه اسم نظرة زوجته، غير العاتبة، إلّا أنّها مخذولة، إنه اسم لحياة طويلة أهلكته، فإذاً يختاره، أوليس إس. غرانت، إلى الأبد، يفضّله. وليضحك بوريغارد حيثما هو موجود. ليصرّح جيفرسون ديفيس بكل ما يريده، ولتبقَ فرجينيا على تردّدها، قبل أن تحسم أمرها في الالتحاق بمعسكر الانفصاليين، هذا أفضل هو بحاجة إلى هذه الصفعات. الغضب فقط سوف ينقذه من الضجر. وهو يشعر الآن أنّ سقوط حصن سمتر فرصة، فرصة لا تتكرّر في الحياة سوى مرّة واحدة والتي سوف تنتشله من الكارثة.

اليوم، يجب تقبّل الموت. مع أنّ كلّ شيء جميل... يسيطر جيشه على التلّة المشرفة على سهل ماي شيو. يحتشدون بأعداد هائلةٍ، يقودهم أمراء إثيوبيا، وجميعهم مثله، متحدّرون من أبطال عدوة،

المحاربين المُظفّرين الذين هزموا إيطاليا: مينليك الثاني، تايتو بيتول، مينغشا يوان... كافّة المحاربين يفكّرون بذلك فيما هم يتزاحمون عبر جموع متعدّدة الألوان. يتضرّعون إلى أرواح أجدادهم، آملين أن تكون لديهم شجاعتُهم ذاتُها. يلطمون صدورهم، ويشجّعون بعضهم بعضاً، شعورهم شعثاءُ، ولِحاهم كثّة. يتقدّمون، مُضفَّري الجدائل، مزدانين بالحلي، بثياب فاقعة الألوان. ليس بينهم من يرتدي زيّاً عسكريّاً. مسلّحين بالحديد، بالبنادق أحياناً، وبالسكاكين. يتركون غضب الحرب يتصاعد داخلهم آملين أنّ يكون اليومُ أيضاً يومَ انتصارهم الكبير. يتأمّل هيلا سيلاسي الحشود التي لا تزال تتوافد. منذ أشهر، وهذا المكان وهذا النّهار مقصد كلّ الأحداث. كما لو أنّ أفعاله جميعَها منذ بداية الحرب لم يكن لها من هدف سوى أن تُفضيَ إلى هذه المعركة. ولكي يصلَ إلى هذه اللحظة أطلق، في الثالث من تشرين الأوّل المنصرم عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، نداء التعبئة العامّة من على درجات قصره عبر مكبّر الصوت، وقُرِعت الطبول، في جميع أرجاء البلد، مُعلنةً الحرب. لأجل هذه اللحظة اتّجه حشد غفير من المحاربين تدفعهم الحميّة، رجال من جميع الأعمار، صوب أديس أبابا. منذ الهجوم الإيطاليّ الأوّل، في منطقة ول ول، وهذه المعركة النهائيّة يُعدّ لها. إذ إنّ موسوليني يريد الانتقام، ولم يكن إرساله لقوات الحملة العسكريّة تلك تحت قيادة المارشال بادوليو إلّا لغسل إهانة عدوه وإعادة السيطرة على إثيوبيا. اليوم، كلُّ شيء تهيّأَ. حشود محاربيه تتَّسعُ أمامه في انتظار أن يعطيَهم الإشارة ليندفعوا في السهل ويمزّقوا العدوّ. يقف منتصبَ القامة، بينَ راس ديستا وراس كاسا. إنّه هادئ. يستغرق وقته في تأمّل كلّ شيء. عمّا قريب سيأتي الانقضاض وتسديد الضربات. عمّا قريب سيكون الدّم. يكرّر في داخله للمرّة الأخيرة هذا الاسم، ماي شيو. لا يوجّه كلامه لمن يحيطون به إذ ليس بمقدوره أن يصرّح بما يفكّر به لأحد: بأنّهم أتوا هذا المكان، في ماي شيو، ليموتوا.

جلستُ في ساحة بلفيو، داخل كشك إسمنتي حيث ثمّة مقعد يُمكن الجلوس عليه للذين ينتظرون الترامواي في الأيّام الماطرة أو للذين، مثلي، يفضّلون المكوث هنا لتأمُّل المارّة في الشارع في جيئتهم وذهابهم. أحتسي على مهلٍ القهوة التي أخذتها من البار المجاور للمرْقب حيث تُباع البطاقات. تتقاطع حافلات الترامواي، تتوقّف، ثم تنطلق من جديد، الرقم 5، الرقم 7... تمرُّ وترحل منزلقةً بلا توقّف. منها من يمضي بمُحاذاة البحيرة، وحافلات أخرى تجتاز الجسر... ينزل منها رجال ونساء. الحركة تدبُّ في المدينة. كلٌّ يمضي إلى حياته: يتسوّق، يذهب لجلب الأطفال، يلتقي مع صديق... ما عدتُ أنتمي إلى هذه الحياة تماماً. أين يمضون، جميعهم، بهذه الهيئات المصمّمة؟ هل أفلحوا بالإيمان بهذه الحياة، والاستغراق فيها بالكامل؟ ثمّة في داخلي ما ينفصل عن هذه الحياة. غير ملحوظ لكنّي أشعر به. أعلم أنّه ينبغي ألّا أفكّر بغير موعدي مع أوغست، وأن يكون تركيزي منصبّاً بأكمله على هذا الموعد، ولكنّي أعجز عن ذلك. سوف يشرح لي عمّا قليل أين سأذهب. سنحتسي بهدوء قهوة ريستريت وسوف يمدّني أوغست ببعض المعلومات. أعجز عن التفكير بهذا الشأن. تعاودني صورة شعر مريم السميك الذي كان يلتمع في الليل. تعاودني صورة كتفيها العاريين ونعومة يديها. لا أزال مستسلماً لعبور حافلات الترامواي. بردت القهوة ببطء في كأس الكرتون الصغير التي أمسكه براحة يدي. هل في هذا دلالة على أنّي أشيخ؟ هذا الصدع غير الملحوظ، في داخلي، والذي يفصلني عن الأشياء، الذي يجعلني أقلّ توتراً، أقلّ توقّداً، ويجعلني أراقب الناس في معظم الأوقات كما لو أنّني أتابع مشهداً مسرحيّاً. هل أعطيتُ تلك المرأة موعداً لمجرّد أن أترك لنفسي المجال بأن يحدث شيءٌ قبل موعدي مع أوغست، قبل أن تستوليَ الجمهوريّة الفرنسيّة عليَّ مجدّداً، وتسلّمني اسماً جديداً، ومهمّةً، وميدان عمليّات؟ أهذا ما أبتغيه؟ تأخير اللحظة التي سألتقي بها الرجلَ الذي هو رئيسي، الذي أعرفه منذ سنوات إلّا أنّني أدعوه دوماً بهذا الاسم، أوغست، مع يقيني

بأنّه ليس اسمه، سيعطيني ظرفاً يحتوي، كما احتوتْ جميع الظروف منذ عشر سنوات، بطاقاتِ طائرة، شخصَ اتّصال في مدينة بعيدة وتوصياتٍ محدّدةً بدقّة. أتساءلُ إذا ما كانت رغبتي، عندما قلتُ لمريمَ بالأمس إنّي سأكون في ساحة بلفيو عند العاشرة صباحاً، بأن أهرب ممّا أنا عليه.

حيّة. جعلني حيّةً. منذ وقت طويل لم يلمسني هذا الشعور. لذا حين أعطاني موعداً في ساحة بلفيو، في العاشرة صباحاً، لم أُجبْ بشيء ولكن عرفتُ مباشرة أنّي سأذهب. بعد أن خرجتُ من الفندق، مشيتُ في الهواء المنعش للمدينة التي بدأتْ تدبُّ فيها الحركة. عبرتُ جسر بلفيو وسرت بعدَها على طول الأرصفة في الضفّة الشرقية. كان الهواء يفتح الرغبة للتنفّس ملءَ الرئتين. حيّةً. أجل. رغم المرض الكامن في داخلي، هذا المرض الذي أخبروني عنه وهم ينظرون إلى فحوص الدم، بهيئة جدّية، مستغرقة، هذا المرض الذي يتطلّب فحوصاتٍ معمّقةً، الذي كان يجعل صوت الأطباء يخفتُ، الذي كان يتطلّب أخصائيّاً وبعض الإجراءات المعتادة، هذا المرض الذي رأيته أخيراً في صورة إشعاعيّة لوّحَ لي بها. ولكن في الصورة أيضاً، كان المرض أمراً مُجرّداً. كيف يُصدَّقُ بأنّ لدى هذه البقعة الداكنة أدنى تأثير على حياتي؟ كيف يُصدَّقُ أن يكونَ لهذه التي في الصورة الملتصقة على لوح مضيء، أدنى علاقة معي؟ أخذت أحاول مراراً، بعد ذلك، الإصغاءَ إلى نفسي. أن أتنفّسَ ببطء، عند المساء. أن أُنصِتُ على أملِ أن أشعرَ في داخلي بهذا الجُسيم العدوّ الذي يقضمني ويتغذّى من قوايَ ليكبرَ. عاصم، مع المتعة التي منحني إيّاها وكثافة الإصغاء الذي أولاهُ لي عندما كنت أتكلّمُ عن السرابيوم وماريت باشا، أنْسَاني عدوّي الداخلي. ولكن ليس لهذا السبب سأذهبُ إلى الموعد، ليس بسبب الامتنان، ولا الشهوة، وإنّما لأنّي رأيت نقاطَ ضعفه. لم يُخفِ نفسه. رجلٌ مائل على هاوية. شعرت أنّه سيختفي وبدا لي بأنّه ينبغي لأحدٍ أن يكون موجوداً ليراه وهو يفارق

نفسَه. يغادر، أشعر بذلك، إلى أماكنَ لا عودةَ منها، أو لكثرة ما نكون مختلفين يستحيل علينا القول إنّنا عدنا حقّاً. أصعد هذا الترامواي ليس من أجل المغلّف الذي وضعتُه في حقيبته قبل الفجر حين كان لا يزال نائماً. على الأرجح لم يكتشفه بعد. أصعد الترامواي ولكن لن أقولَ له شيئاً عن تمثال بيس الذي دسَستُهُ بين قميصين أسفلَ حقيبته، مع كلمة صغيرة، مكتوبة على ضوء الفجر، محاولةً ألّا أصدرَ صوتاً. ربّما لن يدركَ ما الذي يُمثّله هذا التمثال؟ ربّما لن نلتقيَ بعد هذا اليوم ثانيةً، ولكن أعرف أنّ هذا منصف. التمثال منذور لكي يُعطَى. ليتنقّل من يدٍ إلى يدٍ. من قرنٍ إلى قرن.

الهزيمة، حاضرةٌ. هل الآخرون لا يرونها؟ الهزيمة الحيوانيّة، النهمةُ، غير القابلة للاستئناف. لن يكونَ بوسعهم الفرارُ منها. هل هو الوحيد الذي يشعر بها؟ يمرّرُ الجنرالاتُ منظاراً صغيراً بينهم ويعيدون تمريره، يُحصون الفرق الإيطاليّة وأفواج الإرتيريّين ويعيدون إحصاءها. بين حين وآخر يُمَدُّ له المنظارُ ليقيّمَ الوضع بدوره، إلّا أنّه يُعرِضُ عن ذلك. إنّه، إمبراطورهم جميعاً، ملكُ الملوك، هيلا سيلاسي، على يقين من الهزيمة ولكن ما النفعُ من إخبارهم؟ يحافظ على هدوئه الأسطوري، لا يعبّر عن شيءٍ، لا خوفَ، ولا تسرّعَ، إنّه الوقت الذي لا يتأثّر، العينُ التي تستشفّ ما سيحدث. ترمقه رجاله، قصيرَ القامة، في زيّ عسكريّ تامّ والذي يتفرّدُ به. بينما الآخرون، جميع الآخرين، مشعّثون، بملاءات تغطي الأكتاف، ويزدانون بالحلي حول الأعناق، وفي الآذان، والمعاصم، ويتقلّدون خناجر في أحزمتهم. لا ينبسُ بكلمة. لقد كان ضدّ هذه المعركة. ما الذي سيجنيه من وراء إحصاء الأعداء وتكرار إحصائهم؟ سيموتون اليوم. هو يعرف ذلك. أعداد الإيطاليّين أقلّ ولكن هذا لا يبرّر لراس ديستا وراس كاسا أن يشعرا بالسرور، وأن يريا فيه سبباً لأملٍ فيما ستخلُصُ إليه المعركة. اليقينُ الوحيد المؤكّد، أنّ

الإيطاليين سيسحقونهم. هو يعلم بذلك منذ الحصار الذي فُرِضَ عليه وعجزَ عن كسره. لم تتنازل فرنسا ولا إنكلترا عن موقفهما. لقد حاول كلّ شيء ولكن دون جدوى. هو يعلم اليوم بأنّ ليس لديه أسلحة. مدفع 75 فقط الذي أهداهُ له المارشال فرانشيه ديسبيري باسم فرنسا المنافقة يومَ تتويجه. مدفع واحد. دون أيّة طائرة قتاليّة. رجالهُ باسلون، أجل، لكنّهم سيمضون سيراً أو على ظهور البغال، فلسوف يخسرون إذاً. ظنّ لوهلةٍ بأنّ الأسلحة التي قبل هتلر بيعَها له ستكفي لكسر الحصار، ولكنّ البنادق وصلت بدفعات صغيرة مُتباعدة وضاعت في البلد المترامي الأطراف... ليس لديه أسلحة. الحرب الوحيدة التي كان من الممكن تخيّلها والتي كان يمكن أن تحقّقَ له النصر بعد أشهر، بعد سنوات من المكابدة، هي حرب العصابات. أن تسمح للعدوّ أن يدخلَ، ويستولي على الأماكن وفيما بعد تلحُّ في مضايقته، في إنهاكه، في تدميره شيئاً فشيئاً في حرب تدور في طرف العالم والتي سيتخلّى عنها في النهاية بسبب كلفتها الباهظة. هذا ما كان ينبغي عليه فعله. لكنّ هيلا سيلاسي، ملك الملوك، يظلُّ أسيرَ ذاته، ولا يستطيع. قال له جنرالاته: «ملكٌ لا يشنُّ حرب عصاباتٍ مثلَ قاطع طرقٍ»، وذلك كان يدوّي مثل صفعة. الملك يشنُّ حرباً. وإذا كان عليه أن يخسرَ، فالأجدى أن يموتَ في ميدان المعركة. هذا هو المصير الذي ينتظرهم، جميعهم، أصهارهُ، محاربوه، ورعاياه المُحتشدونَ: هو الموت في آخر معركة طاحنة. في مواجهة مباشرة لا طائل منها ودمويّة غير أنّ التاريخ سيتذكّرها. لا يمكن للأمر أن يكون إلّا كذلك. فإذاً ليس لتحركات الفرق العدوّة أيّةُ أهمية، ولا لعدد الطائرات التي سينشرها موسيليني في سماء إثيوبيا، هو يعلم بأنّ الذي تبقّى له ليعيشَه، في الوقت الحاضر، هو الفوضى وما من شيء عدا ذلك.

ينزلق الترامواي بمحاذاة النهر. أستسلمُ لمشهد المدينة يعبر تحت بصري وصولاً إلى ساحة بلفيو. حين يتوقّفُ، لا أنزلُ. لماذا أفعلُ ذلك؟

أحدّقُ عبر الزجاج، باحثةً عنه. يكفي أن نرى بعضنا، مرّة واحدة فقط. يكفي أن يتسنّى له النظرُ إليّ. أن يرى أنّني أتيت، بأنّني فهمت بأنّه يجب أن يوجدَ اليومَ شخصٌ ما ليقول له وداعاً. يكفي بعض من هذه اللحظات لكي تُحيل لقاءنا، فجأة، إلى شيء آخر مختلف عن أمسية متعةٍ في غرفة فندق، شيء آخر مختلف عن جميع تلك الليالي التي سبقت حيث كنتُ أقبّل فيها رجالاً لم أعدْ يوماً إلى رؤيتهم. يكفي أن يراني. سأعود إلى حياتي، إلى عملي في المتحف البريطاني، ومواعيدي في اليونسكو، وتقارير الخبرة التي أعدّها للإنتربول، إلى حياتي كآثاريّة راكضةٍ وراء العديد من القطع المسروقة. سأعود إلى لياليّ المكتنفةِ بالخوف الهائل، إلى اللحظات التي سأعجز فيها عن منع نفسي من التفكير بالمرض، إلى البقعة التي تتضخم، إلى بشاعة جسدي الذي سوف ينهار يوماً ما (متى؟ بعد سنة، سنتين؟) ... سأعود إلى كلّ هذا ولكن أعرف أنّه سيكون لديّ صورةٌ لألوّحَ بها وستجلب لي الراحة والطمأنينة، وستُبعد المخاوف والسوداويّة. سيكون لديَّ هذا الرجل، المنتظرُ في ساحة بلفيو، صورة هذا الرجل، في برودة الصباح، وهذا البيتُ الذي أهداني إيّاه كأنّه كان يعلم: «أيّها الجسَد، تذكّر، ليسَ فقط الشّغفَ الذي أُحْبِبْتَ به...».

تمرّ الدقائق ممتعةً. بوسعي البقاء هنا طوال اليوم. كلّما توقّف الترامواي يُفرِغ جمهرة صغيرة من الرجال والنساء المُستعجلين الذين ينزلون خفافاً. يحيطون بي للحظات ثمّ يتفرّقون وينطلق الترامواي مُجدّداً، حتّى يأتيَ التالي ويغرقني ثانية في ضجّة الناس المنهمكة. أشرب قهوتي على مهل. لم يبق كثير من الوقت أمامي قبل أن أنهض وأجتاز الشارع وأدخل المبنى المقابل، حيث أوغست، لا بدّ أنّه ينتظرني وفرنسا معه، والأوامرُ، والبلادُ البعيدة وأسماءُ رجال للتصفية.

ثمّ فجأة، وبينما أهمُّ بالنهوض، هناك، أمامي، في الترامواي، ظهر وجهها خلف زجاج إحدى النوافذ، تتأمّلني. أتت لهذه الغاية، أشعر

بذلك. لن تنزلَ. سوف تبقى في آخر الترامواي، واقفةً، أمام الزجاج. أقفُ، أسيرُ بضع خطوات نحوها، لماذا، لا أعرف... ثمّ ينهزُ الترامواي باندفاعة صغيرة ليعاود الانطلاق مُجدّداً، مصدراً صفيراً حادّاً قصيراً لكي يبتعدَ المشاة عن السكك، عندئذ، ترتفع يدها، على مهل، مشيرةً بحركة خفيفة ـ ولكن أيَّ معنى تحملُ...؟ ـ نتبادل النظراتِ حتّى يغيب الترامواي تماماً. لمْ تنزلْ. لمَ كانت ستنزلُ؟ لتناولِ القهوة؟ للتحدّثِ؟ لنرتطمَ باستمرار على صخور حياتين لا نستطيع أن نرويَ قصّتهما لبعضنا لأنّ الأمر قد يكون فائق الطول، فائق الضجر، إذ إنّ متعةَ أن نكونَ سويّةً تستمدّ قوّتها من الهروب من كلّ هذا؟ لم تأتِ إلّا لأجل هذه النظرة المتبادلة الطويلة... فهمتْ أنّ ليس بوسعي أن أمنحَ أكثر. صوتُها، قصّة ثيران آبيس، عامود الدخان الأزرق الطويل الذي يتصاعد على مدى أربع ساعات من فوّهة الضريح، روعةُ جسدها، كلُّ هذا يملؤني ثانيةً. وداعاً، هي أتتْ لهذه الغاية. وداعاً، أجل، تقولُها باليد، بتلك الحركة غير المكتملة، تلك العينين الواسعتين اللتين يبدوان أنّهما رأتا كلّ شيء وما عاد شيء يرهبهما، وداعاً، أعلم يقيناً الآن أنّ بوسع كلّ شيء أن يبتدئ.

الآن، عند هذه اللحظة تماماً، كلّ شيء يبتدئ. يشعرُ بذلك. يرى ذاك الجنديّ يركض نحوه، في الممرّ الرئيس للمُخيّم، متجاوزاً الخيم التي نُصبتْ في هذا المكان منذ ثمانية أشهر، وبعبوره يخرج الجنود، رافعين رؤوسهم، ويلبثون في أمكنتهم. لدى الجميع شعور بأنّ شيئاً ما سيحدث، بأنّ النبأَ الذي جلبه لهنيبعل على غاية من الأهميّة. يظلُّ هنيبعل لابثاً في مكانه، مُتهيّأً لاستلام هذا النبأ، وسط رجاله، أولئك الرجال الأشدّاء الذين سبق لهم أن هزموا شعوب الأولكاد[1]، والفاكسيين[2]،

1ـ الأولكاد (Olcadi باللاتينيّة) من شعوب إيبريا القديمة، الذين عاشوا في منطقة جنوب شرق سلسلة جبال إيبريا.

2ـ الفاكسيين (Vaccaei باللاتينيّة)، شعب إيبيري سكن المنطقة التي تدعى تييرا دي كامبوس حالياً في شمال إسبانيا.

والكاربتيين[1]، موحّدين هسبانيا[2]، إلى أن تكلّم الرسول في النهاية: ساغونت سقطَتْ. تمّ الأمر: حصار المدينة ينتهي. ثمانية أشهر من الاختناق البطيء، الصبور، للوصول إلى هذا اليوم. كلُّ شيء يبتدئ الآن. عبورُ مضيق جبل طارق لم يكنْ شيئاً يُذكر. كانت الأرض قريبةً جداً. لم يكن ثمّة أيّةُ حدود للاجتياز والسفن رستْ بسهولة. وعبورُ البيرينيه سيكون سهلاً أيضاً. حتّى وإن كانت الجبال عاليةً، ثمّة شِعابٌ وسوف يعثرون عليها. وسوف يستعينون بالسكّان المحلّيين، وإذا ما تردّدوا في تقديم العون، فسوف يلهبون أقدامهم حتّى يتكلّموا. ليستْ تلك البداية، وإنّما بسقوط ساغونت كلُّ شيء يبتدئ. وروما، ربّما، لا تعلم بذلك بعد. روما التي لم تستعجل القدوم لمساندة هذه المدينة الحليفة. روما التي لم تتخذ الحيطة من هذا الرجل لأنّها لا تعرف سوى اسم الأب، هميلقار، الذي وصل إلى صقيلية مرتكباً غارات قرصان، لكنّها ستتعرّف لاحقاً على أسماء أبنائه: هنيبعل، هازدروبال وماغون. ستتعرّف عليهم وهي تبكي، وهي ترتعد، وهي تستيقظ في الليل، وفي النهاية ستفهم أنّها بأمسّ الحاجة إلى حلفاء وبأنّ عدم مسارعتها إلى نجدة ساغونت كان خطأً فادحاً... لكن حتّى هذه اللحظة، هي لا تعلم شيئاً، هنيبعل فقط من يصلهُ الخبرُ: ساغونت سقطت. يمكن للمسير أن يبتدِئَ. سيسمح لهازدروبال أن يحكم هسبانيا وهو سيجتاز البيرنيه. الجنودُ، حوله، يصيحون بهجةً. ولن يطولَ الأمر حتى تعرفَ الشعوب بكلّ الأرجاء أنّ ساغونت لم تستطع الاعتمادَ على مساعدة روما. وبالتالي ستتفكّك التحالفات. هذا هو ما ينبغي: أن تكون روما وحيدةً في مواجهتهم وعندئذ سيبتلعونها. يتجمّع الجنود الآن ويتحلّقون حوله بحشود مُتراصّة. رماة المقلاع من جزر البليار الذين يتنقّلون بجذوع محزّمة بشرائط جلديّة، الفرسان النوميديون، هم الأكثر جنوناً، الأكثرُ بسالةً، المشاة الإيبيريّون

1ـ السكان الذي عاشوا في الجغرافية التي توافق موقع طليطلة والمنطقة التابعة لها.
2ـ الاسم الذي أطلقه الرومان على كامل الجزيرة الإيبيريّة (البرتغال وإسبانيا وإندورا وجبل طارق وبعضاً من جنوب فرنسا).

الذين عرفَ كيف يستميلهم ليلتحقوا بجيشه، الليبيّون الذين يُجيدون استعمال المَجَانّ[1] دون أن تفارقهم الابتسامةُ، جميعهم يهتفون له، كلٌّ بلغته، بابتهاجهم الفظّ كسفّاحين. إذ يشعرون للمرّة الأوّلى بأنّ الشّاب الذي أمامهم والذين وعَدَوا بإطاعته ليس قائداً حربيّاً صغيراً وإنّما فاتحٌ، وسوف يُتاح لهم المشاركة ليس في سلسلة غزوات مرتزقةٍ وإنّما في صفحة من التاريخ، إذ إنّ التاريخ يُصنَعُ هكذا، ـمن يمكنه الشكُّ بذلك؟ـ، الأيدي مطبقة على أسلحتها، والمجموعات متضامّة تتحلّقُ حول الأخوة الثلاثة. وربّما ما يشعرون به في هذه اللحظة، هو نفحة الإسكندر الأكبر، لأنّهم يعلمون، مثلَه هو وجيشه، بأنّهم سيمضون في طرق غير نهائيّة، ويبتدئون فتوحاتٍ لم تخطر يوماً على بال، فيهتفون له إذاً: هنيبعل... هنيبعل... يشعرون بأنّ التاريخ هو الذي يعبرهم، سواء انتهوا أمواتاً أم أحياءَ، مظفّرين أو محطّمين. يشعرون بأنّهم سيبدؤون المسير، هنيبعل... هنيبعل... وبأنّ العالم لن يكونَ نفسَه بعد اليوم...

تبتعد الحوّامة عن كالافغان. يضجُّ الجنود داخلها، ولا يتوقّفون عن التّحادث. يتمنّى لو يطلب منهم الصمت. يسمعهم يقولون: إنّ نبضه يضْعُفُ، وإنّه يخسر الكثير من الدم. يسمعهم يتكلّمون عن جرح ساقه ووجهه المشوّه جرّاء الضرب المُبرح. يشعر بهم وهم يعالجونه. لا يستطيع أن يحدّد بدقّة إذا كان لايزال ممدّداً على أرضيّة الحوّامة أم رفعوه على نقّالة، كما إنّه لا يستطيع القول إذا كانوا قد حقنوا ذراعه لتمرير الجرعات التي سوف تريح ألمه وتهدئ جسده. يشعر بالدم الدافئ والكثيف يسيل على عنقه وساقه. يودّ لو يقولُ لهم أن يدعوه في شأنه ويصمتوا، ليس لرغبة في الموت، يدرك أنّه سيعيش، الأمر كذلك، وهذا الشعور لا يجعله مرتاحاً ولا خائبَ الأمل، سوف يعيش، لكنّه يودّ لو يتسنّى له المزيدُ من الوقت لسماع النساء يبكين كما كانت تبكي الأمّهات

1ـ مجانّ جمع مِجنٌّ وهو ترس جلدي مدوّر.

الثكالى منذ قرون، بنشيج أبعدَ من الكلمات، عُدْن مستوحشات، أجساد بُتِرَتْ منها فِلْذات أكبادها للتوّ. يريدُ أن يُرهفَ السمع لهذا الشَّدْو إذ يرى بأنّ صداه هو ما ينبغي أن يتردّدَ، هو الذي ينبغي أن يعلوَ في السماء ويطغى على ضجيج المراوح، ويعلم أنّ النساء تبتعد كلّما مرّت اللحظات. لا بدّ أنّهن قد بتنَ صغيرات، قصيّات، يكدن يختفينَ عن النظر، ولا يزلنَ يبكين، ولكن ليس على أحد وإنّما على أنفسهنّ، على الأطفالِ الذين لن يبصرنَهم بعد اليوم، الأطفالِ الذين كانوا يلعبون منذ دقائقَ خلتْ في فسحة تلك المدرسة والآن ممدّدون تحت الأنقاض. يودّ سماع أصواتهنَّ لوقت إضافيّ ويسمح لرجال كالافغان قذفَ الحجارة إذا تسنّى لهم، أو إطلاق النار، إذا كانت لديهم أسلحة، وللجحيم إذا تسبّب ذلك بأضرار في الحوّامة أو دمّرها، وللجحيم إذا عنى ذلك أن يموتَ هناك، فقد يكون هذا أكثرَ إنصافاً... ثمّة في سهولة هذا الابتعاد ما يثير في نفسه القرف. يريد المزيد من الوقت ليكون بمواجهة النساء وكراهيتهنّ، لمَ لا... الضرب المبرح، البصَقات، سرعان ما أصبح هذا كلّه وراء ظهره، ولن يخضع له ثانيةً. هذا المشهد، كما رآه هو منذ دقائقَ قليلةٍ فحسب، يتلاشى، ألسنةُ اللهب تخبو على مهل، وتبرد الحجارة، قُلّبتِ الأنقاض، ونُقّبَ تحتها، وأشلاء الأجساد التي عُثر عليها دُفنت بخشوع. وعمّا قريب، ستكفُّ النساء عن الانتحاب إلّا في عتمة لياليهنَّ. هذا المشهد يبتعد، يكاد أن يُمحى، بينما هو باقٍ مع جسده المثخنِ بالجراح، والدم الملتصق على بنطاله، وعينيه المتورّمتين جرّاء الأذى الذي تلقّاه، وشفتيه المشقّقتين. كم الأمر غريب... فمن دقائقَ قليلة فقط كان يركض في أزقّة كالافغان، مُدارياً وجهه بذراعيه ليتفادى الضربات، ولا تبدو الأصوات التي تصرخ من حوله أنّها ستسمح له بالفرار أبداً. والآن بات كلّ شيء بعيداً. يتذكّر اللحظة التي استسلم فيها كلّ شيء في داخله، حيثُ لم يعدْ للدم الذي يملأ عينه وفمه أدنى أهميّة. يتذكّر اللحظة التي قد تقبّلَ فيها الموت، وكان يفعل ذلك دون كراهيّة، ربّما، بسبب انتحاب النساء، أو لأنّه قتلَ مرّاتٍ عديدةً ولا يستطيع اليوم أن ينكر على العدوّ

حقّه في سلْبِ حياته. يتذكّر هذه اللحظة رغم أنّ الرجال حوله يكرّرون هذا الاسم الذي كان يظنّ أنّه لن يحتاجه بعد الآن: «سوليفان؟»، فيلجأ إذاً إلى نقطةٍ يستحيل الوصولُ إليها، المكان الذي لا يبالي فيه إذا كان ينزف دماً أم لا، المكان الذي لا يقلقه فيه إذا كان سيقف على ساقه ثانيةً أم لا، نقطة تعلو فوق كلّ شيء حيث تحلّق الحوّامة برشاقة في الأجواء وحيث لا يزال أمام شدْو النساء الغارقات في دموعهنَّ الوقت ليتردّد إذ إنّه الشيء الوحيد، في هذه اللحظة، الذي على العالم أن يسمعَهُ: حدادُ الأمّهات المُنهزمات.

-II-

آرغوس

«هل أنت مستعدّ للرحيل؟» لم يكن قد سمع صوت عمّه منذ زمن طويل. تعود الذكرى إليه فجأةً، كأنّها تتربّص في إحدى زوايا ذاكرته، منتظرةً اليوم والفرصة التي ستعاود الظهور فيهما، لاسيّما، تلك الجمل التي تنتمي للماضي، كأنّها قرّرت أن تحضر في ذهنه مجدّداً على هيئة لغز والذي، حتّى اللحظة، لم يكن يفهم منه شيئاً، لكن كان يشعر بأنّه سيأخذه إلى النقطة التي يهتزّ فيها عند الإنسان يقينُهُ. يسير التاكسي ببطء نحو مطار شارل ديغول. السماء صافيّة. يرنو إلى المدينة التي سيغادرها وهي تجري تحت بصره. «هل أنت مستعدّ للرحيل؟» يتذكّر اليوم الذي وجّه إليه هذا السؤال. عشيّةَ اليوم الذي كُلّف فيه بأوّل مهمّة له. وقد دعاه عمّه للعشاء حينها. أخذ حديثهما يدور حول الشعر والسياسة. كان ذاك العجوز يتّخذ تلك الهيئةَ الماكرة حين يتناول اضطراباتِ العالم في حديثه كأنَّ بوسعه، على عكس الذين لا يرون فيها سوى الفوضى، أن يجد وراء هذه التقلّبات، التراجيديّات، التوتّرات الدوليّة، معنى ما. لاحقاً، في ساعة التحلية، وسط قاعة المطعم الخاوية تقريباً، سأله هذا السؤال. بدايةً أجاب عاصم متروّياً بـ «أجل» صريحة. تريّث العجوز. إذ ليس هذا ما قصده. سأله «هل تتذكّر أغاممنون؟». لا يزال عاصم يسمع صوت عمّه العجوز كما لو أنّه جالس إلى جواره، في التاكسي الذي يسلك الآن أوتوستراد A1 ويمضي أسرع نحو الشمال. كيف حدث أن يتذكّر اليوم كلَّ هذا فجأة، وبهذه الحدّة؟ لو سُئلَ بالأمس إنْ كان يذكر أيّة كلمة من هذا الحديث الذي دار قبل عشر سنوات، في ذاك المطعم الكائن في الدائرة 14، بصحبة عمّه، لكان سينفي على الأرجح،

ولكن عند هذا الصباح أخذت تعود إليه الذكرى بحذافيرها. أين كانت مختبئة هذه الصور، هذه المشاهد؟ في أيّ ركن من الذاكرة، تكون في البداية صعبةَ المنال، ثم لا تلبث أن تنبثقَ ثانية بوضوح حدثٍ قريب؟ تكلّمِ العجوزِ عن ميقينية[1]. بلى. هو يتذكّر. كما لو أنّ ذاكرته تُفرَد الآن، رويداً رويداً، كلّما غاص فيها أعمق. «جميع الناس تعرف حرب طروادة ولكن يبدو أنّ أحداً لم يُفكّر فيها حقّاً... ماذا تقول لنا الملحمة؟» ترك عمّه يتكلّم والعجوز استفاضَ، أتى على ذكر تلك الأيّام الطويلة دون ريح، وعن نظرات الآخيّين[2] التي تنمّ عن فقدان صبر وقلق. كانت الأيّام تمضي والريح لا تهبُّ. والقناعة تزداد رسوخاً بأنّ الآلهة ترفض إقلاع المراكب. كان يسارع رجال عند مطلع كلّ صباح، في ميقينية، إلى أعلى المدينة، إلى النقطة الأعلى قرب جدار القصر، مترصّدين الجبال المحيطة، محاولين تحسّس أدنى نسمة على وجوههم، ولكن لا شيء... أخذ منسوب التوتّر بالارتفاع. ما الذي كانت تريده الآلهة؟ ومن ثمّ، جرت تضحية إيفجينيا. أخذ أغاممنون ابنته إلى المذبح وهي التي، موقعةً الذهول بين جماهر المحاربين، تُقدِمُ على قتل نفسها. وما هي إلّا لحظات، وبمثابة جواب من السماء، تنزل الريح الجبالَ جاعلةً الرايات تخفق. كان العجوز يتكلّم بحماسة. يتذكّر ذلك. لم يكن قد بقيَ أحد في المطعم كانا، مع ميقينية، بمفردهما. أخذ الآخيون يصيحون ابتهاجاً، وقد بدؤوا يستعدّون للصعود على متن سفنهم. مدينة ميقينية أخذت تَفرغ عبر موكب كبير. كان الرّجال جميعهم يتّجهون نحو سهل آرغوس، وقد عمَّ الاحتفال بالرحيل. عمّا قريب، سيعود الجنود مزدانين بالذَّهب. عمّا قريب، سيُمسح عار مينيلاوس. «أتسمع ما تقوله الملحمة؟» مستعدّ أن يخسر أيّ شيء مقابل أن يتردّدَ صوت العمّ إلى جواره ثانيةً. هذا الرّجل

1ـ أو ميسناي (Mycenae، باللاتيني) تقع في شمال شرق شبه جزيرة بيلوبونيز اليونانيّة، ملكها أغاممنون في إلياذة هوميروس.

2ـ في ملحمة الإلياذة هي تسمية لليونانيّين جميعهم، بينما تقتصر في التاريخ على سكان اليونان القديمة.

الذي يكنُّ له حبّاً جمّاً والذي قد تولّى تنشئته. لم يعلم آنذاك بماذا يجيبه، فإذاً استأنفَ الأستاذُ العجوز في معهد العلوم السياسيّة. الذي تقوله الأسطورة، أنّه حتّى قبل أن يطؤوا أرض آسيا الصغرى، قبل أن يلمحوا أسوار إيليون، كان أغاممنون قد خسرَ. لقد اضطرّ إلى قتل ابنته. أيُّ نصر هذا الذي يستحقُّ ذلك؟ حتّى لو استطاع أن يُقوّضَ طروادة، أو أن يمحق أعداءه ويحكمَ لقرون، ألم يكن مهزوماً مُسبّقاً؟ «هل أنت مستعدّ للرحيل؟» هذا ما سأله عمّه. والآن بات أكثر فهماً للمغزى. لا نستطيع الذهاب إلى المعركة بأمل العودة منها سالمين. «تذكّر ميقينية...» في البداية، ثمّة الدّمُ والحِدادُ. في البداية، ثمّة وجوبُ تقبُّلِ فكرة أن يُبترَ منك أغلى ما لديك. في البداية، ثمّة اليقين بانعدام الانتصار الكامل والمبهج. يعاوده الآن التفكير بالريح، في المقعد الخلفي للتاكسي التي تقلّه. ريح ميقينية المرادفة للموت. يعاود التفكير بأولئك الجنود الذين صعدوا سفنهم نافدي الصبر متعجّلين للقتال، دون أن يلحظوا بأنّ ثمّة شيئاً وراءهم مهزوماً مُسبقاً. كان عمُّه على حقّ. خَبِرَ ذلك مراراً. في كلّ مهمّة كان يترك بعضاً من نفسه. فإذاً يتساءل، هنا، على المقعد الخلفيّ للتاكسي، ما هي الحصّةُ التي سيُفرضُ عليه هذه المرّةَ أن يمنحَها للريح.

وصلتْ باريس في ذات الصباح. رغبتُها بترك لندن والاستقرار هنا لا تلبث أن تزدادَ. سينبغي عليها مواصلة الذهاب والإياب بين المتحف البريطانيّ واليونسكو، إلّا أنّها راغبة في المحاولة. ربّما إحياءً لذكرى أحاديثها مع مروان...

عندما تصلُ مكتبَها الصغير في اليونسكو، تعرف مسبّقاً أنّها لن تطيلَ المكوثَ فيه. إذ عليها أن تكون في بغدادَ بعد يومين. لقد قرّر الرئيس العراقي إعادةَ فتح المتحف الوطنيّ، المغلق منذ سنواتٍ. إنّه مؤشّر قويّ. ليُظهرَ بأنّ العراق ينهض من جديد ويستعيدُ تاريخه ثانيةً. ستكون مديرةُ اليونسكو ضمن هذه الرحلة وعليها مرافقتها. لن يتسنّى لها وقتٌ للتمتّع

بباريس، ولا وقتٌ للتفكير في إقامتها بزيوريخ وفي الرجل الذي التقته هناك. حياتها تجري على هذا النحو، سريعةً، كثيفةً، مُتقطّعةَ الأنفاس. تشعرها الحماسة بالتحفّز: سيفتح المتحف أبوابه ثانيةً. سنواتٌ مضتْ عليها وهي تلاحق القطع المسروقة في أرجاء العالم. عمل صبور، عنيد، قامت به بولع وغيظ شديدين. لا تزال تذكر اليومَ الذي شهدتْ فيه، عاجزةً، نهبَ المتحف. كان ذلك سنة 2003، حين دخل الأمريكيون بغداد. كانت شابّةً آنذاك والنهب جرى تحت بصرها وأبصار زملائها جميعاً من طلبة التاريخ. لم يَسعْهم فعلُ شيء. الأمريكيّون لم يتحرّكوا، تركوا اللصوصَ يروحون ويجيئون، يكسّرون كلَّ شيء، ويسطون على كلّ شيء. ربما موهبتُها ولِدتْ هناك، في ساعات الحنَق تلك حيث كانت هي وزملاؤها يتأمّلون اللصوص في مجيئهم وذهابهم، ليس موهبتها كآثاريّة، وإنّما موهبتُها في تعقُّب القطع المسروقة. تحاول الآن أن تتذكّر مئات الساعات التي قضتها منذ ذلك الحين في البحث عن أثر لوحات الفسيفساء، الأيقونات، الأواني المسروقة. كلّما كان مطارٌ يجد إحداها في حقائب جامعي الآثار، كانوا هي من يستدعونها لتفحّصها. صراع طويل على مدى اثنتي عشرة سنةً. ولكنْ بعد أيّام قليلة، سوف تنال جزاء جهودها: سيُفتح المتحف الوطنيّ ثانيةً وستكون القطع مجدّداً في مكانها.

مَنْ أطلق الرصاصة الأولى؟ لا أحد يعلم ذلك غير أنّهم جميعاً سمعوها هناك على مسافة كيلومترات. أوّلَ رصاصة لمَا سيكون لاحقاً مذبحةً هائلةً. الساعةُ الخامسةُ صباحاً، في هذا اليوم الذي سيقضي فيه بلدٌ على بلدٍ آخر... أعطى هيلا سيلاسي الأمر بالهجوم، يستيقظ الإيطاليّون في حالة استنفار. تجري عبرَ الشفاه عبارة: «تمّ الأمرُ... إنّهم يهجمون...» وبعد ساعة، ربّما، ستصل المعلومة إلى المارشال بادوليو شخصياً. سيوقظه أحد معاونيه بأقصى وقار ممكن: «مارشال...» سيقول ذلك محافظاً على استقامة نظرته كي لا يقع بصره على اللحم المترهّل

الذي يظهر عبر أزرار البيجامة المفتوحة، «مارشال... المعركة بدأت» عند أوّل رصاصة، أخذ آلاف الرجال يركضون في السهل. هو يقف في الخلف بزيّه الأوروبيّ منتصبَ القامة. سيواصل حتّى النهاية. وإذا تطلّب الأمر سيمدُّ راس كاسا بالتعزيزات. لكن في الوقت الحالي، ينبغي الانتظار، وتركِ مُهلة للمحاربين لكي يركضوا، ويقتربوا من الخطوط العدوّة. يعلو صوت الصخب إلى أن يُسمَعُ من مكانه، تمنّى لو أنّه يركض معهم، يشعر بهم من حوله، ويشاطرهم عرقهم.

في مبنى مطار رواسي، يعود عاصم غريّب للتفكير في اجتماعه مع أوغست في زيوريخ، وفي رجل الاستخبارات الأمريكيّة الذي كان يرافقهما: دان كوفاك. يتذكّر العبارة التي استهلّ بها المُحادثة. «لدينا مشكلة مع أحد رجالنا»، قال كوفاك. ثمّ أخرج مُغلّفاً وعرض صوراً. سوليفان سيكو. واحد وأربعون عاماً. من قدامى Seal Team 6 [1]. أحد رجال ماكروغان. «أُخِذَت له هذه الصورةُ قبل يومين من رحيله في مهمّة إلى شمال أفغانستان... لم تجرِ الأمور هناك على ما يرام. وعاد ممزقاً أشلاء...» أردف دان كوفاك. أمعن عاصم نظره في وجه سوليفان سيكو دون أن ينبسَ بحرفٍ.

يدخل سوليفان المطعم. يصل مع أواخر الواصلين، عند ظهوره يهتف الأصدقاء بهجةً، كما فعلوا عند وصول كلّ واحد منهم. يقدّمون له كأساً ويشربُ. بعد يومين، سيغادر إلى كالافغان لكنّه لا يزال يجهل هذا الاسم، لا يعلم بأنّه سيكون اسم جرحه. جُلّ ما يعرفه أنّه سيُرسلُ إلى ولاية قندوز في شمال أفغانستان. فهل كان سيُفرِطُ في الشراب لو علم بأنّه سينجو من الموت بأعجوبة؟ يتلقّى مُداعباتٍ تُوجّه إليه، ويردُّ عليها. يتبسّم، يضرب كفّاً بكفّ، يعانق، يأخذ مكانه على المقعد في

1ـ فرقة عمليات خاصة تابعة لقوات البحرية الأمريكية.

نهاية القاعة ويستسلم للغرق بضجيج رفاقه الذين ما من سبب لاحتفالهم ربّما سوى أنّهم على قيد الحياة، وهذا يناسبه، فيشرب هو أيضاً، بقدر ما يشرب الآخرون وحتّى إنّه فاقَهم. فيما بعد، حين وصل الجميع، وباتوا محشورين إلى حدّهم الأقصى على هذه الطاولة المُخصّصة لثمانية أشخاص إلّا أنّ المتحلّقين حولها بلغوا اثني عشر على الأرجح، يسأل أحدهم صاحب المطعم بأن يلتقط لهم صورة، كما لو أرادوا أن يمتلكوا الدليل بأنّهم جميعاً في تلك اللحظة على قيد الحياة. رجال تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين، مفتولو العضلات، أصحاب الأعصاب الباردة، الذين قتلوا، الذين خافوا، والذين يبرعون في الغوص في صمت العمليّات، لكن في هذه البرهة بالتحديد تجتاحهم الرغبة في السلوى ورفع القهقهة. يشعر بهم يلزّونه يميناً ويساراً، وبيد تحطُّ على كتفه- ينبغي أن يُوجدَ للجميع مكانٌ داخل الصورة. يتبسّم، يظنُّ أنّه يتبسّم، لكنّ لا يدري بأنّه لا يفعل ذلك.

يتمعّن عاصم في الصورة ملياً، عرِفَ الكثير من الرجال على شاكلته: بنية مثيرة للإعجاب، ووجه مُحبّبٌ للنفس حتّى وهو يتأبّطُ بندقيّته الهجوميّة. تلفِتُ انتباههُ، بين الصور، صورُ تناول الوجبة: حيث يجلس سيكو هناك في وسط الجَمْعِ، والكلُّ يرفع كأسه. يمكن تخيُّلُ النكاتِ الثقيلة، والتربيتِ على الظهر، قصص السلاحِ المكرّرة مراراً. هو لا يتبسّم. يحدّق في العدسة بنظرة تسِمُ الغرابةُ عمقَها.

الذي لن يظهر في الصورة، هو الطلاقُ الذي كان قد حصل للتوّ. الذي لن يظهرَ، هو زيارته الأخيرة للبيت الذي عاش فيه خمسة عشر عاماً وغادره من الباب الخلفيّ، ساهياً، منهكاً، هو نفسه لم يعرف إذا كان مُحطّماً أم إنّ حملاً ثقيلاً أُزيحَ عن صدره. الذي لن يظهرَ في الصورة هو بلدة كالافغان التي تنتظره مع الأمّهات المنهارات أرضاً، جسده المُبرح، المجرجر على

التراب، الذي أُنقذ في اللحظة الأخيرة مع وصول الحوّامة. الذي لن يظهر في الصورة، هو اليقينُ الذي تولَّدَ في داخله أثناء العشاء، وسط ضحكات زملائه التي يشوبها بعض التصنُّع، بأنّه لن يكون جنديّاً آخر مُطلّقاً ينتظر بفارغ الصبر ليرى ابنه، ويعدّ لأجله مأدبة شواء يوم الأحد محاولاً جعل اللحظات التي يقضيها برفقة ابنه حفلةً دائمةً وهو يرى في نظرة هذا الأخير بأنّ مأدبة الشواء هذه مثيرةٌ للشفقة. الذي لن يظهر في الصورة هو الذي لم يعد له وجود. رفاقه حوله يصيحون، يغنّون. بات التكلُّم مستحيلاً. ليس لذلك أهميّة. هو لم يأتِ للتكلّم. وحتى عندما يهدأُ أكثرُهم صخباً، وحتّى لمّا تحينُ ساعات الأحاديث الأهدأ، ويتحلّقون بمجموعات صغيرة، متبادلين السجائر فيما بينهم على الرصيف لاستنشاق بعض الهواء، لن يتكلّم شيئاً، لن يأتيَ على ذكر طلاقه لأحد، ليس بدافع شعور بالخجل أو رغبة في كتم النبأ عن أيّ يكُنْ، وإنّما لأنّه لم يعد ذاك الرجل نفسَه. وقد ينتابه شعور في هذه اللحظة بأنّ كالافغان تنتظره وبأنّ ذلك المكان سيساعده على ترك الرجل الذي كانه يموت.

في بهو المطار، يتذكّر عاصم صوتَ دان كوفاك حين عرض عليه هذا الأخير الصورةَ. شرح له بأن سوليفان سيكو اختفى. لم يعد أحدٌ يصلُه منه أيُّ علامة تدلُّ على حياة. ولم يبدُ على زوجته، المطلّقة، تلهفٌ لمعرفة أخباره. كان الأمريكيّون يعلمون أنّه في بيروت. ثمّ أخرج كوفاك صورة أخرى، وقال: «هذه هي صورته الوحيدة الحديثة لدينا. يعود تاريخها إلى ثلاثة أشهر». يظهر بها رجل ذو لحيّة لا يمتُّ بصلة إلى رجل ميشيغان ذي اليدين السميكتين والابتسامة الواسعة. يبدو أقرب إلى واعظ في أخويّة أو سجينٍ هارب. كان يعبر شارعاً. النحول بادٍ عليه، وقد ترك شعره يطول ولحيته. عيناه المتوجّستان كانتا تتفحّصان بقلق الرصيفَ الآخر. استلم دان كوفاك الكلام، بادياً عليه بعضُ الإحراج، فسّر بأنّ الوضع يحرجهم قليلاً. إذ إنّ سوليفان سيكو شرع بتجارة شتّى المهرّبات مع

عديد من الأشخاص المختلفين. قطع فنيّة مسروقة من المواقع الأثريّة. وأسلحة أيضاً... قال إنّهم بحاجة ليعرفوا ما الذي يدور في ذهنه حقّاً...» ثمّ أردف: «إنّه رجل من وحدات النخبة. كان في أبوت آباد سنة 2011. إنّه رجل صلب. ويعرف الكثير من الأشياء...» خيّم الصمتُ مجدّداً. حاول عاصم تخيُّلَ هذا الرجل أثناء المداهمة المشهورة التي أدّت إلى مصرع بن لادن. تعبر في ذهنه مُداهمة أبوت آباد: الحوّامات التي تُغيرُ في الليل، الرّصاصات الثلاث التي أُطلقت على زعيم القاعدة، ثمّ عملية الإخراج... لقد اضطرّ أوغست إلى طرح السؤال، أن يسأله صراحةً عمّا ينتظره الأمريكيّون من نظرائهم الفرنسيّين لكي يجيب دان كوفاك أخيراً: «سنكون في غاية الامتنانِ إذا أمكنكم الاقتراب منه و ... تقييم وضعه». رفع عاصم بصره مندهشاً، تقييم وضعه؟ لا يُستعان بخدماته عادة لمثل هذه الغاية. كان اللقاء يتّخذ مساراً فاجأه مما دفعه للسؤال ألم يكن حريّاً بهم التوجُّه إلى الإنكليز. أجاب كوفاك، وهو يحدّق في عينيه مباشرة، بأنّ بيروت منطقة يعرفها الفرنسيّون أكثر ولاسيّما أن سيكو سيبدي احتراساً أكبر حيال شخص إنكليزيّ. ومن ثمّ أضاف أنّ لديه ثقة في فطنته. الأمر ببساطة هو معرفة إذا كان سيكو «قابلاً للاستعادة».

«وإذا كان غير ذلك؟» سأل أوغست.

لاذ الأمريكي بالصمت للحظة.

«عندئذ، سنكون في غاية الامتنان لك لترتيب عملية تصفيته».

يتذكّر هذه اللحظة جيّداً. لا تزال العبارة تتردّد في داخله. لهذه الغاية يحثُّ الخطا. الناس المحيطة به في مبنى المطار هذا تجهل أنّه في حالة مطارَدة. حوله عائلات تنتظر أن يحين موعد الإركاب لينتظموا في رتل، ممسكين البطاقات بأيديهم، رجال أعمال ترقن بعَجلةٍ على ألواحها الذكيّة. انتحى جانباً بعض الشيء ليتمكّن من تركيز أفكاره. يتذكّر جيّداً اللحظة التي ذُكِرَ فيها قتلُ هذا الرجل. لاحقاً، كما ليبرّر، اتّخذ كوفاك هيئة الآسف وتابع.

«سوليفان زار الكثير من المواقع في شرق المتوسّط... إذا كانت تجارته تقتصر على القطع الفنيّة، فنحن مستعدّون لأن نتغاضى ونسامح، ولكن ينبغي أن نكون واثقين ممّا يدور في ذهنه. إذ ليس لدى أحد، في الوكالة، رغبةٌ كبيرة في أن يشرعَ سوليفان بكتابة مُذكّراته، إذا اتّضح لكما مغزى كلامي...».

هو الآن موشك على الصعود ليمضيَ إلى بيروت من أجل المهمّة: الاقتراب من الرجل الذي ترك كلّ شيء في ظلمة ليل، والتحدّث معه، تفحُّصه عن كثب لمعرفة إذا كان ينبغي الحكمُ عليه بالموت أم استعادته. والآن، على مقعد المطار، وسط رجال ونساء يجرّون حقائبهم، وحيدين تقريباً، في هذا الوقت المُعلّق، يتساءل إذا كانوا، ذات يوماً، سيفعلون معه الشيء ذاته. يحاول تخيُّلَ أوغست وهو يتّصل بجهاز استخبارات صديقة، تكسوه الهيئة الآسفة... هل يوماً ما، بمقهى في فيينا أو في بقعة أخرى، سيعطي أوغست صورة له وهو يقول لمخاطبه: «لدينا مشكلة مع عاصم غريّب...»؟

«هل رأَوا الأفيال؟» يسأل هنيبعل للمرّة الثالثة والرجال المُحيطون به يتردّدون ـ أجل، رأَوها، كان يستحيل عدم رؤيتها، ولكن لا يعرفون إذا كان هذا الجواب سيثير غضب قائدهم أو على العكس سيرسم ابتسامة على شفتيه. فيلبثون صامتين خافضي رؤوسهم. ثم أخيراً ينتصب فارس نوميديّ على حصانه ويقول: «أجل هنيبعل، رأوها».

يتأمّل هنيبعل الرون وراءه والأجساد المتناثرة على الأرض. أوائل قتلى الإمبراطوريّة الرومانيّة مُلْقون هنا، الخوذ مُخترقة، الأيدي لا تزال قابضةً على سيوفها أو جراحها، والوجوه مشوّهة من الألم أو مُتصلّبة في الذهول. الجوُّ حارٌّ. شهر آب يرخي وطأته على ضفّتي النهر ويُرقّصُ البعوضَ. أوّلُ معركة مع الرومانيين نشبت للتوّ. هي مناوشة أكثر منها معركة، ولكن من الآن فصاعداً لم يعد بوسع روما تجاهلُ

زحف البَرسيديين[1] على أرضها. سيشاع الخبر. الجنود الذين انسحبوا سيروون ما شاهدوا. سيتحدّثون عن هذا الجيش الذي يمتزج فيه إيبريّون وغوليّون ونوميديّون. وسيُسألون عن الأعداد الدقيقة لجيش العدوّ، عن نسبة سلاح الفرسان منه والمشاة. وسيتكلّمون، على الأخصّ، عن الأفيال... يتبسّم هنيبعل. الأفيال الأربعون التي اصطحبها ستتضخّم، ستصبح وحوشاً هائلة، بهائمَ متعطّشةً للدم. وستُنسج الحكاياتُ حولها. لن تظلّ أربعين وإنّما ثمانين، مئة... وسيولَدُ الخوف في جميع الأرجاء. بلى، رأَوا الأفيال. وكلُّ يوم يمضي من الآن فصاعداً يدمّر معنويات الرومانيّين أكثر. سوف يخافون، وعلى نحو مُضطرد. الوقت سيرهقهم، هذا الوقت الطويل من المسير. جبال الألب لا تزال بعيدة. ربّما ستكون هناك اشتباكات أخرى ولكنّ هنيبعل غيرُ مُستَعجل. عليه أن يترك الإشاعة تسبقه. المحلّيون الذين على طريقه في مختلف الأنحاء تركوه يمرّ دون أن يتجرّأ أحد على اعتراض هذا الجيش الذي لم يُرَ له مثيل قطّ. ولماذا سيعترضونه؟ ليؤكّدوا إخلاصهم لروما؟ كلّا. هم رأوا مع ساغونت إلى أين أوصلَها إخلاصُها لروما. فإذاً تركوا هنيبعل يجتاز قراهم، أراضيهم، وحتّى إنّهم أطعموا جيشه أحياناً وتضرّعوا إلى آلهتهم، أمام الرتل الطويل للأفيال الأربعين المُحمّلين أمتعةً وأسلحة ودروعاً، ألّا يُجبروا يوماً على قتال مخلوقاتٍ كهذه وقالوا في أنفسهم: إذا كانت هذه البهائم مرعبةً على قدر ما يظهر عليها، فلربّما سيتسنّى لهم أن يشهدوا سقوط روما.

«كولونيل؟» أحدٌ يُناديه بصوت تشوبه بعض الخشية. يسمع إلّا أنّه يعجز عن الإجابة. «كولونيل؟» كلّ شيء بعيد بشكل مفرط. ما عاد جسده يستجيب له. يحاول مدّ ذراعه ليتكئ إلى الطاولة لكن يبدو أنّ هذه الذراع تسخر منه فيسقط. ما الذي كان يظنّه؟ أنّه بمجرد ترك إلينوى ومصبغة أبيه، كما فعل منذ عشرة أيّام لا أكثر عقب سقوط حصن سمتر،

1ـ الاسم الذي أُطلق على أفراد الأسرة الحاكمة التي أسّسها هملقار برقة في قرطاجة.

ستبدأ حياة جديدة؟ أنّه مجرّد عودته إلى ارتداء زيّه العسكري ستبرّئه ممّا هو عليه؟ بأن مناداته للتعبئة، كما يفعل منذ أسابيع، ستمحو عاره وتطرد شياطين نفسه؟

يُبقي جفنيه مطبقين. العالم حوله يغرق في الظلمة. لا يبقى سوى هذا الصوت «كولونيل...؟» هو سكران حتّى الثمالة. أليس هذا واضحاً؟ ينبغي على الشابّ الذي فتح للتوّ باب التخشيبة التّخلي عن حذره، وأن يجلب إناء ماء ويسكبَه على وجهه أو أن يدعَه طريحاً في مكانه، يُطفئ أساه بالخمر، إلّا أنّ رجاءه أن يُتركَ وشأنه في سلام! بلى، شربَ زجاجتين كاملتين. الأمر استحقَّ ذلك. فقد علم للتوّ أنّ جيش الاتحاد أُهينَ في بول ران. مع أنّ أعدادهم كانت غفيرةً. الجنرال ماكدويل ضابط غير كُفء. ولا بدّ أنّ بوريغارد تبسّم ثانية مثلما تبسّم في حصن سمتر. الحمقى... ذهبوا إلى الحرب كمَنْ يذهب إلى عرض عسكريّ... أمّا الجنوبيّون فلم يقترفوا الخطأ ذاته. يعلمون أن ليس بوسعهم ترفٌ كهذا. فرجينيّو توماس جاكسون أتوا ليحاربوا، وقد صمدوا. على هذا النحو كان ينبغي على اليانكيّين أن يذهبوا إلى الحرب، يحدوهم إيمان عميق بأنّ الهزيمةَ غيرُ واردة. لا يمكن أن يكون بلدُ الآباء المؤسّسين منقسماً. عارٌ عليهم إذا سمحوا بحدوث الانفصال. عارٌ عليهم إذا تركوا الاسترقاق يزدهر. ماكدويل ضابط غير كفء. يريد كسب معارك جميلة لكنّ الحرب ليست كذلك. يجب أن تنتصرَ وكفى. ممّا يعني سحقَ الحرب ذاتها ولا يتحقّقُ هذا بغير العنف. الفرجينيّون لقّنوهم درساً للتوّ. لقد ثابروا، بغلٍّ. صمدوا، إلى أن أطلق بوريغارد هجوماً مُعاكساً أدّى إلى اندحار صفوف الاتّحاديّين. يُقال بأنّ سيّدات واشنطن أَتيْنَ بالعربات، واثقاتٍ من الانتصار، ليشهدْنَ العرض، مع دجاج بارد ومشروباتٍ منعشة. لا بدّ أنّهن بِلْنَ في سراويلهنَّ، البلهاوَات، أخذْنَ يلعنَّ فضولَهنّ، حين هجم جاكسون ستونوول مع قوّاته، مدمّراً كلّ ما يأتي في طريقه، مجبراً اليانكي على التراجع في غمرة الذهول الذي نال

الجميع. بإمكانه النظر إلى إرادة الجنوبيّين بتقدير. بإمكانه الشعور بشيء من التشفّي للهزيمة النكراء التي مُني بها ماكدويل، غير أنّ صبْيةً قتلوا والذي سُحِقَ في ميدان المعركة، هو إلغاءُ الرقّ ومعنى التاريخ. فليُلعنِ الرجالُ الذين لا يأخذون الحرب على محمل الجدّ. بلى، شربَ. لأنّه فكّر بأولئك الشبّان الذين ماتوا في غضون دقائق قليلة، من أجل الهباء، غيرَ مُصدّقين بأنّ الرصاصات تصفر بالفعل وأنّ الجماجمَ تنفجر تحت تأثيرها. «كولونيل؟» يسمع ثانيةً صوت الشابِ ذاته ويتمنّى أن يصرخَ بأن يُتركَ في سلام، إلى الخارج، اغرب، أن يُتركَ إلى خِزْيه، إلى السكّير الذي هو عليه... كان يعتقد أنّه بمجرّد أن يُعلن لزوجته أنّه ذاهب إلى التطوّع سيعود كلُّ شيء إلى سابق عهده، إلّا أنه يريد أن يشربَ، المزيدَ، حتّى لو عجز عن الوقوف، يريد أن يشربَ لأنّ جيش الشماليّين انهزم، انسحب بمجموعات متبعثرة، مُنهكاً، ممرّغاً بالوحل، تاركاً وراءه مدافعَ شيرمان، أفخاذَ الدجاج الباردة، أغطيةَ النزهات وصرخاتِ انتصار الكونفدراليّين.

في سهل ماي شيو، استيقظ الإيطاليّون. وكردّ على الطلقات الأولى، تنهمر أوائل القذائف ويسقط أوائل محاربي هيلا سيلاسي صرعى. ليس لدى الإيطاليّين سببٌ للخشية. رفعوا جداراً من الطين الجافّ لحماية خطّهم الدفاعي واستدرجوا الإثيوبيّين ليقتربوا. ينهضُ الصبح على مهل. عمّا قريب سيغرق السهل بالدّم. تُواصِل القذائفُ سقوطها بانتظام. على هذا النحو سوف يقتلونهم، يمزّقونهم، وينثرونهم أشلاء. الانتصار الكاسح للمحاربين الإثيوبيّين العدوَيّين[1] لن يتكرّر ثانيةً. إيطاليا تريد انتقامها. هذا ما أتت تبحث عنه وسوف تحصل عليه. هو، هيلا سيلاسي، أيَّ موقع سيحتلُّ في التاريخ؟ موقعَ الإمبراطور المهزوم؟ ملك الملوك الذي أودت به قذيفة؟ بدأت المعارك واليوم بأكمله، من هذه اللحظة،

1ـ نسبة إلى مدينة عدوة في شمال إثيوبيا، والتي دارت فيها معركة عدوة في 1896، وانتهت بهزيمة الإيطاليين على يد الإثيوبيّين.

سيكرّسونه لانتحارهم فحسب؛ التقدّم، الصراخ لبثّ الشجاعة في النفس، ومن ثمّ الأنين حين تكون الطلقة قد اخترقت الجسدَ. أوّاه، كم الهزيمة بطيئةٌ... يلزم أن تُعاشَ بالكامل، حتّى النهاية، مع تلك اللحظات التي نكتشف فيها أنّنا لا نزال نؤمن بالنجاة، بنداءات الاستغاثة التي نعجز عن تلبيتها، وأولئك الأصدقاء الذين يتساقطون قتلى، تلك الفتحات الأخّاذة ـ إذ تَبين الشمسُ حيناً، ويتجلّى سحر المكان... كم هي بطيئةٌ... رائحة البارود والدّم تعبق في الأرجاء. وأخيراً، يغيب نور الشمس تدريجيّاً، بعد ثلاثَ عشرةَ ساعةً من القتال الذي ينقضّ أثناءها الإثيوبيّون، وبجذوع عارية أحياناً، على مدافع المتريّوز الثقيلة. خمسةٌ وسبعون طنّاً من المتفجّرات تمزّقُهم دون رحمة. لا تضع إيطاليا في حسبانها إلّا هدفَها. تعليمات الدوتشي كانت في منتهى الوضوح: يريد انتصاراً مبهراً وسريعاً. بعد ثلاثَ عشرةَ ساعةً من القتال، يحصل عليه. يعطي النجاشيّ أمره بالانسحاب. لكن عندئذ يحدث الأسوأ. فالهزيمة لم ترِ ظمأَها بعد. يخرج الإيطاليون من صفوفهم ويطاردون عدوّهم. يرى هيلا سيلاسي موجة الهجوم العنيفة تلاحق رجاله. تحلّق الطائرات فوق ميدان المعركة وتُمطِرُ الفارّين بوابل من الرصاص. يُحرِق الغاز مَنْ يُفكّر في الهرب. كلُّ شيء ينفجر ويتلوّى. بات الأمر يتجاوز الانسحاب، يتجاوز الفرار العشوائي، بات مجزرةً. يُقضى عليهم. ولا تتوقّف المقتلةُ. «ليس بوسعنا فعلُ شيء»، فكّر. يُرسِلُ رجاله للمذبحة. ومن ثمّ أخيراً، مع الظلمة التي حلّت فجأة، تبدأ السماء نفسُها بالهدير. ينفجر الرعد مدويّاً، مرعباً. تخطّ البروق السماء مُظهرةً، في كلّ إيماضةٍ، حشوداً من الذين يئنّون. المحتضرون مُمدّدون هنا على الأرض، فوق ميدان المعركة، في الوحل، مُتصلّبينَ وباردين أو يطلقون حشرجاتهم الأخيرة، الأفواه فاغرة، منذهلين بذاك الهواء الذي يُميتهم دونَ أن يدركوا كيف يمكن أن يحصلَ، ويهطل المطر غزيراً، كما لو في نيّته أن ينظّفَ كلّ شيء. ربّما السماء نفسُها أصابها الاشمئزاز ممّا تراه. يرجع رجال إلى الخلف لإحضار أمواتهم ولكن لا يجدونهم فيبحثون عنهم

متحسّسين بأصابعهم وسط بحر من الجثث. انتهى كلّ شيء. والذين في نزعهم الأخير يوسّعون حدقاتهم ليصغوا إلى هدير الرعد للمرّة الأخيرة ويتحسّسون لبرهة إضافيّة برودةَ المطر على الشفاه التي ستكون باردة عمّا قريب.

يسمعُ اصطكاكَ الأسنان من حوله. الرجالُ يشعرون بالبرد. هل بوسعه التخلّي؟ لا. ينبغي المضيُّ قُدماً حتّى النهاية. يكزُّ على أسنانه. كاملُ جسده مُتصلّبٌ فوق صهوة حصانه. يرتجف رغم جلود الدوابِّ التي يضعها على ظهره. يرى بعضاً من خيرة فرسانه النوميديّين وقد أصابتهم الحمّى، اصفرارُ العيون وابيضاضُ الشفاه، لا يزالون مُتشبّثين إلّا أنّهم يترنّحون وسيسقطون في النّهاية دون أن يستطيع أحد فِعلَ شيء لأجلهم. سيموتون مثل كثيرين غيرهم، هنا، عند حواف هذه الدروب الحجريّة تحت أوائل الثلوج، منذهلين من نهايتهم على هذا النحو، على أرض مُصقِعة، قصيّة إلى هذا الحدّ عنّ ديارهم، حتّى، دون أن يشنّوا معركة. جيشه يذوب تحت الثلج. عشرةُ أيّام مضَتْ وهم يتقدّمون، ناخرينَ حوافر ركائبهم، تاركين فِيلةً مريضة وراءهم، شاقّين لأنفسهم ممرّاً وسط سديم القمم. يرمقهم السكّان المحلّيون ويبصقون أرضاً أو يقذفونهم بالحجارة قبل أن يستديروا متوارين في دروب مخفيّة. هل بوسعه التخلّي، والعودةُ إلى الوراء؟ هل بمقدوره الرجوع إلى قرطاجة وتسليم الحكم إلى حانون، عدوّ العائلة القديم الذي يترقّب أيَّ زلّة، أيّ بادِرة وهنٍ لاستلام دفّة الحكم وإقامة حلفٍ مع الرومان؟ يتساقط الرجال حوله في كلّ الأنحاء. لسَعاتُ البرد لا تمنحهم أيّة فرصة لالتقاط أنفاسهم. عند كلِ طلعة صبح يحصون أعدادَ مَنْ سقط ليلاً، كلَّ صباح، ثمّة بهائمُ، أحصنةٌ، بغالُ، وفيلةٌ ترفض النهوض ممّا يتطلّب فكَّ أحمالها وإنقاذَ ما يُمكن إنقاذه. رأى رجالاً يئنّون على أفراسهم، ثم يقضون نحبهم وهم باقون على السُّرُوج، هكذا، كأنّهم متجمّدون، إلى أن تهوي

مطاياهم في الوادي السحيق. رأى أفيالاً تجنُّ من الألم فتنتفض هاجمةً على الرجال الذين يُخضِعونها لعذاب كهذا. تَسحقُ تحتَ قوائمها رجالاً كان يمكن لهم أن ينجوا، آخذةً معها كلّ شيء، غضبَها، فيّالتَها، وعناقيدَ من الرجال الواجمة. نصفُ فِيلَته ماتتْ. لم يتبقَّ سوى عشرينَ منها. ولسوف يخسرون، بحسب ماغون، خمسةَ عشرَ ألف رجلٍ قبل أن يصلوا الجهة الأخرى من الألب. لا بدّ أنّ روما تتبسّم لمرأى الجبال تُهلك أعداءها على هذا النحو، وتُهزلهم، وتجعلهم يرتجفون من البرد. لا بدّ أنّ روما تبتسم لأنّ البرد يُنهكهم. لم توفّر حتّى هنيبعل، فمنذ أيام وهو لا يرى بإحدى عينيه، أصابها الالتهاب بالكامل ويعلم أنّ الحمّى إذا استمرّت، فسوف تُودي به. مراراً، تراءى له بأنّ حصانه يسير على مقربة جدّاً من الحافة ويكاد أن يسقطَ، مردُّ ذلك إلى شُحّ بصره. لكنّ رغم كلّ الأهوال يمضي قُدماً. وإذا كان على الجبال أن تكون قبره، فلتأخذْه هكذا، وهو على صهوة حصانه، وعيناه مصوّبتان نحو روما. ربّما كان مجنوناً حين أراد العبور من هنا. مجنوناً حين حكم على أكثرَ من خمسةَ عشَر ألفاً من رجاله بالموت، حين فكّر بأنّه سيعثر على ممرّ في هذه الأراضي التي لا يعرفونها وبأنّ الفيلةَ قد تنجو من الريح القارسة للمَثْلجات. مجنون وهذا حسنٌ، لأنّ الجنون هو من سيصنع الأسطورة. وللجحيم إذا توجّبَ عليه تركَ إحدى عينيه للجبال، للجحيم إذا ذاب نِصفُ جيشه، ولكن إذا عبروا، فعندئذ، سيزرعون الرعب في الأفئدة.

الاحتمالاتُ الألفُ، المُصادفاتُ، تقاطعاتُ الطرق، الأحداثُ غير المحتملة التي لا تكفُّ الحياة عن أن تجود بها. وعيشُ الحياة، ربّما، لا يتعدّى ذلك: أن تشقّ طريقاً خلالَ تقلّباتِ الظروف. تفكّرُ في ذاك الرجل، عاصم غريّب. تقاطعتْ طرقهما لليلة واحدة وعلى الأغلب لن يلتقيا مجدّداً. يعود كلٌّ منهما إلى حياته، إلى قدره. عادت ثانيةً إلى ما هي عليه: جدول مواعيدها، مكتبها، رحلة بغداد لافتتاح المتحف، وإلى

مرضِها أيضاً. عادت ثانيةً إلى قصّتها، التي تبدو لها فجأة ثقيلةً، مملّة، كما لو أنّ ما قدّمه لها عاصم أثناء تلك الليلة، يتجاوز لذّة الجسد، يتجاوز الحبورَ وسحر اللحظة، هو أن تنسَى نفسَها. لمدّة ليلةٍ لم تعدْ أحداً. مُجرّدَ اسم، ابتسامةٍ، جسد. كانت في عطلة من نفسها. والآن، ينبغي أن تعود إلى ذاتها. تنهمك بالعمل، تُجمّع ملفّاتها، ثمّ، وفي الوقت الذي ستغادر فيه قاعات اليونسكو، تدخل زميلتها كريستين، ممتقعةَ الوجه.

«مريم شاهدْتِ الأخبار؟».

لا تنبس بحرف، تزمّ شفتيها، ينتابها إحساس مُسبَق بأنّ ما سيُقال لها سيؤذيها.

«ينبغي أن تشاهدي ما يحصل... أخذوا الموصل...».

مثلَ صفعة كان وقع النبأ عليها. تلبث بدايةً غيرَ مصدّقة. ثم تسحبها زميلتها إلى أمام التلفزيون وتشاهدان، مذهولتان، الصورَ على إحدى القنوات الإخباريّة. أرتالاً من سيّارات البيك آب تتقدّم على طرق شمال العراق، رافعةً في نهايتها راياتٍ سوداءَ طويلة. رجالٌ يختالون أمام الكاميرات معلنين الولاء للموت. شيءٌ ما يبدأ. تشعر بأنّ هؤلاء الرجال يدوسونها في طريقهم. بأنّهم لن يتركوها سالمةً، بأنّهم نهضوا من أعمق أعماق الظلمة، متأبّطين أسلحتهم، ليطيحوا بكلّ ما بنته بجَلَدٍ منذ سنين. تشعر أمامهم أنّ كلّ ما تؤمن به بات في خطر. وتفكّر على الفور بالقطع الأثريّة لمتحف الموصل.

يتّخذ مكانه، قرب النافذة، في مقدّمة الطائرة. يجلس إلى جانبه زوجان لبنانيّان يتكلّمان خليطاً من العربيّة والإنكليزيّة. ينظر عبر زجاج النافذة. أخذتْ أكمام الريح تهتزُّ على طول المدْرج. هبّتِ الريح، كما لو انبثقت من العدم. «هل أنت مستعدّ للرحيل؟» سأل عمّه مُجدّداً في زاوية من رأسه. يعاود التفكير في ميقينية، في المدينة التي تنحدر بأسرها في سهل آرغوس، بجميع أولئك الرجال الذين لا يفهمون أنّهم مُقدمون

على حرب قد خسروها مُسبقاً، وسوف ينزفون من جرّاءها أبداً. هو، ما الذي سيخسره في بيروت؟ ما الذي سيتنازل عنّه للريح لقاء قبوله هذه المهمّة؟ ثمّة رجل ينتظره هناك، والذي قد يستوجبُ عليه قتلُه. لكن ليس هذا أكثرَ ما يخشاه. ما يخيفه حقّاً، أنه سوف يتوجّب عليه أن يكلّمه، أن يصغيَ إليه، ويبادلَه الأحاديث ليبني تصوّراً عنه. حتّى الآن، كان ثمّة أهدافٌ في المهمّات التي أُوكلت إليه، تتطلّب إيجاد الفريسة وتصفيتها. أمّا اليوم، فعليه هو أن يتّخذ القرار. ما الذي سيختبره عند هذا الرجل ليقرّرَ إن كان ينبغي موتُه من عدمه؟ هل تجارة القطع الفنيّة سببٌ كافٍ؟ بينما يفكّر في ذلك كلّه، تشتدُّ الريح هبوباً، وتزداد حركة الغيم في السماء سرعةً. تُسمَع جلبة الريح في هيكل المركبة، وتبدأ الطائرة بالتحرّك قاصدةً مدرجَ الانطلاق. «هل أنت مستعدّ للرحيل؟» إنّه مُستعدّ. يقبل بأن يُبتَرَ منه بعض روحه. إذ إنّ كلّ رحيل خسارةٌ. هذا ما عناه عمّه وربّما كان مُحقّاً. يُفكّر في لقاء زيوريخ. لقد أضاف دان كوفاك، قبل أن يغادر، بأنّ سيكو قد أحاط نفسه بزمرة متنافرة، ثلّةٍ غريبةٍ، ليست سياسيّةً بمعنى الكلمة، ولا دينيّةً... تتألّف من كوبيّ وسوريّ وكولومبيّة وفلسطينيّين، ليبيين ومصريّين أيضاً. نحو عشرة رجال بالمجمل، يتزعّمهم سيكو مثلَ قائد حربي. قال أيضاً بأنّ الأمريكي يطلق على نفسه اسم جوب. ما الذي يُخيفهم إلى هذا الحدّ؟ أيكون بسبب تلك المجموعة المثيرة للريبة؟ أو شيء ما رآه سوليفان سيكو... لقد عرف سجون أبو غريب سنة 2004. وكان ضمن الدائرة الضيّقة لماكروغان. قد يكون لدى هذا الأخير طموحاتٌ سياسيّة ويشعر بالقلق ممّا قد يصرّحه عنه رجاله... أو أنّ دان كوفاك لم يكن قد أطلعهم على كافّة التفاصيل الخاصّة بأصدقاء سيكو في بيروت. قد تخفي هذه المجموعة بين عناصرها عملاءَ لأجهزة استخبارات أخرى...! يمكن التكهُّن بألف سبب. سوليفان سيكو. يفكّر بهذا الرجل الذي يمضي إليه ولا يعرفه بعدُ. هذا الرجل ذو اللحية الكثّة والجدائلِ الرفيعة في شعره الطويل. هل هو على علم بأنّ أمريكا قلقة بسببه، بسبب ما يقوله، وما يبيعه؟ هل يعلمُ بأنّ شخصاً قد أُرسِلَ إليه

ليحاول الإحاطة بحالته؟ أجل. لا بدّ أنّه يعلم بذلك. حتّى إنّه أختار بيروت، على الأرجح، لإخافة من انشقّ عنهم. سوليفان سيكو. كلّما استغرق في التفكير فيه، بدا له أنّه يعرفه. إنهما مُتشابهان. جرى تدريبهما لأجل المعركة ذاتها. أطاعا الأوامر ذاتها، خاضا المجازفات ذاتها، وانتابهما الخوف جرّاء المحن ذاتها. هما الاثنان شَاهدا ما الذي يستطيع الإنسان فِعلهُ بالإنسان: الأفظع. سوليفان سيكو. بلى، يعرفه. تهبُّ الريح آخذةً معها الطائرة التي تُحلّق وسط هدير مُحرّكاتها. لحظات وتبتعد باريس. إنّه بين السماء والأرض، وما من رفيق له سوى هذا الرّجل الذي ليس هو إلى الآن سوى اسم لكنّه متلهّفٌ للقائه.

-III-

أربيل

بكتْ حين رأتْ صورَ متحف الموصل التي أعـادت القنوات الإخباريّة بثّها مراراً: رجلٌ بدشداشة يحمل بيده جلّاخةَ زوايا وينقضُّ على العملاق الكبير المُجنّح. آخرون يضربون تمثالاً بالمطارق. وضعتْ يدها على فمها كأنّها تريد أن تصرخ أو تتقيّأَ. مع أنّها تعلم عنف أولئك الرجال، الذين يقتلون ويغتصبون ويسلبون، تعرف أنّ بلدها يتفتّتُ تحت زحف ذاك الجيش ذي الراية السوداء الذي يلوّح باسم الله بيْدَ أنّه لا يتعدّى أن يكون وجهاً آخر للظلاميّة الأزليّة، ينبذُ العلم وحريّة الشعوب، النساء والأغاني. هي تعلم بذلك كلّه. يُحكى عن أرتال هائلة تنزح من الشمال، باحثةً عن اللجوء في كردستان العراقي. يُقال إنّ الأيزيديّين محاصرون في جبال سنجار، إنّهم يُجوّعون النساء والمسنّين والأطفال دون رحمة. أليس هذا أسوأ، هذا الدمّ، هؤلاء الأمهاتُ اللواتي يبحثْنَ بلا جدوى عن ملاذ، هذه الوجوه المنهكة من التعب التي في حالة هروب دائم، دون توقّف؟ أليس هذا أفظعَ من ضربات جلّاخ زوايا على قطعة آثار حجريّة؟ حين سقطت الموصل، أخذت تتعقّب الأخبار ساعةً بساعة، بوجوم وأسى، لكنّها لم تبكِ. أمّا في حالة العملاق الحجريّ ذي اللحية المُضفّرة، فإنّ كلَّ ندبةٍ يحدثها ذاك الرجل على وجهه تُصيبها بالغثيان. تظهر فوضى المتحف على الصور التي يبثّونها، القطع مقلوبة، والواجهات مُكسّرة. ثمّة قطع تُدسُّ في الجيوب وأخرى تُرمى على الأرض مصحوبةً بصيحة «الله وأكبر»، شظايا الخلود تتطاير، لحظاتٌ من الظلمة كافيةٌ لتحطيم أوانٍ وتماثيل نجتْ عبر قرون من الزمن. ذاك الذي يُطيح بالجرار ويضرب التماثيل، يعتقد أنّه بفعلته هذه يُخضع

الزمن. أوه، ما أطول الدرب الذي اجتازته هذه القطع لتصلَنا، وما أكثر الرجال والنساء الذين كرّسوا حياتهم لذلك: بول إميل بوتا، قنصل الموصل الذي عثر على خورسباد[1] وجلب الثيران الكبيرة التي تعتلي العرش في قاعات بلاد الرافدين في اللوفر. غيرترود بيل التي شاركت في تأسيس العراق، أثناء قمّة القاهرة حيث كان تشرشل يُصغي إلى آرائها، ويؤكد لورنس العرب تفسيراتها بإيماءاتٍ من رأسه، إذ أرادتْ أن تترك لهذا البلد الذي كانت تحبّه مُتحفاً وأسّست ما سيصبح لاحقاً متحف بغدادَ الوطنيّ. هرمز رسّام، صبيٌّ شوارع الموصل الصغير الذي كان عمره ستّة عشر عاماً عندما وصل بوتا إلى مدينته والذي سينتهي به المطاف ببرايتون، لأنّه عثر على الأصل الأقدم لملحمة جلجامش... كلّ أولئك الأشخاص الذين حفروا، فكّروا، بحثوا، فشلوا، وأعادوا الكرّة من جديد. كلّ تلك الأيدي المجهولة التي حفرت بالمعاول، ورفعت التراب والرمل ثمّ داعبت القطع التي استخرجت للتوّ لتقدّم لاحقاً لرئيس الحفريّات. جميع تلك القطع التي نُفض عنها الغبار، ووزنت، وفُحصت، القطع التي حافظت عليها القرون تنتهي هنا، مُحطّمةً على الجدران، «الله وأكبر»، كيف بوسعهم نطق هذه الكلمات والأمر منحصر بالقبح ونشوة التدمير؟

في الأيام الأولى بعد عودته من أفغانستان، أو في الساعات الأولى ـ كان عاجزاً عن إدراك السرعة التي انقضى فيها الوقت ـ، بدت قاعة المستشفى العسكريّ لسوليفان سيكو مفرطة الاتّساع فلم يتكلّف حتّى عنَاء إجالة النظر بكاملها. شعر أنّ ذلك يفوق طاقته. كان يرى أجساداً، ويحسُّ بحضورٍ حوله، حركة المعالجين الذين يمضون جيئةً وذهاباً فوق رأس سريره، ليبدّلوا ضماداً أو يعيدوا حقن مصل، والحضور الصامت

1ـ خورسباد الاسم الحالي لمدينة دور شاروكين (أي حصن سرجون) الآشوريّة، تقع شمال مدينة الموصل ويعود تاريخها إلى 700 عام قبل الميلاد.

والكثيف للآخرين من أمثاله، طرْحَى الأسرّة المجاورين له، والذي تصدر عنهم بين الفينة والأخرى أصوات ـ أنّات، نداءات، همسات لأنفسهم ـ، علامة على أنّ حياة لا تزال في داخلهم، حتّى لو كانت واهنة، مُتأوّهةً، حياة تتداعى. ومن ثمّ تطول فترات استعادة الوعي ويفتح عينيه الآن بقوّة أكبر. يعدّلون من جلسته على السرير فتظهر له القاعة كاملة، إنّها أصغر ممّا ظنّه. تكتظّ بأجساد مُحطّمة، برجال نحلوا ذوي ألوانَ شاحبةٍ يتملّملون في أسرّتهم أو تسرقهم غفوات قصيرة. إنّه هنا، عائد من كالافغان وفي ردهة الألم الهادئة على نحو غريب (يُمكن أن يُتوقَّع من هؤلاء الشّبان الذين في هذا المكان ـوجميعهم كانوا جنوداً مُفعمين بالبسالة من أسابيعَ قليلةٍ فقط ـأن يصيحوا، أن يثوروا، مطالبين بقوّتهم، بأجسادهم كاملةً)، يجول المعالجون مثل راهبات في دير، دون أن يهزّوا الهواء تقريباً، مجرّدُ حفيفٍ خفيف لخطواتهم يدلّ عليهم. يرمقُ الأجسادَ المُحطّمة حوله، وجوهَ الألم المختلفة، ويقرّر بأنّ هذا الردهة، هذه الأسرّة، ليست مكاناً للراحة أو لإعادة ترميم، وإنّما مكان عليه الفرار منه بأسرعَ ما يستطيع، وأنّ أولئك المرضى المحيطين به ليسوا إخوةً بل ظلالٌ عليه إنقاذُ نفسه منها.

يلمس هنيبعل عينه بطرف إصبعه. لم يعد ثمّة قيحٌ. هل تماثلتْ للشفاء؟ هل تغلَّب جسده على الغرغرينا؟ توقّف القرحُ عن النزّ. يرفع رأسه نحو الأفق، مُترنّحاً جرّاء خطوات حصانه المتباطئة، لا يُبصر شيئاً، وسوف لن يبصرَ بهذه العين أبداً. لا ضيرَ. مستنقعاتُ أرنو سلبتْه عيناً. فليكن. هذه الإمبراطوريّة الرومانيّة التي يطأ أرضها، هذه الإمبراطورية التي لم يكفَّ عن هزيمتها منذ وصوله، وها هي بدورها تُسمّم جسده. الأمر منصف. إنّها بوادر حرب شاملة وربّما يخسر أكثرَ وقد لا تكون هذه العينُ سوى البداية؟ سيتضرّر جسده على توالي الحملات المقبلة، وعليه تقبّلُ حدوث الضرر. سيصاب الكثير من رجاله. وسيتبعه الكثير

منهم رغم عرج في الرجل أو فقدِ يدٍ. كلّما تقدّموا ستزداد أعداد المعاقين. ومن الإنصاف أن يتعرّض هو أيضاً لِمَا يتعرّض له رجاله، سواء بسواء. تدور رحى الحرب. ويجد نفسه في مواجهة بابليوس كورنيليوس سيبيو. على أحدهما أن يخضَع للآخر وسوف يكونُ الرومانيُّ، وقد بدأ ذلك بالفعل أثناء معركة تيسيين، ثم استكمل في معركة تريبيا[1]. ونجا بأعجوبة في ميدان المعركة، عند أوّل مواجهة لهما. يُذعَر الرومانيّون، وينتابهم الهلع، ما عادوا يعرفون ما يجب فعله. كان من المعهود احترامُ هدنة الشتاء في فنّ الحرب، غير أن هنيبعل أمر بمواصلة التقدّم رغم البرد. يواصلون زحفهم نحو روما في تشرين الثاني، في كانون الأوّل، وسط الثلج أحياناً. تموت أفيالهم واحداً إثر الآخر ولكن لا شيء يمنعهم من مواصلة التقدّم. وفي معركة تريبيا، كانوا قد دهنوا أجسادهم بالزيت لتوقّي البرد، والرومانيّون هم الذين تساقطوا جرّاء ما أصابهم من الخدر الكبير، وتباطئهم الشديد، واصطكاك أسنانهم لحظة القتال وارتجافهم من البرد لحظة التصويب. سوف يخسر عيناً، أجل، لكنّه يتقدّم. ومجلس الشيوخ بدأ يرتجف. وبينما يبدو على كورنيليوس سيبيو أنّه فقد زمام قيادة المعركة كانت أذرع رماة المقلاع النوبيين، تلك، ثابتة لا ترتجف. فإذاً لا ضير أن يمنح عيناً إلى الأرض الرومانيّة. ما الذي كانوا يظنّونه، جميعاً؟ أنّه بالإمكان تحقيق انتصارات دون أن نتلطّخ؟ بأنّه يمكننا الخروج من كل هذا القدر من المعارك سالمين مُحتفظين بقوانا كما في اليوم الأوّل؟ منذ أن اجتاز جبل طارق، وهب حياته للحرب. وهذا يعني جسده، ووقته، وأفكاره. سوف يكون ثمّة عضّ، وصراخ، ندوب ورعب، وسيُعدُّ محظوظاً إذا اقتصر الأمر على ذلك. لم يفهم الرومانيّون بعد، إنّهم يستوعبون ببطء أنّ ما يحدث الآن لن يكون نظيفاً أو محترماً. لن يكون ثمّة مكان للرفعة. كلّ شيء قذر ومرعب، كما كانت جثامين الرومانيين الغرقى في المياه التي تفيض جرّاء ثلج تريبيا، أولئك الرجال

1ـ أولى المعارك الكبرى في الحرب البونيّة الثانية.

ذوو الشفاه المزرقّة، والأجساد المتصلّبة من البرد، تطفو بحزن. فقد عيناً، بلى. سيمضي أعورَ من الآن فصاعداً، ولكن لا يهمُّ طالما هو يمضي قُدماً.

«إلى الآن يحبّونني»، يُفكّر تحت خيمته فيما يضع أحد معاونيه رسالةً للتوّ تُبلغه بأنّ ثمّة ما أوقف تقدّم الجنرال بويل أي إنّهم سيكونون بمفردهم أمام جيش جانستون. «يحبونني لأنّني انتصرت بمعركتي فورت هنري وفورت دونالدسون وأنّني الضابط الوحيد بين ضباط الرتب العليا من الشمال الذي تُعزى إليه بضعة انتصارات...» يُفكّر بماكليلان العاجز عن اتّخاذ قرار، ماكليلان الذي دائماً ينتظر أشهراً كأنّه يخشى تقديم بيادقه على خريطة الأركان. إذ إنّ الرّجال بيادق. لا يمكن النظر إليهم سوى على هذا النحو. وإلّا لا ينبغي لك أن تكون جنرالاً. لا يوجد مزارعون، أو آباء عائلات طيّبون، أو صِبيةٌ كبار بوجوه ودودة وأسنان متباعدة، لا يوجد أزواج، لا يوجد سوى وحداتٍ عسكريّة. لولا ذلك كيف يسعك أن تقرّر إرسال هذه الكتيبة إلى الجبهة وليس تلك. كيف يسعك أن تأمر فصيلةً بمهمّة تشتيت انتباه وأنت تعلم أنّ ثمّة احتمالاً كبيراً بألّا يعود أحد منها؟ ليس سوى شيرمان يفهم ذلك. لأنّه مجنون ويعلم بأنّه لم يعد لحياة الرجال أهميّة، ويجب أن تقبل التفكير على هذا النحو وبأنّ يجرّدك هذا التقبُّل من إنسانيّتك. وهو مجنون لأنّه يدرك كلّ ذلك. ومن ناحية أخرى شيرمان شجاع. ليست شجاعةً من النوع الشائع الذي لا يتعدّى عصيان الأوامر. كم من الرجال قاموا بأعمال بطوليّة لأنّهم ببساطة تلقُّوا الأوامر بفعل ذلك ولم تكن لديهم الشجاعةُ على الرفض؟ أمّا بما يخصُّ شيرمان فالأمر مختلف. شجاعته تأتي من كونِهِ عصيٌّ على الهزيمة. إنّها تُلهبه. تدفعه الهزيمة للنهش، لنهْزِ جانبي ركوبته والانقضاض بمفرده على صفوف الأعداء. لا يرضخ لمجرى الأحداث. قلّةٌ من لهم هذه الموهبةُ. لهذا السبب هو الوحيد الذي قاتل

في بول ران، الوحيدُ حقاً الذي رفض الجشع. أجل، شيرمان يمكنه أن يفهمه، أمّا الآخرون جميعاً فسيُولّون له ظهورهم حين يبدأ الرجال بالتساقط. «إلى الآن، يحبّونني، يفكّر، ولكن ذلك سيتغيّر». يستشيط برطمةً وغضباً. يظنُّ معاونُه بأنّ سبب سخطه الخبرُ الذي جلبه له للتوّ غير أنّه مُخطئ، ليس تأخّر بويل ما يقلقه، إنّه ساخط بسبب سقوطه عن الحصان في الأمس ممّا يجبره اليوم على الاستعانة بعكّازين لينهض عن سرير المُخيم. ساخط من هذه الإعاقة التي سوف تمنعه من الإيغال في خضمّ المعركة حيث إنّ مجرى القدر سيُحسم في ذاك الميدان. يدرك بأنّ الأحداث ستصبح بشعة ويشعر على نحو غامض أنّ ذلك قريب جداً. الشيء الوحيد الذي يفرّقهم عن الكونفدراليين هو القضيّة. وهذا ليس بالأمر الهيّن. ينبغي التشبّث بها. ما عدا ذلك سيكون قذراً. سيقتل الرجال بعضهم بعضاً على نطاق واسع وسوف يتطلّب الأمر الثبات. الجنود بغضّ النظر عن معسكرهم سوف يغرقون وسط النّار والاشتباك وسيكتشفون بذهول الوجهَ القبيح للجريمة.

ينظر سوليفان سيكو، حوله، إلى تلك الأجساد المحيطة به منذ أشهر، ما يراه أمامه هو الحرب والكارثة، عبر الإصابات، العَرج، حالات البتر، النظرات الكابية ونشيج العجز. وكما الآخرون جميعاً يؤدي، بتركيز، تمارينَ إعادة تأهيله. يجب إعادة تقوية عضلات الجسد الذي ضمر لطول بقائه طريح السرير، إرخاء التشنّجات التي تمنح أحياناً هيئة عجوز. ينبغي الحصول على الامتلاء، وإجبار العضلات على استعادة مرونتها. يحاول التركيز، لنسيان ما تبقّى، كلّ ما تبقّى، بما في ذلك الألم. ميلمتراً إثر ميلمترٍ، يوماً بعد يومٍ، يستعيد السيطرة على حياته. يريد العودة كما كان ويفلح في ذلك، إنّما ببطء. إنّه يشعر بالتحسّن. المعالجون الفيزيائيّون يؤكّدون له بأنّه يتماثل للشفاء. يستعيدُ حيويّته. وثمّ، ذات صباح، يأتي الطبيب لرؤيته ويدرك وهو يرى ابتسامته أنهما اليوم لن يقوما بأيّ تمرين،

بأنّ الأمر انتهى، بأنّه استعاد السيطرة على جسده. فيتركه يقترب، وقبل أن يُتاح له قول أيّ شيء، يحدق به سوليفان ويسأله: «تمّ التأهيلُ؟ صالحٌ للقتل من جديد؟

بكتْ، في مكتبها باليونسكو. يتواصل عرض الصور ذاتها والاشمئزازُ يتجدّد. وثمّ، تذكّرت جشع البشر. الدولة الإسلامية كمَنْ سبقها ستُطيع المال. إنّهم يعلمون مسبقاً أنّ ما يفعلونه يُرعب العالم وبأنّ ثمّة طريقة لربح مبالغ طائلة من وراء القطع الملقاة أرضاً. وما جلّاخة الزوايا إلّا لرفع مبالغ المزادات، وفي الفناء الخلفيّ سيُفتح المجال واسعاً أمام التجارة غير المشروعة. لذا تعلم بأنّ عليها الذهاب إلى هناك. وهذا ما يقوله لها أيضاً مدير التراث الذي يدخل مكتبها، ممتقع الوجه، حاملاً بيده ملفاً تعجزُ عن قراءته لأنّها منذ الصباح لا تستطيع النظر إلّا إلى الصور، مشدوهةً، التي تتعاقب على القنوات. «إذا كان ينبغي على أحد أن يكون هناك في هذا الحين، فهو أنتِ. ولا بأس بشأن افتتاحيّة متحف بغداد. ستكونين أكثر نفعاً هناك. ربّما لايزال ثمّة قطعٌ يمكن إنقاذها... « تعلم مريم أنّ ما قاله صحيحٌ، وأن عليها الإسراع. لذا لا تتردّد، تلمّ حوائجها وتأخذ طائرة إلى أربيل.

«يهجمون!» ينتفض غرانت في فراشه، ينظر إلى ساعته. إنّها السادسة صباحاً. يسمع طلقات النار الأولى. كيف أمكنهم أن يقتربوا بهذه السرعة؟ ينهض، ترتسم تكشيرة على وجهه ما إن تلمس قدمه الأرض ـلقد نسي سقوطهـ ويُسارع لارتداء سترته. «يهجمون!» شيرمان يقفز أيضاً، وبرينتيس ووَالاس، وكافّة الضبّاط الشماليين المخيّمين مع رجالهم حول كنيسة شيلوه الصغيرة. كم عددهم؟ أين هم؟ ينهض الجميع. يُحضِر رجال الصفّ بنادقهم. يُسرجُ الضبّاط أحصنتَهم. تسرع رجال المدفعيّة إلّا أنّ العدوَّ سُرعان ما بلغهم. يصل الكونفدراليّون مثل

موجة عاتيّة. يعدُون، صارخين ليبثّوا الشجاعة في أنفسهم، مبتهجين لنجاحهم في المباغتة، وظهور الهلع في صفوف اليانكيّين. يجب تشكيل صفّ دفاعيّ بأسرعَ ما يمكن، عدمُ التبعثر، عدمُ الاستسلام للخوف، رصُّ الصفوف. يجب الثباتُ. بأيّ ثمن. الثبات. يقول غرانت ذلك ويكرّره، وإلّا سنُمزّقُ...

«اسلُبوا القرى!» يرنو هنيبعل، من أعلى التلّة التي نصبَ عليها مُخيّمه، إلى مرتفعاتِ توسكانا المتناسقةِ في الضوء الخفيف لآخر النهار. كلُّ شيء هنا أخّاذٌ: الكروم تغطي سفوح التلال، الحقول مرقّشة بأشجار السرو، كلّ ما في هذا المكان يفيض ثراءً وسكوناً. يتردّد رجاله، ينظرون إليه. هل فهموا أمره جيّداً؟ يرى تشكُّكَهم فيكرّر: «قولوا لرجالكم أن يسلبُوا كلّ شيء». إنّه يدرك ما الذي يعنيه ذلك. يعلم قسوةَ مِقلاعي البليار الذين يخلعون الأبواب مُنقضّين على كلّ شيء، نساء، بهائم، نبيذ، لإرضاء شهوة قرن من الزمن، لينسُوا حرمان جبال الألب ولسعاتِ شمس المناطق الجليديّة. يعرف أنّ ذلك سيكون بشعاً، وبأنّ فساتين ستمزّقُ ممرّغةً في الوحل، بأنّ منازلَ ستندلع وقرى ستُمحى. لكنّها منطقة فلامينيوس، قائد الجحافل الرومانيّة، ويجب تحدّيه، وخزُه، دفعُه للخروج عن طوره. ثمّة طائفةٌ من الرجال يقومون بالحرب شريطة ألّا تمسَّهم. يقبلون المراهنة على حياتهم، أجل، ولكن ليس على حياة نسائهم، أطفالهم، ليس على الأقبية المُترعة بجرارٍ من زيت منطقتهم ونبيذها. ليس على المباني الجميلة التي ورثوها. وفلامينيوس من هذه الطائفة. هنيبعل يدرك ذلك. لذا يريد إشعالَ هذه المنطقة بالنار والدم، وعندئذ سوف يفقد الرومانيّ برودةَ أعصابه وتبصّره.

كلُّ شيء متوقّفٌ على برودة الأعصاب وهذه ميزة لدى شيرمان. ينادي إليه رجاله، ويُعيد تشكيل خطّه الدفاعيّ. يفعل برانتيس في الوسط

الشيء عينه. ينبغي الثبات. يطغى الكونفدراليّون عليهم. الموجة الأولى تطرحهم مثل طعنة سيف في البطن. يتساقط القتلى، الذين استيقظوا للتوّ، بالوجوه المُتجمّدة إلى الأبد في طراوة الصباح. «خذوني إلى ميدان المعركة!» أمر غرانت. يريد أن يكون على أقرب مسافة ممكنة. إنّه يعرف بأنّ رباطة الجأش هي التي ستصنع الفارق وهو يتّصفُ بها. هذا ما يُتَوْئِمه مع شيرمان. لديهما الهدوء ذاته لحظة العاصفة، والمقدرة ذاتها على قراءة تحرّكات الفرق داخل الازدحام. يتكلّم مع رجاله، يُؤنّبهم، يشجّعهم. يريد معرفة من لم يعد لديهم القدرةُ على الاحتمال ومن هم ثابتون، إلى أين ينبغي أن ترسلَ التعزيزات... المعركةُ تكسَب بهذه الطريقة، بالقدرة على التحكّم بالخوف الذي يريدك دوماً أن تستديرَ على عقبيك مولّياً ويدفعك سريعاً إلى الموت في اللحظة التي تظنّ فيها أنّك تُنقِذ نفسك.

غادرت طائرتها للتوّ مطار فيينا، متخذةً مسارها نحو الشرق. عمّا قريب ستحلّق فوق تركيا، ثمّ، على مسافة أبعد، فوق شمال العراق. عمّا قريب ستعبر سماء الموصل، المتحف المبقور، والبرابرة المبتهجون بالأضرار التي أحدثوها، تلك الطبقات من التاريخ التي هي حياتها، هناك، في تلك المنطقة التي لا تخمد نيرانها.

تتوالى الموجات واحدةً إثر أخرى. مَنْ بوسعه مقاومة هذا القدْرِ من الشدّة؟ ثمانية، عشرة، اثنتا عشرة، أكثر من خمس عشرة غارة أُطلقت نحو صفّ الدفاع اليانكيّ. الجنوبيّون لا يكلّون ولا يملّون. يهجمون أكثر فأكثر... تختلط الجثث ببعضها البعض، متعانقةً في الموت. لم يعد العدوّ يُرى من كثافة البارود والدخان اللذين يطفوان في الهواء. الثبات. لا يتوقّف غرانت عن تكرار هذه الكلمة، مثل صلاة. وهذا ما يفعله برينتس ورجاله في الموقع المتقدّم، يصمدون لأكثر من سبع

ساعات متتالية، ليسمحوا لغرانت والآخرين بتنظيم صفوفهم، ويتيحوا الوقت لبويل للوصول والتمركز. ثم في النّهاية يسلّمون أنفسهم؛ مرهقين، منذهلين، ووجوههم ملطّخة بدماء الآخرين، دماء جميع من سقطوا إلى جوارهم أعداء وأخوة، يسلّمون أنفسهم وتفترّ شفتا الجنرال جانستون عن ابتسامة. لم يدرك بعد أنّ هذا الاستسلام ليس انتصاره، بأنّ برينتس استسلم ولكن شيرمان تسنّى له وقت أن يُعيد تموضعه ووَالاس كذلك، وبأنّ غرانت مُصمّم على النصر أكثر من أيّ وقت مضى. وأنّ الريح غيّرت وجهتها. وحدهُ جانستون لم يفهم بأنّه حين يتقدّم برنتيس، مخبولاً من جرّاء هذا الكم من الضربات المتبادلة، ضامر الوجه، بهيئة منهكة، وزيّ ممزّق، فإنّه يفعل ذلك كمنتصر. لأنّ موازين المعركة، من الآن فصاعداً، ستنقلب.

تحلّقُ فوق أراضي الحرب هذه، بين الموصل وأربيل. في هذا المكان تغلّبَ الإسكندر على داريوس. في هذا المكان نقّب بول إميل بوتا وعثر على دور شاروكين. الأراضي التي لم تتوقّفْ عن النزيف، حيث منذ قرون شعوب تهرب من الحرب وإمبراطوريّات تتواجه. حياتها هي تكمن في الحفر، النبش، الحفظ. لكن ما الجدوى إذا كان العالم يحترق...؟ أليس حريّاً بها أن تحمل بندقيّة لتحاول منعَ تقدّمُ أولئك المُجرمين؟ تدور في رأسها كلّ هذه الأسئلة. تعلم أنْ لا. وأنّه عبث. هي تحارب بطريقتها، ولكن لا تستطيع منع نفسها من التفكير في الرجل صاحبِ جلّاخة الزوايا. وفيما لو كان أمامها، فهل هي مستعدّة لقتله لكي تحمي العملاق الكبير؟

ولا يتردّد أدنى صوت. يبدو أنّ السديم الكثيف يكتم كلّ شيء. الطيور صمتَتْ. والرومانيّون لا يسمعون حتّى وقع خطواتهم على الأرض. كلُّ شيء ساكن. يتقدّمون. يريد فلامينيوس إنهاء الأمر مع هنيبعل، كي لا

يجرؤ بربريّ يوماً على حرق قرى توسكانا. كي لا تعرف روما يوماً عار الارتعاش خوفاً أمام عدوّ.

يحاول القرطاجيّون كتم أنفاسهم، صليلَ أسلحتهم. يلبثون مترقّبين. مصيرُ النصر معلّق هنا. يدركون ذلك. على مسافة أبعد قليلاً تقع بحيرة تراسيمين. تمركزوا في مرتفعات الوادي الصغير. إذا مرّ الرومانيّون من تحت أقدامهم، في المضيق الجبليّ الممتدّ على طول النهر، انتصروا. أمّا إذا انقشعت السماء وظهروا للعيان، فسوف يكون الإخفاق من نصيبهم. هنيبعل يترقّب. هو يعلم بأنّ ما سيفضي إليه هذا اليوم لم يعد رهناً به، وإنّما بصوت يصدر، بحصان يصهل، بغيمة تنتقل، أيّ من هذا بوسعه أن يغيّر مجرى التاريخ. وثمّ، فجأة، يقترب منه أحد رجاله وبصوت مكتوم يهمس له: «بدؤوا يتقدّمون في المضيق». عندئذ يقف ويأمر رجاله بالانقضاض على العدوّ.

«اهجموا!».

الجنرال جانستون نفسه يهجم ناهزاً جانبي مطيته. ظنّاً منه بأنّه لم يتبقَّ غير إكمال هجومه وكلّ شيء سوف ينتهي عمّا قريب. انسحب اليانكيّون إلى بيتسبرغ لاندينغ. لا يرى ما يمنعه من التمتّع بتفوقه، فيفكّر بأنّه يجب مُضايقة المهزومين. «اهجموا!».

سُرعانَ ما يهبط القرطاجيّون المُنحدرَ. لا يفهم الرّومانيّون بدايةً من أين تصدر هذه الصرخات إذ إنّ السديم يغيّر من طبيعتها، ويحرّكها. وثمّ بغتةً، يرونهم يظهرون، هنا، سُرعان ما ينقضّون عليهم، منزلقين عن يسارهم من أعلى المرتفع. تجمح الأحصنة مذعورةً. يتراجع المُشاة إلى الخلف على نحو غريزي باتّجاه البحيرة ليتجنّبوا الهجوم. كلُّ شيء يصبح مشوّشاً وتنعدم الرؤية.

تخترق رصاصة ساق جانستون، بمحاذاة جزمته. يسيل الدم، لزجاً، كثيفاً. يفكّر بأن لا شيء يدعو للقلق فلا يترجّلُ عن حصانه. لا يعلم بأنّ الدم لن يتوقّفَ عن أن يفيضَ من جزمته، وبأنّه سيموت في غضون أقلّ من ساعة، هنا، في شيلوه، على هذه الأرض التي كان يُفترض بها أن تكون أرضَ انتصاره إلّا أنّها ستغدو قبره.

يسود هلع عام. ما عاد أحدٌ يتحكّم بالرجال. يدرك فلامينوس بأنّهم إذا فقدوا رباطة جأشهم فسوف يُقضَى عليهم. يصدر أوامره ولكن ما من أحدٍ يسمعها في السديم. القوّات تشتّتت. لدى الغوليّين سِحَنٌ مرعبة بجدائلهم الطويلة ولحاهم الكثّة. ثمّ لاحقاً، ينقضُّ فارس على القنصل ويقتله بضربة خاطفة. صوت واهن يصمتُ في الاشتباك والجسدُ الروماني الهائلُ، بما أنّه بات بلا رأس، يندفع في شتّى الاتّجاهات.

«اهجموا!» غرانت مَنْ يصرخُ هذه المرّة. وبويل أيضاً. أتى دورهم في التقدّم، شيرمان، والاس وكافّة ضبّاط اليانكي. الحرب ليست أكثر من كرّ وفرّ: تحوز أرضاً ثمّ تخسرها، تصمدُ حيناً وحيناً تنسحبُ، أن تجد في نفسك القوّةَ على النهوض، حتّى لو بعد سبع ساعات من القتال، حتى لو بعد ليلة من الترقُّب، وأن تنقضَّ على مَنْ حطّموك بالأمس. بوريغارد الذي أخذ مكان جانستون، يرى الهجوم المُضادّ الذي تشنّه الفرق الشماليّة، ويفهم بأنّ كلّ شيء قد بات منتهياً. ستموتُ رجال بعدُ، إلّا أنّ معركة شيلوه خُسِرَت ولم يعد أمامهم سوى الانسحاب.

تنساب الطائرة فوق أراضيها الذهبيّة. من مكانها يبدو كلّ شيء هادئاً. رغم معرفتها بوجود رجال تتحارب في الأسفل. يتبادلون القذائف، يعدُون، يصرخون. قرى مقصوفة ومواقع تُؤخذُ وتُسترد. ولكن من مكانها يبدو كلُّ شيء جميلاً، شاسعاً وهادئاً. تعاود التفكير

بالأب اليسوعي أنطوان بوادبارد، مُبتكر علم الآثار الجويّ. هو الذي ذرع سماء أرض الرافدين سنة 1930، حلّق فوق بيروت ودمشق والبادية السوريّة وتدمر... مئات الساعات من الطيران، وعيناه مُوجّهتان نحو الأرض لالتقاط الأبنية الرومانيّة المدفونة، وخطوطِ الجدران التي سوّاها الزمن على المستوى ذاته، وآثار التحصينات القديمة. كانت العشائر البدويّة تنظر واجمةً إلى مرور تلك الطائرة، يطلقون النار عليها أحياناً خشية أن تحمل لهم نذير شؤم. تعاود التفكير بذاك الرجل الذي هو أيضاً كان ينساب فوق حيوات لا تُحصى تتزاحم تحته. رأى الحزام الرومانيَّ في البادية السوريّة. ظهرتِ العصور القديمة واضحةً له، إذ إنّها تُرى من طائرته، تقفز إلى العينين مباشرةً، بينما الناس في الأسفل، الذين يتقدّمون على الطرق أو يعيشون في تلك القرى، لم يكونوا يرونها. تعاودُ التفكير بأنطوان بوادبارد وبذلك التكديس للزمن. كلُّ شيء هنا، تحتها: حملات الإسكندر، السور الذي أتاح للباكس رومانا (السلام الرومانيّ) أن يتحقّق، الخطوطُ التي رسمها تشرشل والفرنسيون إبّان مؤتمر القاهرة، زحْفُ داعش. تنساب على الزمن، تُحلّق فوق الناس، فوق مصائرهم الضئيلة، وحتّى إنّها لا تراهم. لا يظهر، من مكانها، سوى أرضِ الشرقِ الذهبيّة.

لكي يكونَ الانتصار حقيقيّاً، لا يكفي التقاطُ الأعداء في مصيدة فئران، وألّا يكون أمامهم مخرج، وأن يُقتلَ قائدهم، لا يكفي فقط غيابُ أيّ قرار يجمع الفِرق، لا يكفي أن يُفكّر كلُّ واحد في إنقاذ حياته فقط، محاولاً النجاة بجلده، وأن يرتعدَ خوفاً. لكي يكون الانتصارُ حقيقيّاً، ينبغي المضيُّ حتّى النهاية، عندما يكون العدوّ محاصراً، وخلف ظهره بحيرة ولا يعلم ما عليه أن يتصرّفَ، ينبغي المضيُّ قُدماً والإجهاز عليه. وهذا هو ما يفعلونه الآن، الإيبريّون والبلياريون والجنود البونيّون، يحيطون بالرومانيين ويرتكبون بهم مجزرة. يقصلون، يطعنون، ويقطّعون

الأوصال. ينحرون الرجال كما تُنحَر الشّياهُ. واحداً واحداً بصبر، خمسةَ عشرَ ألف رجل، بملل الحركات نفسها. يفعلون ذلك لأنّ بعد ذلك فقط يُمكن التحدّثُ عن انتصار، بعد ذلك فقط سيصل الخبر إلى روما ولأوّل مرّة سوف يشيع الذعر في الشوارع. يَذبَحون، ويَبتُرون، واحداً واحداً، إلى أن يلوّثَ دمُ خمسةَ عشرَ ألفَ جسدٍ مياه البحيرة، خمسة عشر ألف جسد رجل كانوا عند الصباح يعتقدون بأنّهم سيعيشون والآن بعد ثلاث ساعات يطفون على وجه الماء، فيما الضباب يتلاشى أخيراً، مُقدّماً إلى هنيبعل المشهد المُفزع لانتصاره. ربما تأثّر في تلك اللحظة؟ ربّما تآخوا في غضون هذه الساعات الثلاث من التلاحم الجسديّ، اتّحدوا إذ وضعوا جميعاً حياتهم بين يدي القدر؟ ربّما لهذا السبب يفتّش مُطوّلاً في ميدان المعركة عن جثة فلامينيوس، لكنْ دون طائل، لأنّ القنصل قُصِل رأسه وتدحرج في الماء، لذا يطلُبُ إكرامَ جثث الموتى جميعاً، حتّى الذين كانوا يُذبحونَ قبل دقائقَ معدودةٍ على أيدي جنوده. وأخيراً يرين صمتٌ على الجميع قُبالة البحيرة التي خضّبها الأحمر.

يعلم غرانت أنّه انتصر اليوم. يتجوّلُ في بستان شيلوه المغطّى بالأجساد، عابراً فوق الأذرع المُتصلّبة للمحتضرين. جميع الضبّاط حوله في حالة وجوم جرّاء حجم الخسارات. ما الذي كانوا يظنّونه؟ المجزرة، هكذا هي الحربُ، ولا شيءَ آخر. الجميع ينظر إليه باشمئزاز لكنّه يعلم أنّه انتصر، حتّى إذا علا صوت الغضب وتناهى إلى لينكولن، حتّى إذا سيُطلق عليه من الآن فصاعداً لقب «الجزّار». حتّى إذا أُبعِدَ لبعض الوقت عن مواقع القيادة لأنّ بقيّة الجنرالات لا تزال تحلم بانتصارات نظيفة. هو يعرف رائحة ميادين المعركة. عندما تنجلي رائحة البارود لا تبقى غيرُ رائحة الأحشاء والدم. لذا فهو يقبل بأن يُطلقَ عليه «الجزّار»، في العمق ليسوا مخطئين... رجالٌ كثيرون سقطوا اليوم. غير أنّه يرفض أن يُقال بأنّه خسر في شيلوه. إنّه نصر. هكذا هي الانتصارات: مصابون يعرجون

ومحتضرون يئنّون، مثل الهزيمة. الأمر الوحيد الذي يُحسَب حسابه، هو أن بوريغارد ينسحب وهو، أوليس إس.غرانت، يتقدّم، ولا يهمّ إذا كان وسط الجحيم. بما أنّ الحرب قائمة، فينبغي أن تُكسَبَ دون لَبْس.

تحلّق الطائرة مسرعةً في سماء تركيا والعراق ويبدو لها أنّها تشعر بمئات الآلاف من تلك الحيوات التي ذُبِّحتْ بعضها على مرّ الأزمان فوق هذه البقاع. ما الذي بقي من كلّ ذلك؟ تحصينات، معابد، أواني وتماثيل تُحدّق فينا صامتةً. كلُّ حقبة عرفت اضطرابات مشابهة. والذي يبقى، هو ما تبحث عنه. ليس الحيوات، ولا المصائر الخاصّة، وإنّما ما يقدّمه الإنسان للزمن، جُزأَه الذي يريد إنقاذه من الدمار، الجزء الذي ليس للهزيمة أيُّ سلطان عليه، صنيعَه للأبديّة. هذا الجزء، هو اليوم، ما يهدّده الرجال المُتّشحون بالسواد. يشهرون أسلحتهم ويصرخون بأنّهم لا يخافون الموت. كان الفاشيون الإسبان يهتفون «Viva la muerte!»[1]. هي الغطرسة ذاتُها، الكراهيّة للإنسان ذاتها. ولكن الذي ينقضّون عليه، هم، هو الجزء الذي ينجو عادةً من المعارك والحرائق. يطلقون ويقصفون ويحرقون، كما فعل الإنسان على الدوام. العصور القديمة تعجُّ بمدن دُمّرت ـ حريق برسيبوليس، دمار صور ـ، ولكنّ عادةً تبقى آثار منهم، الإنسان عادةً لم يكن يمحو عدوّه. ما يدور هنا، عند هؤلاء الرجال الذين يكيلون الشتائم، هو مُتعة القدرة على محو التاريخ.

1ـ بالإسبانيّة، «يحيا الموت».

–IV–

بيروت

لفَحَهُ قيظ بيروت أوّلَ ما وطئتْ قدمه خارج مبنى المطار، حرّ كثيف، مُثقَل بهواء البحر المالح، مُحمّل بفوضى ازدحام السير وصيحات صِبْية الأحياء الجنوبيّة. من مكانه في سيارة التاكسي التي كانت تقلُّهُ إلى فندقه، أخذ يتأمّل الشوارع بنهم، متفحّصاً التغيّراتِ التي طرأت على هذه المدينة التي يعرفها منذ خمسةَ عشرَ عاماً: المباني التي تداعتْ في النهاية من الإنهاك، والمباني الجديدة التي نبتتْ مثل زهور زجاجيّة طويلة مع نوافير ومكسوّة بالرخام. كلُّ شيء هنا متجاور، الأبنية المتهالكة والمضاربات العقاريّة، آثار الماضي (مبنى لا يزال متآكلاً بثقوب الرصاص، ومنزل آخر قديم في الأشرفيّة من زمن الوصاية الفرنسيّة) والرغبة في النسيان. ثمّة مِنْ كلّ شيء، مسيحيون ومسلمون، وجوه فقيرة وابتسامات كونيّة. يحبُّ هذه المدينة أكثرَ من المدن الأخرى، يحبُّ عنفَها الطاغي، القديم مثل فانديتا الجبال، نزقَها في شوارع الحمرا وهدوءَها المهيب، عند الصباح، في مطاعم الكورنيش حيث يمكن تناول الفطور قُبالة البحر. يحبُّ هذه المدينة المتردّدة أبداً، الحائرة بين أن تهدِمَ كلَّ شيء لكي تبني نفسها من جديد أو تحافظَ على كلّ شيء لتظلّ جروح الماضي ماثلةً كعبرة للأجيال اللاحقة، المتردّدةُ دوماً ولا تختار لأنّه قبل أن يتسنّى لها فعل ذلك، تعود وتُسرَقُ من شياطينها وتَنهشُ نفسها ثانيةً بضراوة، تنزفُ وتمزّقُ نفسها أشلاءً. يحبّ هذه المدينة لأنّ العالم برمّته هنا، الدروز، الأكراد، الفلسطينيون، الأرمن، والذين يعودون مرّة في العام لرؤية أمّهاتهم العجائز، قادمين من القاهرة أو باماكو، من بكين أو بورت-أو-برانس، والذين يتكلّمون جميع اللّغات لأنّ العالم منذ زمن طويل للبنانيّين، وبينما هم، أبناء الفينيقيين، يجوبون

البحار نجدهم يتنازعون على أرضهم. اليوم، تنوء المدينة تحت تدفُّق اللاجئين. يصلها السوريّون على نحو متواصل. ينظرون إلى مخيّمات الفلسطينيّين التي أصبحت مدناً إسمنتيّةً، قبيحةً، متلاصقة وسط عقدة أسلاك كهربائيّة متشابكة، ويدركون أنّه لا يمكنهم أن يأملوا بأفضلَ من ذلك: أن يبقوا هنا ويشيخوا منفيّين في مدينة لم تعدْ تعرف كيف تبكي على الذين فرّوا من أرضهم لأنّها لا تزال بحاجة ماسّة للصراع من أجل البقاء، وفي المقابل، تستبدُّ بها رغبة أن تسلوَ...

حطّتِ الطائرة وللوهلة الأولى بدا لها، في المطار، كلُّ شيء طبيعيّ. ثمّ أقلّتها سيارة عبر المدينة إلى المعهد الفرنسيّ. الفوضى تعمُّ كامل أربيل، يتدفّق اللاجئون من جميع الأرجاء، هاربين من زحف الدولة الإسلاميّة. قبل بضعة أشهر، استقبل الأكراد العراقيّون إخوتَهم السوريّين. وقد أُشيدت مخيّمات للاجئين على طول الحدود الشماليّة. في دوميز وكوركوسك. الآن، العراقيون أنفسهم هم من يهربون. تحاول أربيل امتصاص كلّ هذه الجموع المذعورة من الرجال والنساء الفارّين من مدنهم، من قراهم، لا يحملون معهم إلّا ما تتسع له أكياسهم، حاملين أطفالهم، باحثين عن مكان يحطّون فيه، حيث يستعيدون فيه بعض الهدوء، يلتقطون أنفاسهم ويروون ظمأهم محاولين إقناع أنفسهم بأنّه سيُعثر على حلّ للأيام القادمة... أربيل تنمو وتتصدّع من جميع الجهات. وما تقرأه في الشارع، على وجوه النساء، هو لفحة الخوف.

«لا يمكننا البقاء هنا، جلالتك...» صوت الطائرات يقترب. «يجب أن نسرع، جلالتك...» تنكس الطائرة نحوهم. يتجمّد الجميع داخل المغارة الصغيرة. صرير المحرّكات الناكسة يزداد حدّة. وثمّ يبدأ القصف، من نواحي السماء كافّة، مفجّراً الصخرَ، القصف يدوي في الآذان. كأنّ الأرض تُزلزلُ تحتهم. وسرعان ما أعقبتها طائرة أخرى. لن

يتورّعوا عن قصفهم. مضى يومان وهم متوارون في مغارة (أيَا) الصغيرة التي سدّوا مدخلها بستار حريري والتي تعبق برائحة البخور الثقيلة الذي يشعلونه، ليل نهار، من أجل أرواح الذين سقطوا في ماي شيو. حين تنفجر أوّل قنبلة، على بعد 100 متر من المدخل، يبدأ القساوسةُ المحيطون بهيلا سيلاسي الصلاة. «جلالتك... أسرع!» فينهض، مُحاطاً بالرجال الذين يحرسونه باحتراس أُمّ، ويخرجون راكضين من المغارة. الركض. اللهاث. الركض قبل أن تستأنف الطائرات انعطافتها في السماء. أن تشعر بالحجر يزلق تحت قدميك، ومع ذلك تكمل، زاحفاً. الركضُ، إذ إنّ هذا ما يفعله المهزومون...

دخل عاصم المتحفَ الأركيولوجي. كرّر له الرجل في النافذة، بنبرة ملحّة، بأنّ الزيارة بالنسبة له ستبدأُ بعد ساعة، في المقهى المقابل. لم يجِبْ بشيء. إنّه الموعد الذي ينتظره. يبقى عليه أن يضيّعَ ساعةً. فأخذ يتجوّل بين أضرحة القاعة الأولى. كلُّ شيء يجتمع في بيروت، الأثريُّ وآخر الصرعات، الإفلاسُ والدولارات. يتمعّن في وجهي الزوجين المنحوتين على غطاء الضريح، رجل وامرأة، مهيبان، ممدّدان جنباً إلى جنب، مرتفعان قليلاً على مرفقيهما، واللذان غرقا في الموت على هذا النحو، تملؤهما السكينة، تاركين العالم إلى صخبه. وفي المنحوتات البارزة تحتهما، تتشابك أجساد وسيوف ومصارعات. يونانيّون بمواجهة طروادیين. إنّها الحرب: الضربات المسدّدةُ، والأجساد المبتورةُ. يتوقّف عند جلَبة الموت، الصرخاتِ، الأنّاتِ، والزوجين اللذين يبدوان في غاية الهدوء بينما تضجُّ حشود تحت قدميهما. هل سينال، هو، لحظة دخوله في الموت، سكينةَ النبيل الرومانيّ هذه؟ يسمع صِياحاً يعلو في داخله. يتذكّره. ذلك حدث على الطريق بين سِرت ومصراته وكان الدكتاتور أمامه تفصله عنه بضعةُ أمتار، مطوّقاً بالحشد الذي أخذ يصرخ ويدوس دون أن يُعرَفَ بعد إذا ما كان ينوي أخذه مخفوراً أم تمزيقه إرباً. يتذكّر.

فورةَ الرؤوس المحمومةِ التي ما عادتْ واعيةً للضربات التي تسدّدها. عندئذ اضطر إلى الاقتراب أكثر إلى أن رآه، هناك، القذّافي، أو ما تبقّى منه، مشوّهَ الوجه، منتفخَ العينين، مشقوقَ الشفتين، مُثخناً بالكدماتِ في حالة من الذهول، القذافي الذي لا يمتُّ بصلةٍ إلى ذاك السيّد المتغطرسِ الذي صادفه قبل بضع سنوات في زيارته الرسميّة حيث كان ينام، مساءً، تحت خيمته البدويّة في ساحة الإليزيه، مُهيناً تلك الفرنسا التي استقبلته. يتذكّر. الصرخاتِ المحدقةِ التي كانت تكتظُّ في فضاء المكان. اضطر أن يتصرّفَ على غرار الآخرين، أن يصرخَ أيضاً ويحاكي الحركاتِ المباغتة والعنيفة ذاتها، ليستطيعَ البقاء على مقربة ضمن الدائرة الأولى لهذا الحشد الهائج. زوجا متحف بيروت يبدوان في غاية الهدوء. ألَا يسمعان صرخاتِ الحشد، الكلماتِ الخدرةَ التي يجهد القذافي في تلفّظها، واعداً بالذهب إذا ما تركناه يمضي بسلام؟ ألا يسمعان طلقاتِ البنادق الأوتوماتيكيّة معبّرةً عن سعادة إلقاء القبض على الدكتاتور؟ يعاوده التفكير بمدينة لبدة الكبرى، التي أراد رؤيتها منذ بضعة أشهر، حين كان مدرّباً للمتمرّدين، وبنيران الأسلحة الثقيلة، هناك، التي لم تكن تبدو متناسبةً. كانوا يافعين، وكفاحُهم عديم التأثير ليتمكّنوا من إسقاط طرابلس. بدتْ قرقعة الأسلحة قبيحةً أمام رسوخ الأعمدة الرومانية المنتصبة قبالة البحر مثل أنصاب تذكارية للزمن. يشعر اليوم بما شعره آنذاك، أنّه، ابن هذا الزمن، زمنِ الطوارئ، الحربِ، زمن العمليّاتِ، وقد غادر الموقع بالأسى ذاته الذي يكتنفه الآن وهو يترك وراءه الزوجين على النعش يرمقانه يبتعد ويخرج عائداً لملاقاة خطر شارع بيروت، القيظ، الضجيج، والرّهانات الضئيلة لحياةٍ وسط آلافٍ من الحيوات الأخرى بينما هما يواصلان التحديق في الأبديّة بثبات باسمين.

الهروب. الركض، برأس مُطأطئ... لا يعدو أكثر من جُرذ فارّ من نظر الصقر الإيطاليّ العازم على افتراسه. سيظلُّ طوال عمره يتذكّر هذه

الأيّامِ الطويلةَ التي أمضاها متخفّياً، متدارياً في الأحراش أو في القرى. سيظلّ لأمد طويل يتذكّر ليالي المسير هذه التي كان عليه المضيُّ فيها دون توقّفٍ صوب أديس أبابا. أمر رجاله بانعطافة نحو لاليبلا. أمكنه النزول في الكنيسة الكهفيّة، جوهرةِ العالم المسيحيّ في إفريقيّة، وصلّى. ما الذي طلبه من الله، هناك، في عتمة الكنيسة المحفورة في الأرض على هيئة صليب؟ ما الذي طلبه الجرذُ؟ هو يعرف الآن ـ وسيظلُّ طوال عمره يتذكّر ـ ماذا يعني أن تكون محاصراً، مطارداً ممّن ألحق بك الهزيمة، وما من أحد تكلّمه غيرُ إله فيما الرجال في الخارج يترقّبون النجوم بقلق، دون أن يجرؤوا على قطع صَلاته يحدوهم الأمل بألّا تستغرق وقتاً طويلاً إذ لا ينبغي التلكّؤ. فلم يعدْ بوسعه الاستقرار في أيّ مكان. ينبغي عليه أن يظلّ في ارتحال دائم. يمضي قدماً تحت جنح الليل بينما المارشال بادوليو والدوتشي نائمان مُنعّمَيْن في شراشفَ حريريّة، يحلمان بالسيادة وسط روائح غاز الخردل.

وضع لها المعهد الفرنسيّ في أربيل، بطلب من اليونيسكو، مكتباً صغيراً تحت تصرُّفها. الحرارة خانقة فيه غيرَ أنّها مغتبطة بتوفُّر مكان لها تُجري فيه مقابلاتها. كان بضعةُ أشخاص يجلسون في الممرّ بانتظارها، إذ تناقل الناس خبراً بأنّ سيدة تبحث عن معلومات حول مُتحف الموصل. الأولُ الذي تدعوه للدخول كان شابّاً والذي يطلب منها إن كانت تستطيع إيجاد مكان يقضي فيه الليلة هو وعائلته. تحاول الشرح له بأنّ ليس في وسعها مساعدته، وأنّها ليست هنا لهذا الخصوص، وأنّه ليس في هذا المكان يُطلَبُ المأوى.

«مكان فقط لي ولأولادي...

ـ أنا آسفة، لستُ أنا المكلّفةَ بهذا الشأن.

ـ أنا من الموصل.

ـ متى غادرتموها؟

– قبلَ بضع ساعات من وصولهم... لم أشأْ المغادرةَ ولكنْ، في هذه الحالة، لم يكن لدينا خيار آخر.

– أتعرف ما الذي حدث في المتحف؟

– يحطّمون كلَّ شيء.

– هل رأيتَهم؟

– رأيتُ كلَّ شيء، أقول لك... رأى الجميع ذلك. أتوا لهذه الغاية. ليقتلونا. ويمحوا المدينة...».

تفهم بأنّها لن تعرفَ شيئاً من هذا الرجل. الذي كلّما تكلّم يزداد صوته حدّةً. ينفعل. وترتعش يداه. هي تدرك أنّه ليس بوسعها عملُ شيء لأجله. فتنهض وتشكره لتكلُّفهِ عناء القدوم، متمنّيةً له حظّاً طيباً وتتركه ليغرق مُجدّداً في فوضى مدينة تبحث عن نفسها، وتتنادى، وتركض بحثاً عن شيء تشربهُ ومكانٍ تأوي إليه.

«اطلبْ منهم أن يكرّروا. قل لهم بأنّ الفرصة لا تزال سانحةً لقصف القطار». يعيد جنديّ الراديو الاتّصال. ينتظر الجنرال غراتسياني، متوتراً. عاجزاً عن التصديق بأنّ موسليني يرفض. النجاشيّ هناك، في ذاك القطار الفارّ. يمكنهم إنهاء القضيّة برمّتها، اعتراضُ القطار، سحقُه. هل هو متردّد؟ غراتسياني يعرف ما ينبغي فعله. الوقت ليس للمماطلة. إذا سبق له أن أفلح في العثور على عمر المختار في ليبيا، فلعلمه بأنّه لا يجوز الارتعاش. ألم يختَرْه الدوتشي لأنّه كذلك؟ لاحقَ زعيم المقاومة الليبيّة في الماضي إلى أن أصبح في قبضته. اقترح عليه العفو مقابل انسحابه وحين أبى المختار، أمر بشنقه دون أن تهتزّ شعرة من رأسه. كما قصفُ قطار النجاشيّ لن يحرّكَ شعرة من رأسه. ليسوا سوى زنوج. فلننهِ الأمر. هل يريد الدوتشي استعادة إثيوبيا كما استعادوا برقة وطرابلس أم لا يريد؟ ينفد صبره. الجواب لم يأت بعد، والقطار يبتعد. مع كل لحظة تمرّ، يقترب النجاشيّ من نجاته. لا يعجبه ذلك. ليس هكذا تُكسَبُ الحروب.

يشوّشُ الراديو، فيصغي الجنديُّ بانتباه، ثمّ يلتفت إليه: «الجواب لا، سيدي الجنرال. يقولون بأن ندعَه يفرُّ». على أيّة حال، فات الأوان، يفكّر غراتسياني بامتعاض. لقد أفلتَ منه النجاشيّ. هل سيعلم يوماً بأنّ حياته كانت تلك اللحظة في الميزان؟ هل يمكنه أن يتخيّل، في هذه اللحظة، وهو مرتاح في جلسته على مقعدٍ داخل مقصورته، بأنّ مصيره تقرّر للتوّ؟ يهربُ عبر بلده، محاولاً الالتحاق بعاصمته، يهرب، غافلاً عن الصقور، في السماء، التي حامَتْ فوقه لمدّة قبل أن تقرّر قطْعَ الدوائر التي كانت ترسمها وتختفي.

الرجالُ الذين كانوا في الممرّ، ذهبوا. ربّما تناهى لهم أنّ ليس بوسعها تقديمُ عونٍ للاجئين فمضوا ليجرّبوا حظّهم أمام باب آخر. لم يتبقَّ غيرُ رجل عجوز، بلحية بيضاء مشذّبة بإتقان، ويرتدي سترة سميكة تتنافى مع حرارة الممرّ المرتفعة. لكنّه لا يخلعها ولا يظهر أنّها تضايقه. مغبّرة عند الكتفين قليلاً. «من غبار الموصل...» فكّرت في سرّها، وهذا أثّر فيها. المدينة قريبة جداً. حين يدخل، يدخل بخفرٍ. لا ينظر في عينيها مباشرة. تحيّيه، وتسأله إن كان يقطن في الموصل، فيومئُ بالإيجاب.

«تعلمُ، سألَتْ، أنيّ غير مكلّفة بشؤون اللاجئين. أعمل لأجل المتاحف العراقيّة».

يرمقها بعينين تحملان تعبيراً أقربَ إلى من سيعترف بذنب.

«أسكن قُبالة المتحف، قال بصوت رقيق. كان الحارس يعطيني المفتاح أحياناً لأفتحَه حين يعلم أنّه لن يتواجدَ في الصباح. ورغم نُدرة حدوث ذلك، إلّا أنّ ثمّة ما كان يحول أحياناً دون تواجدِهِ...

ـ أتعرف شيئاً عمّا فعلوه؟

ـ رأيتُهم عند وصولهم... من نافذتي.

ـ أكنتَ لا تزال في الموصل عند قدومهم؟

ـ أجل. غادرتُ في الليلة الأولى. حالفني الحظُّ. بات الأمر الآن أشدَّ صعوبةً. غير أنّ ولدي بارع وقد وجد طريقة للخروج في الليلة الأولى.

ـ المتحف...؟».

لا تجرؤ على التصريح بسؤالها. يرمقها الرجل ويستأنف قصّته.

«وصلوا بثلاث سيّارات دفع رباعيّ مزوّدة بمكبّرات صوت. أعلنوا أنّهم استولوا على المدينة، وأنّ الأعمال في هذا المتحف كافرةٌ، واقتحموه بأعداد كبيرة. تناهى إلى سمعنا صوتُ جلبةٍ هائلةٍ من الداخل. أعتقد أنّهم حطّموا كلّ شيء...

ـ هل رأيتهم يُخرجون قِطَعاً من المتحف؟

ـ لا».

يتردّد برهةً. ثمّ يردف، بصوت يشوبه بعض الخوف:

«أمّا أنا، فأخذْتُ هذه». ويخرج من جيب سترته لفافة قماش صغيرة يضعها على الطاولة. تنظر إليه، فيخفض بصره. تفرُد اللفافة بتمهّلٍ، وتجد فيها قِرطاً من العهد السومريّ...

«ذهبتُ مساءً إلى هناك. كان الحرّاس لا يزالون في الجزء الأماميّ من المبنى إلّا أنّي أعرف طريقاً يُفضي إلى خلف المتحف ومنه إلى قاعة الاجتماعات. لم أصلْ قاعة المتحف. كنت خائفاً جداً. ولكن في الممرّات، كان ثمّة الكثيرُ من شظايا الأواني. وهذا... أخذته. ليس من أجلي. أتفهمين؟ ولكنّني قدّرْتُ أنّه لا ينبغي أن يبقى هناك...».

تشكّره. تؤكّد على أهميّة ما فعله. تكرّر أنّه حسنٌ ما فعل مُمتدحةً شجاعته. ينهض، لا يزال مُحرجاً بعض الشيء، ثمّ يختفي دون أن يطلبَ شيئاً.

طلبَ قهوة بيضاء. جلس على شرفة حانة صغيرة قبالة المتحف تماماً. يترقّب كلَّ عابر يمرُّ، وكلّ سيّارة تظهر. أرهف السمع إلى الحديث الدائر على الطاولة المجاورة، بين رجلين مسنّين قليلاً، إلى أن نهضا، وحيّيا

صاحب الحانة ومضيا. يحاول الاستمتاع بهذه اللحظات إذ يعلم أنّ وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يتسنّى له أن ينعم بلحظات هادئة كهذه، غير أنّ جسده متوتّر منذ الآن. يستذكر في ذهنه أبياتاً لمحمود درويش ليدفع عنه اللحظة التي سيعود فيها ثانيةً محترفاً في جهاز المخابرات الفرنسيّة، العميلَ الذي يُكلَّفُ منذ عشر سنوات بمهمّات التصفية، هنا، في الشرق الأوسط، أو في الساحل الإفريقي. «أَتموتُ في بيروت...» ولكنّ التتمة غابت عنه. ذهنه مأخوذ بالعابرين. يشعر بالتوتّر يعلو في داخله. يفتّش أكثر في ذاكرته: «بيروت / ليلاً... لا ظلامَ أَشدَّ من هذا الظلامِ»، ويتذكّر محمود درويش الذي ذهب ليراه، في إحدى المرّات التي مرّ فيها الشاعر الفلسطينيّ بباريس، في فندق ميدسون، أمام كنيسة سان جرمان دي بري. وجده في البار بمفرده. لابدّ أنّ الساعة كانت نحو الحادية عشرة صباحاً. قدّم نفسه، وكان قد تردّد: هل يجب اختراع هويّة ما، كأنْ يقول له إنّه بائع كتب، أو أستاذ أو شيء من هذا القبيل؟ لا يزال يتذكّر اللحظاتِ التي اقترب فيها منه، والنظرةَ التي رمقها به ذاك الرجل، عندئذٍ أدرك أنّه لن يكذبَ، قال له، وهو يمدُّ يده مصافحاً: «أستاذ درويش؟ أعمل لدى المخابرات الفرنسيّة... ولكنْ أودُّ أن أعرف إذا كنت تقبل التحدّث معي حول الشعر لبرهة قصيرة؟»، والرجل، آنذاك، لم يرتعدْ حتّى لم تظهرْ عليه علامات الدهشة. اكتفى بالإشارة بيده إلى المقعد المقابل له، فجلس عاصم وتحادثا. «إذا كانَ هذا الخَريفُ الخَريفَ النِّهائيَّ، فَلنَعْتَذِرْ عَنِ المَدِّ والجزْرِ في البَحْرِ...» تكلّما دون أن يسأله درويش عمَّنْ يكون. إلّا أنّه في لحظة الافتراق، حين تصافحا، قال له الشاعر الفلسطينيُّ الجملة هذه، مُحدّقاً في عينيه: «لا تدع العالم يسرق منك الكلمات». يعود إلى رؤيته في ذلك المكان، بتلك الملامح الحجريّة، إنّها المرّة الأولى التي يعود فيها للتفكير بذاك اللقاء الذي حدث قبل سنين. وعليه الاعتراف بأنّه ترك العالم يسرق منه الكلمات. لم تكن حياته تدور إلّا حول أفعالٍ. الفعل الذي يستولي على كلّ شيء، ولا يترك مكاناً لما عداه. الفعل الذي بنشوته وكثافته يجعل كلّ شيء باهتاً بالمقارنة. ماذا نفعت، الكلمات،

وسط ذاك الحشد بين سرت ومصراته، في الوقت الذي كان يشدّ فيه على مسدّس 9 ملم، مُتأهباً للإطلاق إذا ما أفلت الوضع عن السيطرة، ووجه القذّافي، هناك، تفصله عنه بضعة أمتار، يبين ويغيب تبعاً لتموُّجِ الحشد؟ ماذا نفعتْ، ولم يعد أحد في المقابل يسمع سوى الصرخاتِ، وأصوات الأعيرة الناريّة، بهجةِ الحشد المتوحّشة؟ لم يعد أحد في حالة أن ينطقَها أو يسمعَها، والقذافي أشبه بملاكم طُرِحَ أرضاً أو امرأة معنّفةٍ. صرخاتُ الحشد المتدافع فقط كانت تُسْمَعُ وطلقات الكلاشنكوف في الهواء احتفالاً بالقبض على الدكتاتور. يشعر أنّه سيفقد الكلمات مُجدّداً. بعد بضع دقائق، سيظهر أحد ما، مُسلّحٌ على التأكيد، ويأخذه إلى المكان الذي يختبئ فيه جوب. الخطر مُحدِق. عليه أن يبقى متوخّياً الحذرَ. يمكنهم أن يقرّروا قتله، على هذه الشرفة، ليقولوا لفرنسا إنّهم لا يريدونها، وبأنّهم فهموا جيّداً بأنّ المخابرات الأمريكيّة هي التي أرسلته، أو ببساطة، لأنّ جوب مجنون ويريد حرقَ كلّ ما حوله. يجب عليه أن يكون متنبّهاً ومتأهّباً. لم يعد ثمّة مكانٌ للكلمات رغم أنّه، يصارع، لا يريد تركها تغادر. هو يعلم أنّه حين يحملها في داخله يكون أكثر شبهاً لنفسه، وعلى أيّة حال أقرب إلى حقيقة العالم. لا يزال يتراءى له وجه درويش، يتذكّر هذا الشطر، «وطني حقيبة»، فينبثق وجه في ذهنه، ينضاف إلى وجه الشاعر، وجهُ المقاتلة الكرديّة الشابّة، شافين، عندما رآها للمرّة الأولى، أمام مدخل مخيّم كوركوسك حيثُ مرَّ ليأخذها بالبيك آب، شافين، واحدةٌ من المجموعة التي كان مُكلّفاً بتدريبها، والتي أجابته «لأجلهم» حين سألها من أجل مَنْ كانت تقاتل، وهي تشير إلى خيام اللاجئين. حينئذ حسد فيها تلك القوّة. هو، من أجل مَنْ كان يقاتل؟ من أجل مصالح فرنسا؟ بلى. إلّا أنّ هذه المصالح كانت تتبدّلُ مراراً... سبق أن كُلّفَ بحماية القذافي قبل أن يجد نفسه على طريق سرت في جهة الحشد الذي كان يصرخ لذّته الهمجيّةَ إذ أمسك بالطاغية أخيراً. أمّا شافين، فلم تكن تتردّد. كان لها وجهُ الظّفر. قال في سرّه: إنّه يحسدها لأنّها حتى لو لم تفلحْ في الحدّ من زحف داعش، حتّى لو سقطتْ ذات يوم برصاص العدوّ، ليس

وارداً أن تخسرَ. في داخلها شيء لن يُلطَّخ أبداً، لن يُهزمَ البتّة. ما تُحارب من أجله هو عوائل تلزُّ على بعضها في عتمة الليل تحت الخيام، وسط أنفاس الدفء الإنساني ورائحة فحم الحطب. بينما هو، متى كان بوسعه القولُ إنّه كسبَ؟ لقد أنجز مهمّاته، بنجاح. تمّ تصفيةُ الكثير من الرجال. ولكن هل كسِبَ حقّاً؟ الكلماتُ هجرته. في كلّ مرّة اضطر أن يستغرق في الفعل، كانت القصيدة تصمتُ ودرويش يرمقه، من أقاصي ذاكرته، في فندق مديسون، ويشعر أنّ عليه مجدّداً القبول بتركها تُغادر، الكلمات، لأنّ سيّارة مسرعةً تندفع للتو، وتركنُ أمامه على نحو جافّ. يخرج منها رجل، دون أن يخفيَ المسدّس الأوتوماتيكيّ الذي يحمله بيده. يتلفّتُ يمنة ويسرةً، ثمّ يفتحُ الباب الخلفيّ ويشير إليه بالصعود.

يستسلم لفكرة ترك لاليبلا. يجب مواصلة التقدّم، وأن يتخفّى في بلده. لقد انتصر العدوّ. ستزحف القوّات الإيطاليّة قريباً إلى أديس أبابا. متى سيعود إلى هنا...؟ يتبادر إلى ذهنه، في بعض الأيّام، احتمال تنظيمُ مقاومة شعبيّةٍ في الداخل، وأن يسلك سبل المقاومة تدريجيّاً. لكنّه يعلم بالحاجة الماسّة لوجود صوت سياسيّ لإثيوبيا وعلى عاتقه هو إيصاله إلى أوروبا. فإذن يتقدّم، بعِناد، ويصل إلى مجدله[1]، ثمّ فيتش. هناك، خمسُ سيّارات وخمسُ شاحنات بانتظاره. أخيراً يستطيع الجلوس والتقاط أنفاسه. إنّه هارب في بلده. هل سيغادر حقّاً؟ سيكون أوّلَ ملك يترك شعبه. حين يصل أديس أبابا، يشعر بأنّ السؤال لم يعد وارداً. ما من خيار آخر. ثمّة جنون في جوّ العاصمة، يقول له جنرالاته بأنّ الرجال تفرّ من الجيش، ولم يعد أحد راغباً في القتال. يتكلّم مسؤولُو الشرطة عن مشاهد النهب الآخذة بالازدياد. لا ينبغي البقاء هنا. أصوات الأعيرة الناريّة تُسمَعُ في وضح النهار. أديس أبابا تغرق في الذعر، تجمح، وتفقد صوابها. ما عاد سيّداً في مدينته. فيرحل إذاً، مُتخلّياً عن كلّ

1ـ أمبا مريم (Amba Mariam) الحالية.

شيء: القصر، الشعب الأثيوبي، أحلامه في المقاومة المسلّحة، رعاياه الشجعان، يرحل مثل ملك مخلوع، مهان من العالم الذي تركه يموت دون أن يتحرّك، يرحل مع زوجته إلى جيبوتي ويقلع عن الكلام، يعجز عن النطق بحرف، يعتريه الخجل، هو، سليل الظافرين في عدوة، يعتريه الخجل ويصمت لأنّ الكلمات، في هذه اللحظة، هجرتْهُ.

يقف سوليفان سيكو أمام شاهدة القبر ويتأمّل الاسم المحفور عليها: جاسبير كوب. من الغرابة التفكير بأنّ هذا الرجل الذي أنقذ حياته ماتَ وبأنّهما لن يلتقيا بعد الآن أبداً. يحاول تخيّلَ جاسبيرٍ كوب وهو يذهب إلى قاعدة Creech [1] الجويّة كلّ صباح، وهو يحتلّ مكانه إلى جوار زميل في قمرة القيادة عازلاً نفسه على هذا النحو، لبضع ساعات، عن بقيّة العالم... لا، ليس عن بقيّة العالم، وإنّما عن الجادّة الهادئة فقط التي يعيش فيها، عن السوبرماركت، والأطفال، مستغرقاً في عالم مؤلّف من صور كاميرا، من مناظرَ مأخوذةٍ من الجوّ، من مشاهدَ مكبّرةٍ وأوامر عبر راديو. يحاول تخيُّلَ جاسبير كوب وهو يُمعِن النظر بصور تأتيه من آخر العالم متأخرةً بضع ثوان، جاسبير كوب الذي يحلّق يوميّاً في أفغانستان ثمّ يعود إلى منزله عند المساء. يحاول تخيُّلَ جاسبير كوب وهو يقبّل أطفاله في أسرّتهم، وهو يحوم فوق جبال طالبان، وهو يمضي لشراء حوائجه من السوبر ماركت، وهو يقصف مركباتٍ على طرق مستقيمة أو يفجّر كهوفاً تخرج منها أجساد مبهمة. ما الذي ظهر له من باحة مدرسة كالافغان؟ ما هي أواخر الصور التي أرسلتها له شاشته قبل الانفجار؟ هل رأى طفلاً يركض خلف كرة؟ هل حاول الرجوع عن أمره بالقصف أم إنّه لم يستطع سوى أن يتابع بنظره مرتعباً تقدم Hellfire [2] الذي سينفجر في

1ـ كريش (Creech): قاعدة جويّة في ولاية نيفادا الأمريكيّة، وتنفذ منها عمليات عسكريّة في ميادين القتال في أفغانستان والعراق.

2ـ صاروخ أمريكي يُطلق من طائرات دون طيّار. (حاشية من الأصل الفرنسيّ)

هذا المبنى ويجعلُ منه مجرماً؟ هل يمكن القول إنّهما كانا معاً في ذلك المكان، هو، منكبَّ الوجه على التراب، مجروراً على الأرض من قبل حشد غاضب من الرجال، مُبتلعاً التراب واللكمات، بينما جاسبير كوب يطفو في الأجواء، مشتملاً المنازل بنظره، ثمّ يحرّر الموت دفعةً واحدةً مُطلقاً صاروخه على المدرسة التي سيغدو كلّ ما فيها بعد برهة دخاناً؟ هل كانا معاً؟ الرجلُ الممدّد تحت شاهدة القبر هذه، انتحر لأنّه أطلق في ذلك اليوم. كان كوب يحتفظ بالسرّ لنفسه. هل يمكن أن يموت المرء لأنّه على مسافة بعيدة جداً من ميدان المعركة؟ لأنّه يقتل وهو ينتقي علب اللبن؟ لأنه في اللحظة التي يُقبّل فيها جبين أطفاله لكي ينعموا بنوم هانئ يُحدِثُ انفجاراتٍ بأطراف أصابعه؟ هل يمكن أن يموت المرء جرّاء ذلك، لأنه بقي سالماً، لأنّ الأذى لم يمسسه، لم تطلْهُ الضربات، ولا الصرخات، لا الدخان ولا الركام؟ هو، سمع ولولة نسوة كالافغان، بينما لم يسمع جاسبير كوب، في ذلك اليوم، سوى الموسيقى اللطيفة لسوبر ماركت على طريق العودة وصوتَ زوجته التي سألته ربّما كيف أمضى يومه. وإن فعلتْ ذلك، فبماذا أجابها؟ هل قال لها بأنّه قد أنقذ جندياً أمريكيّاً أوشك أن يُعدَمَ ميدانيّاً؟ هل أتى على ذكر ذلك فقط أم إنّه قال أيضاً بأنّه محا مدرسةً عن الخريطة وبأنّ أمّهات كالافغان سيقضين أعمارهنّ يبكين على هذا اليوم الملعون؟ يرمق القبر وهو يعلم بأنّ سرّه هنا، أمامه، تحت التربة الطينيّة لهذه المقبرة الأمريكيّة، ولسوف يبقى مدفوناً فيه إلى أن يقرّرَ هو، سوليفان سيكو، البوحَ به. سيختار الزمان والمكان المناسبين. ويعلم بأنّه حين سيفشيه، سيكون بمقدور جاسبير كوب أن يصرخ ارتياحاً في قبره أخيراً، أن يصرخ مُفرّجاً عنه العار الذي غمره، أن يطرق على تابوته، وسوف يكون هذا جيّداً. سوف يشاطر نسوة كالافغان عذابهنّ وعندئذ فقط يمكن القول إنّهم جميعاً في ذلك اليوم كانوا بالفعل في شمال أفغانستان، هو وجاسبير كوب والأمّهاتُ الثكالى يتقاسمون اللسعة ذاتها ويئنّون جرّاء الهزيمة ذاتها.

يغادر العالم الذي يألفهُ. يغادر إفريقيا مُطأطِئ الرأس، مُدارياً وجهه ليبكي، بين جدران مقصورته الضيّقة، في الجهة الخلفيّة من المركب Enterprise الذي يشقُّ عُباب البحر تحت العلم البريطانيّ ويقلُّه إلى القدس. يغادر هيلا سيلاسي بلاده دون أن يعلم إن كانت ستُتاح له العودة إلى رؤيتها يوماً. خسر الحرب، ولكن ما فاق ذلك بكثير أنّه أُهينَ بين مجتمع الأمم. لم يبادرْ أحد لمدّ يد العون له. أوّلُ ملك بين الملوك يُغادر أرضه بدل أن يموتَ في ميدان المعركة ولا يستطيع القولَ إذا كان هذا الرحيل يجعل منه ملكاً أجبنَ من سابقيه أم أشجعَ. يُصاب بالدُّوار، بتشنُّج المعدة. الساحلُ يبتعد، ومعه، سلطتُه، وآمالُه. سيكون من الآن فصاعداً ملكاً مخلوعاً، في المنفى. بينما إيطاليا تحتفل بانتصارها، وعلى الأرجح، شوارع أديس أبابا تُدمّرُ. يُدرك ما تعنيه الفوضى والخوف، إطلاقُ أعيرةٍ ناريّة، جرجرةُ أجساد على الأرض. النهبُ، القتلُ، وتَصفيةُ الحسابات في جُبن الظلام. لم يعُدْ لإثيوبيا إمبراطور. إثيوبيا تفقدُ صوابها. لذا يشعر، هو أيضاً، أنّه يغوص في الظلمةِ، ظلمةِ المنفى والبرد وأماسي اليأس حيثُ ولا كلمةَ عزاء تنفعُ. أُوصِدَ العالم فجأةً من حوله ولم يعدْ سوى رجل عديمِ الشأن، قلقاً لمعرفة متى ستُتاحُ له العودةُ لرؤية بلده وإذا ما كان حينَها سيظلُّ قادراً على الوقوف على قدميه.

تعود إلى مكتبها، تجلس وتبكي. تفكّر بتلك القطع: ما سيُنقَذُ منها، وما دُمّر، والذي سيختفي لأعوام ثمّ يظهر مجدّداً في مزاد علني في لندن أو سنغافورة. وتفكّر ببول إميل بوته ثانيةً، مكتشفِ دور شاروكين، وبجميع ما قد نُبِشَ، وأُدرِجَ، ووضِعَ في صندوق. بدايةً من قبله، ثم ممَّن خَلَفَهُ: فيكتور بلاس. بكلّ تلك الحمولات الخارجةِ من النسيان، من جوف الأرض، والتي ستُلحَقُ بأروقة اللوفر. لاسيّما حمولة 1855. مئتان وخمسة وثلاثون صندوقاً نزلوا دجلة لغاية الوصول إلى بغداد. لكنَّ الحمولةَ هُوجِمَت والصناديق غاصتْ في قاع النهر. لم يُنقَذْ منها

سوى ستّةٍ وعشرين. فيما لا يزال مئتان وتسعةُ صناديقَ ترقد في المياه الرماديّة لدجلة، نُبشَتْ من النسيان، وما هي إلّا برهةٌ قصيرةٌ، حتّى سارعت للغوص فيه مُجدّداً... تعاودُ التفكير بكلّ ذلك. بهذا الصراع الذي يبدو عديم الجدوى إلى هذا الحدّ، الحفاظ على قطعٍ فيما العالَم يحترق في الأرجاء ويمزّقُ بعضه بعضاً، هذا الصراع لا بدّ محكومٌ عليه بالفشل، الذي يحاول أن يقتلع من الفناء ما سيرجعُ، حتماً، إليه. فيخطر لها عاصم الذي أعطتْه تمثال بيس. أين يكون الآن؟ هل بوسْعِها أن تتخيّل أنّه بعدَ أن وجد التمثالَ لحظة مغادرته زيوريخ، أخرجه بعناية وداعبه كأنّه يداعبُ الجزء المقدّس من الزمن؟ هل بوسعها أن تتخيّل أنّه ذهب إلى لبنان وهو يعاهد نفسه بأن ينصَرف إلى التمثال حين يفرغُ من مهمّته؟ هل بوسعها أن تتخيّلَ أنّه يمضي في سيارة، في بيروت، غائصاً في الخطر؟ بأنّه، ربّما، يفكّر فيها كما تفكّر فيه؟ تنظر إلى القرط السومريّ، تلمسُه، محاولةً تخيّل المرأة الأولى التي ازدانت به، وهذا الخيط المدوّخ طوله والذي يصلها اليوم، هي، في هذه المدينة التي في اضطراب، مع ساكنة دور شاروكين البعيدة، وتعلم بأنّ القطعة تنظر إليهما كما ينظر الآن بيس، الإله القزم، إلى الرجل الذي أحبّته، أينما كان، ويصْحَبهُ في الأخطار.

يصعد السيّارة. كلُّ الذي حصل، منذ موعد زيوريخ مع أوغست ودان كوفاك، أوصله إلى هذه اللحظة: لحظةِ جلوسه في المقعد الخلفيّ للسيّارة، راضياً بأنّ يضع حياته بين أيدي أولئك الرجال والنساء الذين لا يعرفهم، والذين يرمقونه بتوجُّس. يفتّشه أحدهم، الذي له ملامحُ من أمريكا الجنوبيّة، يرفع دون مراعاةٍ قميصَه ليتأكّد أنّه لا يضع سلاحاً في حزامه. يجري كلُّ ذلك بسرعة كبيرة. ما عاد للكلمات وجود. لا أحدَ يتكلّم. في المقعد الأماميّ، إلى جوار السائق، شابّة عربيّة تستدير بين الفينة والأخرى لتتأكد أنّه لا يزال موجوداً. تنطلق السيّارة. لا يعتريه خوف. فعل ذلك مراراً. ولكن يبدو عليه أنّه يترك عالماً يعرفه، عالم

المهمّات، الاغتيالات المحدّدة، العمليّات السريّة، ليغوصَ في شيء آخر. ينتابه شعور أنّه يتوغّل في أراضٍ موحشة، مخلّفاً وراءه مصابيحَ المخيّم الأخير تتلألأ وتاركاً لصمتِ عالَمٍ حيوانيّ عميق أنْ يغمرَه بالكامل.

–V–

Al–JNAH STREET

لم يعصبوا عينيه، ولم يكلّمْه أحد. يسترق النظر إليهم: لا بدّ أنّ الشابّة التي أمامه هي ماريا كازال الكولومبيّة. لديْها وشم على ساعدها: صليبٌ أسودُ بخمسة أفرع. ولا بدّ أنّ الرجل الذي على يساره الذي فتّشه هو حسن باهان. يتذكّر إحدى الصور التي عرضها له دان كوفاك في مقهى زيوريخ. لا يُفلح في التعرّف على البقيّة. «إلى أين نذهب؟» سأل بالعربيّة. يرمقه السائق عبر المرآة الأماميّة. تنقضي لحظاتٌ طِوال قبل أن يجيبه أحد، ثم يقول السائق: «جوب بانتظارك». تسلك السيّارة اتّجاه الجنوب وتجتاز الشيّاح. يُدرك أنّه سيكون عُرضةً للخطر كلّما أوغلوا قُدماً. الحيُّ الشيعيّ لحارة حريْك ليس بعيداً. هل يُقلّونه إلى هناك؟ تواصل السيّارة تقدُّمها ويهبط المساء على بيروت. يشتمّ رائحة تعرُّقِ الرجل الجالس إلى يمينه. يتلامس ذراعيْهما. هل يعرفون من هو؟ هل جوب نفسه توقّع مَنْ يكون؟ وإن كان قد توقّعَ، فهل أخبرهم بذلك؟ لا يبدو عليهم التوتّر. بغتةً، تلتفت الكولومبيّة إليه، وتعلن له، بعينين متّقدتين، وبإنكليزيّة تشوبها لُكْنَة واضحة من أمريكا الجنوبيّة: «حين يتكلّم... سوف ترى...». قالت له ذلك بشغف طفل كأنّها متلهّفةٌ لأجله، كأنّها تحسده على أنّ بوسعه لقاءه للمرّة الأولى. ما الذي يوحّدُ هؤلاء الرجال والنساءَ المتنافرين إلى هذا الحدّ؟ مقاتلون قدماء من FARC ومناضلون فلسطينيّون. مصريّون ثوريّون أو سوريّون فارّون من نظام بشار الأسد. أهو طُعْمُ المربَح؟ إتجارهم المحدودُ بالمهرَّبات؟ أم متعةُ السيطرة، هكذا، في مدينة تغدو فيها بنادقهم الكلاشنكوف بمثابة سند ملكيّة أو جواز سفر؟ تُبطِئُ السيّارة وتترك الطريق العريض الذي كانوا يسلكونه. يلاحظُ لافتةً إلى اليسار،

«Welcome to Haret Hreik» هل سخريّةً كُتبتْ بالإنكليزيّة؟ يا لهذه المدينة الغريبة... سيغوص في عمق الحيّ الشيعيّ، أو «Hezbollahland» كما يُقال هنا. كيف تمكّن أمريكيٌّ مصحوب بفرقة صغيرة من مرتزقةٍ يتحدّرون من شتّى أصقاع الأرض أن ينغرسَ في معقل حزب الله؟

باتت كالافغان بعيدةً. إنّه في صدد مهمّة جديدة. فقد عاد وانضمّ مُجدّداً إلى صفوف Seal Team6 إنّه سوليفان سيكو ثانيةً، ومحشور من جديد بالحوّامة المندفعة، في الليل الدامس، نحو الخطر. مثلَ أيام كثيرة سبقت في حياته. مُحيتْ آثار الجروح. إنّه وسط أفراد وحدته وعدا ذلك لا شيء يهمُّ. ليس في الحوّامة خوف وإنّما تركيز فحسب. يغوص كلُّ فرد من الوحدة في نفسه، ويتأكّد تلقائيّاً من عتاده، يشدُّ للمرّة الأخيرة سيرَ الخوذة أو يتأكّد من عمل نظّارة الرؤية الليليّة، الكثير من تلك الحركات التي تحجبُ التفكير بأيّ شيء آخر، وتُبعِدُ العالم الخارجيّ. اجتماعُهم الأخير عُقِدَ قبل لحظة الانطلاق تماماً ليحدّدوا لهم الشخصَ المُستهدفَ. فيما بعد توزّعوا على حوامتين وهم الآن متّجهون مباشرة نحو أبوت آباد. ليسوا سوى أجسام، وسط اهتزازات آلة، يمضون قُدماً باتّجاه باكستان. وبعد أن يصبحوا في المنطقة، سيطوّقون منزلاً حفظوا مخطّطه عن ظهر قلب. ولسوف يتوجّب عليهم التصرّف بسرعة. إذ سيكون ثمّة نساء وأطفال في المكان، وحرّاس شخصيّون واحتمالٌ واردٌ حدوثُ تبادل إطلاق نار. كلّ الاحتمالات واردة. إنّهم مجهّزون للتعامل مع أيّ طارئ. يكرّر سوليفان سيكو هذه الحركات التلقائيّة، متعجّلاً، كما جميع الرجال من حوله، للقفز في الظلام.

الشوارع غيرُ مضاءة جيداً. متاهةٌ من أسلاك كهربائيّة تؤلّف ما يشبه عرائشَ سوداً تسقف شرايين الحيّ. «أتعرفينه منذ وقت طويل؟» يسأل عاصم المرأة.

«لا داعيَ لأنْ يراه المرء مرّاتٍ كثيرة ليشعر أنّه يعرفه منذ زمن طويل»، أجابت مع ما يشبه ابتسامةً غامضةً.

ثمّة إعجاب في صوتها. هل تعلم بأنّ جوب كان قديماً من وحدات Seal Team6؟ وهل تعلم بأنّه لو طُلِبَ من سوليفان سيكو في ذلك الوقت، حين كانت هي ضمن FARC، أن يُودعَ رصاصة في جمجمتها، لكان فعل ذلك دون أن يرفَّ له جَفن، إذ تلك كانت مهنتهُ: تصفيةُ أعداء أمريكا؟ لا يمكنُ أن يكون ذلك خافياً عليها. فما الذي يجمعُهم إذاً هي وبقيّة مَنْ في السيّارة؟ يتابعهم بنظراته. بلا ريب هؤلاء الموجودون هنا، إلى جواره، يرسمون نوعاً من بورتريه للرجل الذي يوشك على لقائه. كيف بوسعه أن يُوحّدَ أشخاصاً متنافرين إلى هذا الحدّ؟

تجتاز السيّارة حارة حريك. تتقدّم الآن أبطأَ. أخرج الفلسطينيّ الذي على يساره مسدّساً 9ملم ووضعه بين ركبتيه وشدَّ عليه. إنهم هنا ليسوا في منطقتهم. جرى تقبُّلهم. لكنّهم يدركون جيّداً بأنّه يمكن للحيّ أن يُطْبِقَ عليهم مثل أنياب إسمنتيّة، تبعاً لمشيئة اتفاقات سياسيّة وتحالفات وتحالفات مُضادّة.

يدرك هنيبعل، رغم التفوّق العدديّ الهائل للرومانيّين، رغم تعب جنوده، بأنّه أمام إحدى تلك اللحظات التي تصنع التاريخ. يتصبّبون عرقاً تحت الخوذ والأدرع الجلديّة. الشمس تُرهق الألوان وتبدو أنّها تُرعش الأشجار. البحر، ساكن في البعيد. وما من نسَم يحرّك الهواء. الأرضُ نفسها تلتهب، تزلق السحالي تحت الحجارة، مستشعرةً على الأغلب وقعاً غير معتاد لأقدام عشرات آلاف الرجال، وتلبث جامدةً. ينظر إلى الصفوف العدوّة: لا بدّ أنّ الرومانيّين يبلغون ضعفيْ عددهم. يتناوبون القيادة كلَّ يوم فيما بينهم. وفارو هو من يحمل الراية اليوم. ذلك لن يغيّر شيئاً، إذ إنّهم يحاربون دوماً بالطريقة ذاتها: يضعون المجنّدين حديثاً في المقدّمة كي لا تراودُهم فكرةُ الهرب، وقدماءَ المُحاربين في المؤخّرة.

اليوم، كلّ شيء سيكون مختلفاً. يعلم بأنّه، إذا أراد هزيمة روما، فسوف ينبغي عليه أن يقلِبَ المجرى الطبيعيَّ للأشياء، كما فعل الإسكندر أمام داريوس في موقعتي إسوس أو في غوغاميلا. ينبغي أن يكون مجنوناً. وإلّا ستتوالى المعارك - يربح حيناً ويُهزم حيناً آخر- وفي المحصّلة، ستتوازن القوّتان. ينبغي أن يرفعَ سقفَ المجازفة. لذا يطلب تمديد صفّ المُقدّمة. لا بدّ أنّ الرومانيّين يترصّدون هذه المناورة. «ليمدّدْ أكثر» قال. قادة جيشه ذاتهم يشعرون بالقلق: يُحتَمل أن تؤديَ المبالغة في تطويل صفّ المواجهة إلى انقطاعه، ووقتئذ، سيكون الاندحار. بلى. إنّها مجازفة. غير أنّه يطلبُ بأن يُمدّدَ أكثر. الصفّ الذي ينتظم به القرطاجيّون الآن أطولُ بكثير من صفّ المقدّمة الرومانيّ، لكنّه أرفع وأشدُّ هشاشةً. ترتسم ابتسامة على ثغر فارو. لا بدّ يفكّر بأنّ هنيبعل يحاول التعويضَ عن قلّة عدد رجاله. «سيهجم أولاً سلاحُ الفرسان الثقيل ويضرب الوسط، قال. يجب تمزيق صفّهم». ولا ينتابه شكّ بأنّ هذا ما سوف يحدث، مُدركاً بأنّهم يفوقونهم عدداً. ويعتقد بأنّ هنيبعل يمدّد صفّه إلى الأقصى ليتدارك نقطة ضعفه هذه. لا يرى عبقريّة المناورة لأنّه لا يرى الجنون. يُسْقِطُ على هنيبعل أفكاره وتوقّعاته التي يمكن أن يفكّرَ فيها فيما لو كان مكانه. بحسب المنطق ليس أمام القرطاجيّين أيُّ خطّة سوى محاولة المواجهة، متضرّعين بألّا يُكنسُوا بهجمة سلاح الفرسان. ينبغي اختراق صفّ المقدمة. هذا يُوجز الأمرَ برمّته. وفارو منهمكٌ لأجل تحقيق هذا الهدف. يملؤه الحبور بأنّ المعركة تنشب في اليوم الذي تسلّم فيه زمام القيادة العليا، لأنّ اسمه حينئذ هو الذي سوف يتردّد في مجلس الشيوخ.

يُصدِرُ هنيبعل أوامره الأخيرة. إنّه هادئ. يسأل عن اسم النهر الذي يجري على مقربة منهم، فيُقال له: «الأوفانتو». حسناً. يعلن لرجاله بأنّ مَهِرْبعل مَنْ سيقود سلاح الخيّالة الخفيف، بينما سيتولّى هازدروبال قيادة سلاح الخيّالة الثقيل، وهو سيبقى في الوسط مع المُشاة السلتيّين والإسبان. المعركة ستحسم هنا. في لحظة إعطاء أمر بداية المعركة،

وبينما كان القنصلان الرومانيّان فارو وبولوس إميليوس يتبسّمان متلهّفيْن لسحق عدوّهم، يشعر، هو، بأنّ هذا اليومَ هو أحد الأيّام التي يرتبط فيها مجرى الأحداث برأفةِ السماء. هل هو التاريخ مَنْ يستحوذ على مجرى الأحداث ويكتب، لبرهة وجيزة، قدَرَ العالم، مُحبِطاً الخططَ ومُغافِلاً الأحياء؟ أم هو الحظّ؟ يهجم الرومانيّون، مندفعين بكامل قوتهم. يريدون الانتقام من هزيمتي تيسين وتراسيمين، يريدون محوَ الخوف الذي ينخر روما منذ أشهر. يهجم الرومانيّون ويبقى هنيبعل ثابتاً في مكانه في الوسط حيث يريدون إحداث الاختراق. يجب تلقّي الهجوم وعدمُ قطعِ الصفّ. ينظر للمرّة الأخيرة إلى هؤلاء الآلاف الأربعة من المرتزقة السلتيّين والإيبريّين ذوي الملامح الغليظة، والعيون الفاتحة، الذين يثبّتون أقدامَهم بالأرض، وعيونهم شاخصة بخوف إلى الفرسان تقترب نحوهم. إنّهم هم، اليوم، مَنْ يُحدّدون وجهة التاريخ، هم الذين ليسوا قرطاجيّين حتّى. الارتطامُ مفزعٌ. تدخل الأحصنةُ الجدار الدفاعيَّ على نحو صادم وعنيف. أعدادُهم لا تحُصى... يصيح هنيبعل مُوعزاً لفرقهِ بالتراجع قليلاً. ينبغي تخفيفُ وقع الاصطدام والسماحُ للرومانيّين بالتقدّم. هنا تكمن الخطّة بمجملها: جعلُ فارون يظنُّ بأنّ الصفّ يتقهقر تحت هولِ الصدمة، وبأنّه أوشك على الانهيار، ليدفعَه إلى مزيد من التقدّم، أكثر فأكثر، ليحشرَ رجاله المندفعين يحدوه أَمل تمزيق الجدار في النهاية. على الغوليين أن يصمُدوا، مستندين إلى أحصنتهم، تروسهم مُشقّقة جراء اندفاع الأحصنة العنيف، عليهم أن يصمدوا، ويتراجعوا ليكونَ الفخُّ محكماً. وهذا ما يحدث. إنّها ابتسامة السماء، هنيبعل يشعر بذلك. في هذه الهاجرة المرعبة التي تُلهِبُ الخوذ وتزمُّ العيونَ، تتسلسل مُجريات الأحداث كأنّه هو من يشير للقدر على الدرب الذي ينبغي أن يسلكَه. يصمد الغوليّون وهم يتراجعون ببطء. فيما يتقدّم الرومانيّون وقد أعمتْهم قوّتهم. فلا يبصرون بأنّ خطّ الدفاع بقيَ متماسكاً. لا يبصرون بأنّهم أوغلوا كثيراً وأنّه الآن، بغتةً، لأنّ هنيبعل أمر بذلك، سوف تُطبق الأجنحة القرطاجيّة عليهم. وهذا الصفُّ الطويل المُمدّدُ إلى أقصاه،

والذي بدا منذ برهة في غاية الهشاشة، يطوّقُهم. وسلاحُ الفرسان الثقيلُ الذي يقوده هازدروبال يصطدم بهم مباشرة بعنفٍ مخترقاً جانبيْهم. يشحَبُ فارون. يُدرك الفخّ لكنْ بعد فوات الأوان. يتلعثم، يريد أن يتصرّف، لا يزال غيرَ مُصدّقٍ، يفكّر بأنّ الأمر لا يتعدّى نكسةً، وبأنّه سيكون قادراً على الاستدراك. لكن المعركةَ خُسِرتْ. فقد أخبروه للتوّ بأنّ بولوس إميليوس قتل. فيدركُ بأنّ كلّ شيءٍ تغيّر، وبأنّ نجماً قد أفل، بأنّه كُنِسَ للتوّ وبأنّ ليس اسمه الذي سوف يتردّد في مجلس الشيوخ غداً، وإنّما اسم هنيبعل، مشفوعاً بذعر رهيب.

سألتْ مديرَ المعهد إن كان بوسعِها زيارة قلعة أربيل. بدتِ المفاجأةُ عليه. مع أنّه كان قد عرض عليها الزيارة عند وصولها: «لا تتردّدي، إيّاك... دارا يعرفُ الموقع جيّداً ولدينا بعضُ الامتيازات...»، إلّا أنّ اقتراحه شكليّ نوعاً ما، فهو مقتنع بأنّه لن يتسنّى لها الوقت، والساعةُ الآن متأخرة ويبدو له هذا الطلب ليس في مكانه بعض الشيء، فيحاول ثنيَها باقتراح أنّ الأجدى لها الذهاب إلى المطعم، غير أنّها تصرُّ على موقفها بملامح تعود ـ دون فظاظة ـواجمة. فيقبل، ويُجري بعض الاتّصالات لكي يحضرَ من يُدعى دارا إلى المعهد. تنتظر بصبر. ويبدأ إحساس بالتعب يتسلّل إليها، فقد أمضتْ يومها بأخذ شهاداتٍ وكلُّها تُجمع على وصف الشيء عينه: الخوف، الوجه العميق للذعر بحضرة أولئك الرجال الذي يعني ظهورهم انكسافُ عالمنا. سوف يُحرق كلُّ شيء. أتوا ليسيطروا، ويستولوا على المدن، الأجسادِ، الأذهانِ. معلوماتٌ قليلة جمّعتها بخصوص المتحف إذ إنّ معظم ما قيل لها كان يخصُّ شؤوناً أخرى: العرض في شارع الموصل، الرايات السود المرفرفة، مكبّرات الصوت المعلنة عن الحياة الجديدة التي سوف ينبغي عيشها. بلادها تتفكّك: مُحتلّةً من الشمال وتتآكلها الفوضى في الجنوب. المدينة الموجودة فيها الآن، أربيل، لم تعد تريد أن تغدوَ

عراقيّةً. ينتظر العراقَ عمّا قريب مصيرٌ مشابه لما حصل في يوغسلافيا: بلد يتبدَّدُ. سوف ينبغي أن تعثر لنفسها، هي البغداديّة، على جنسيّة أخرى. بلدها يُمزّقُ مثل قماشة تُشدّ من جميع أطرافها. ولكن هل وُجِدَ هذا البلد يوماً؟ هذا البلد الذي رسمه، وتصوّره، ووضع حدوده كلٌّ من تشرشل ولورانس وغيرترود بيل؟ هل كان يوماً ما يتعدّى حلماً ببلد، موضوعاً بالقوّة في منطقة تجتاحها اضطرابات مختلفة، وحركات شتّى؟ هي في بلاد الرافدين، وهذا بلد وُجِدَ بالفعل. ولربّما هذا ما يدفعها لأن ترى هذا المساء، على نحو طارئ، قلعة أربيل. حين يركن دارا سيّارته عند قَدمِ الموقع ويشرعان بالصعود نحو الكتلة المُشرفة على الأسواق، ينتابها شعور بأنّها تُنزعُ من الفوضى والبكاء، مُخلّفةً وراءها السيّارات، وقصص الذعر، وكلّ ما يحترق من حولها، الأمرُ الذي يُضفي عليها حالةً من الارتياح. يحلّ المساء وتخفُّ وطأةُ حرّ النهار. يصلان أطراف المدخل ويبادر دارا بالكلام، راغباً باتّخاذ دور الدليل، لظنّه بأنّ هذا الدور هو المُنْتظَرُ منه: أن يشرحَ، ويُعلّقَ، ويقول ما يعرفه. تنظر مرّةً أخيرةً إلى المدينة في الأسفل، تراها حيّةً، مفعمةً بالنشاط، مكتظّةً بنزهات المساء، وثمّ تشير بيدها لدارا، كأنّها تقول له «لا شكراً» أو شيئاً من هذا القبيل، وتضيف بصوت خافت: «سأتجوّلُ قليلاً بمفردي...» لتفهمَه بأنّها لا تريد شيئاً، ولا تنتظر منه شيئاً، ثمّ تتوغل في شوارع هذه المدينة الصغيرة، الجاري ترميمُها، والخاليةِ مثلَ مدينة أشباح. ما إن تغوص في الصمت حتّى تشعر بالارتياح. بعد أن تصل وسطَ تشابكات الأزقّة، تحتجبُ مدينة أربيلَ عن بصرها ولا تسمع أدنى صوت. كما لو أنّها غرقَتْ في مكان آخر. تبدو الظلمة فيه أشدَّ حلكةً. تسير، تشعر بالوهن يتسلّل تدريجيّاً إلى أعضائها. شيءٌ ما في ربلتي ساقيها، في أطراف أصابعها، في فخذيها، تخور قواه. ليس إعياءً، وإنّما شيءٌ أبعد. إنّه المرض، تشعر بذلك، المرض الذي يستولي عليها، ببطء، دون رحمة. لا تريد التوقّف. تواصل سيرها، تجوب الشوارع الضيقة الخاوية لهذه المدينة الأشبه بجسدِ ميّتٍ، هذه المدينة المشيّدة بطابوق

طيني والتي ربّما تنتظر عودة الجيوش التي رحلت منذ قرون. كلُّ شيء ساكن. هل تتوغّل في الموت؟ إذا كان هذا ما تفعله فهي تفعله بسكينة. يخطر لها داريوس. لماذا هو بالذات؟ ربّما لأنّها تركت عند مدخل القلعة رجلاً يحمل الاسم ذاتَه، هذا الاسم العابر للعصور، كما القطعُ التي تحاول إنقاذها. داريوس المنهزم في غوغاميلا، داريوس، الذي فرَّ شاحباً أمام بأس الإسكندر وعبقريّته وجماله من ميدان المعركة، متخلياً عن زوجته وأولاده لكي يلجأَ هنا، في أربيل، قبل أن يتابع فراره نحو سمرقند. عرف تراب هذا المكان الكثير من المنهزمين الذين رأوا عالمهم يختفي واكتشفوا بذهول أنّه ما من أماكنَ للاختباء. تفكّر بكلّ عمليّات التنقيب التي جرت لمحاولة نبش الماضي – وفي العمق لماذا؟ هل لدى الأحياء وقتٌ لمعرفته، ذاك الماضي؟ أوليسوا مُنشغلين في مكابدة مشاقِّ الحياة يوميّاً؟ ورغم ذلك، أنقذ الرجل الكرديُّ المسنُّ الذي رأته ظهيرة هذا اليوم، بمجازفته بحياته، قِرطاً... لا تعرف إن كانت ستملك القوّة للرجوع، تشعر أنّ الأجدى بأن تجلس وتنادي طالبة العون، إلّا أنّها لا تفعل. تشعر بدوار، طنينٍ بأذنيها، ويضيق مجال الرؤية أمامها. تضع يداً على واجهة أحد المنازل الخالية، تحاول التنفّس بهدوء. تدرك أنّها شحبتْ في هذه اللحظة، إلّا أنّها تتماسك. تخاف أن تجلس فلا تستطيع الرجوع. لمن ستكون هذه المدينةُ بعد بضعة أشهر؟ يبدو أنّ لدى إقليم كردستان قدرةً عسكرية تمكّنه من إيقاف تمدّد الدولة الإسلاميّة، لكن مَنْ كان يتوقّع سقوط الموصل؟ ومن يعرف إذا كانت أربيل أيضاً لن تسقطَ يوماً؟ ترى هل سيغرز الرجال المسربلون بالسواد راياتهم فوق سطح المنزل الذي تستند عليه بهذه اللحظة؟ إمبراطوريات تنمو وتزدهر ثمّ تهوي. والتي ظنناها راسخةً للأبد تتفتَّتُ، وخلال بضع ساعات فحسب، ما عاد داريوس يعرف أين يفرُّ. هل ستموت؟ هل الجسد الذي يتفلّتُ منها، بما يعتريه من وهن يُشعرها بفقدان السيطرة على عضلاتها، إعلان لها بأنّها ستسقط؟ ما الذي ستكون قد أنجزتْه إذاً؟ ستكون قد صارعت طوال حياتها لأجل قطَعٍ عمرُها قرونٌ طويلة والتي

كان ينبغي إنقاذها من الفناء وتمريرُها من يدٍ إلى أخرى، كقِطَعِ مُفرطة الحساسيّة يتعاقب كلّ جيل بدوره على صونها. ولماذا ليس لهذه القطع الحقّ بالتراب، وأن تختفيَ في باطن الأرض؟ أليس هذا هو المصير الذي ينتظر النساء والرجال الذين يضجّون بالحياة في هذه اللحظة هناك في الأسفل، في أسواق أربيل، سواء أكانوا لاجئين أو غير لاجئين، عراقيّين أم سوريّين؟ أليس هذا هو المصير الذي ينتظرها هي نفسها: أن تختفيَ وتنسى؟ تحسُّ بقواها تخور. لا يزال أمامها متّسعٌ للتفكير بتمثال بيس الذي أعطاه لها مروان والذي دسّته بدورها في حقيبة عاصم مغتبطةً لفعلتها هذه، كأنّها تعيد وضعَ إحدى القطعِ تلك في دوّامة الحياة. ليس كما تفعل منذ عشرين عاماً من حفظٍ، وحمايةٍ، ودراسةٍ. كلّا، وإنّما إعادةُ إلقاءِ قطعة في بحر الصدفة. هل سيُحطَّم تمثال بيس؟ هل سيبيعُه عاصم عند تاجر أنتيكا؟ أم سيضيّعه أثناء إحدى رحلاته؟ ليس مهمّاً. تمثال بيس يخوض مجدّداً سباق القدر مثل قطعةٍ تطفو على سطح سيل وهذا بحد ذاته أمرٌ حسن. يتناهى لها من الخلف صوت يناديها. صوت لم تتعرّفْ عليه. «سيّدة مريم...؟ سيّدة مريم...؟» كما لو أنّ المدينة هي التي تناديها... لا، إنّه دارا. تعي ذلك... دارا الذي لا بدّ أنّه يراها تترنّحُ، دارا الذي يقتربُ منها راكضاً ويصرخُ حين يُغمى عليها وتسقطُ أرضاً.

ينبّههم قائد الطائرة للتوّ بأنّهم باتوا على مقربة من المنطقة المستهدَفة. يتنفّسون بعمق. ما هي إلّا دقائقُ قليلةٌ ويصبحون في قلب الحدث. دقائقُ قليلةٌ، ويعرفون إن كان ذاك هوَ المنزل المطلوب أم لا. وعمّا قريب ـ لكنّه يبدو له بعيداً جدّاً ـ سيبزغ الفجر ويُظهِرُ لأعين الجميع هزيمتَهم أو انتصارهم. تفصلهم مسافةُ دقائقَ قليلةٍ لكي يعرفوا، تفصلهم مسافةُ دقائقَ قليلةٍ فقط، ودون عجلة، يُعدّلُ سليفان سيكو خوذته، بدم بارد كالثلج، مستعداً لفعل ما تعلّم أن يفعلَه منذ سنوات طويلة: أن يضربَ ويختفي.

تتّخذ السيّارة اتّجاه البحر. يسمع عاصم هديرَ طائرة تُحلّق بعيداً. ينبغي بحساباته، أن يكون المطار إلى اليسار، أبعدَ صوبَ الجنوب. يمضي الناس في الأجواء مندفعين بسرعة تصل مئاتِ الكيلومترات في الساعة، للحظاتٍ وجيزة يشاهدون المدينة تبتعد، تصغُر، تصبح أجملَ لأنّها بعيدة، ومتلألئة بأضواء صغيرةٍ ما عادوا يرون أنّها تُضيءُ أحياء موبوءةٍ. هو، في هذه المدينة، غائصٌ في هذه الشوارع الميتة، التي تخلّى العالم عنها. خائف. يستشعر نداوةً في يديه. تصل السيّارة إلى الشاطئ، شارع الجناح، إنّهم على مقربة من المطار. هذا الخوف يعرفه، ويعلم أنّ عليه تركَه يتسلّل إلى داخله إذ يمكن أن يحملَ له نفعاً، فيصقل غريزته وبأسه، ويجعل أحاسيسَه أكثرَ تأهّباً. لم يأتِ من البعيد إلّا لأجل هذه اللحظة. تسلك السيّارة شارع الجناح. تمتدُّ في محاذاته، منازل إسمنتيّة صغيرة ترمق البحر، متشبّثةً بهذه الأرض مثلَ قرية نمالٍ. معظمُها بلا أسقف، واستُعيضَ عن السقوف بألواح متعرّجةٍ من الصفيح، مُثقَلة بإطارات لتثبُتَ في وجه الريح حينَ تهبُّ. ولسوف تُحرَقُ إذا ما حدثَ وأراد سُنّةُ الأحياء الشماليّة إثارةَ عراك. وثمّ فجأةً يظهر منزل أوسعُ من بقيّة المنازل، ومباشرة يَرى في الشرفة رجلاً يراقب وعن كتفيه تتدلّى بندقيّةٌ هجوميّة. لقد وصلوا. تُركَنُ السيّارة. ينزل الركّاب، باستثناء الفلسطينيّ، يبقى معه. يسمع أصواتاً تنادي في الليل. يُطبَقُ صندوقُ السيّارة. تُخرِجُ الكولومبيّة الصغيرة أيضاً بندقيّة رشّاش وتأتي لفتح باب السيّارة وهي تتلفّتُ إلى المنازل المجاورة. يُشيرون إليه بالخروج. يجد نفسه ثانيةً أمام هواء البحر الرطب. يأخذ نفساً عميقاً. لقد وصل من مكان قصيّ ليلتقي الرجل الذي ينتظره في هذا المنزل، والمحاط بهذا الحرس غير المألوف من guérilléros [1]. استعاد هدوءَه. يعرف ما عليه فعلُه. لقد كرّر مجرياتِ هذه اللحظات مراراً في رأسه، محاولاً أن يضع في حسبانه شتّى الاحتمالات. وهو الآن متلهّفٌ، متلهّف لرؤية سوليفان سيكو الذي

1ـ رجال العصابات أو المتمرّدون

لم يعد أحدٌ يناديه بهذا الاسم، سوليفان سيكو الذي يُرهِب رفاقه ويحكم شارع الجناح في الأحياء الجنوبيّة من بيروت مثلَ تاجر مخدّرات أو ثوريّ في قطّاعه. متلهّفٌ لأنّه يعلم بأنّ الرجل الذي سيستقبله هو أيضاً ينتظره منذ وقت طويل وسيثبّتُ عينيه في عينيه دون قناع. يصعد درجاتِ العتبة الأربع دون تردُّد، وحتّى دون أن يلاحظ الرجالَ والنساء الذين انبثقوا بغتةً مثل ظلال، في الحديقة وعلى الشرفات، جيشٌ حقيقيٌّ يبدو أنّه يحرس الليل بتنبُّهِ قِطَطٍ.

تعلو الحوّامتان فوق الفسحة عمودياً. إنّهما على وشْكِ الهبوط. الرجال على أُهبة الاستعداد ليندفعوا ما إنْ يشعروا بملامسة الأرض. بغتةً تفقِد الحوّامة التي في داخلها سوليفان سيكو توازنَها بعنف. يُقذَفُ الرجال إلى جهة ومن ثم إلى الجهة المقابلة. يدركون بأنّ شيئاً غيرَ مُتوقَّع حدث ولكن ليس أمامهم وقت ليخافوا أو يتساءلوا عن سبب هذا الارتجاج المباغت. لا وقتَ للقلق إن كانتِ الحوامة قد كُسِرَتْ ولن تتمكّن ربّما من التحليق مجدّداً. إنّهم مُدرّبون على الركض صوبَ أوّل مبنى أمامهم وهذا ما يفعلونه، منطلقين بمجموعات صغيرة، ولا بأس إذا كان الطيّار يُبرطم متذمّراً بأنّ المركبة كادتْ أن تسقط وتتحطّم أو أن تُدمِّرَ مروحةَ المركبة الأخرى، لا يهمُّ، قد أصبح الرجال بعيدين...

ثمّة رجلٌ على الشرفة يتولّى الحراسة، أكبرُ من الآخرين سنّاً وله لحية كثّةٌ. يشير له بأن يفتح يديه ورجليه. يفتّشه بدقّة، ثمّ يقول له «ينتظرك» ويفتح له أحد مصراعي الباب الزجاجيّ المُزدوج وهو يفسح له ليتقدّمَ كأنّ ليس من حقّه هو الذهاب أبعد ويشعر بالأسف لذلك ـ حاسداً الغريب على هذا الامتياز المُعطى له. يدخل عاصم. المنزل أوسع ممّا تخيّلَه. يتوسّطه درج كبير مُفضٍ إلى الطبقة العليا. ثمّة في حجرة الصالون ما يمنح انطباعاً عن زمن قديم. مَنْ كان يقطن هنا، قُبيل استيلاء رجال

جوب على المكان؟ ما مِنْ باب يشيرُ لهُ بمنفذ آخرَ سوى الدرج، فيصعد، ليجدَ نفسه في الأعلى في قاعة مُشرّعة النوافذ يتسلّل عبرها هواء البحر. في نهاية صفّ غرفٍ متتابعةٍ ـغارقةٍ في الظلام جميعها وفارغة ومؤثّثة بأثاث قديم يبدو منسيّاً في هذا المكان منذ قرون، يرى ضوءاً ويتناهى إلى سمعه ما يشبه ضحكا وقرعَ زجاج كؤوس.

يتقدّم سوليفان سيكو، متعقّباً عبر نظارته الليليّةِ أدنى وجود إنسانيّ. يُسرع. يعرف أن اثنين من زملائه يتبعانه مثلَ ظلّ لتغطيته وحمايته. الثلاثةُ متّحدون لأنّهم جميعُهم يرون في الليل مثل قِطَطٍ، وحّدوا خطواتهم في خطوة واحدة ويتقدّمون على وقع واحد، لأنّهم يدخلون هذا المبنى للمرّة الأولى غير أنّهم يعرفونه مسبقاً إذ درسُوا مخطّطاته بدقّة. إنّهم متّحدون لأنّ أصابعهم على الزناد وهم مستعدّون لفتح النار، دون تأثّر، دون حتّى أن يُوقفوا تقدُّمهم. ينبغي التقدّم، المضيُّ حتّى النقطة التي أُعطيَتْ لهم في الطبقة العليا، في الغرفة عند نهاية الممرّ. إنّهم متّحدون بصرير أحذيتهم على الحصباء في الفناء، لأنّهم يسمعون في اللحظة ذاتها رصاصاً يطلقه أعضاء آخرون من وحدتهم، إنّهم متّحدون لأنّ لا وقتَ لديهم ليتساءلوا عمّا يحدث. يتقدّم سوليفان سيكو. ما يدور في هذا المكان هو عملية اصطياد رجل وسيفعل كلّ ما بوسعه ليُخرجَ الطريدةَ من مكمنها. يسير الثلاثة على شكل مجموعةٍ مُتراصّةٍ، يصعدون الطبقة العليا، ويجتازون الممرّ الطويل وصولاً إلى الباب الأخير، ومَنْ يقبع وراءه هو من أتوا لقتلهِ، هو من تريد أمريكا برمّتها موتَه. لذا دون تردّدٍ، دون إضاعة دقيقةٍ واحدة، إذ إنّ جسدَه مُدرّبٌ على أهميّة المباغتة، وألّا يتركَ للعدوّ متّسعاً للتصرّف، يحطّم سوليفان سيكو الباب بعنفٍ ويقتحم الغرفة...

«تعال... تعال... اقتربْ لأرى مَنْ بعثوا إليّ...».

اقترب عاصم، مجتازاً ببطءٍ جميع تلك الغرف، ثمّ وصل أخيراً إلى

شرفة واسعة مسقوفة تُطلُّ على البحر. المكان مُؤثّث بكنبتين تتخذان شكل زاوية، وطاولة، إضافةً إلى أريكة، وجوب في يده قدحُ ويسكي محدّقاً إليه بنظراته الثاقبة، ومُفترّاً عن ابتسامة. تكلّم معه بالإنكليزيّة بتلك اللكنة البطيئةِ التي يتميّز بها سكّان جنوب أمريكا. تقدّم عاصم خطوةً وغدا وجهُه في الضوء. وقبلَ حتّى أن ينطق بأيّ كلمةٍ عاجله جوب بسؤال: «هل أنت من قتلَه؟».

لا يجيب، متفاجئاً بالسؤال، وبحفاوة استقبال الرجل. يحاول بالنظر معرفةَ إن كان ثمّة أحدٌ غيرهما على هذه الشرفة، وإذا ما كان جوب مُسلّحاً... يحاول تقدير العُلوِّ لمعرفة إن كان بوسعه القفزُ عن الشرفة فيما لو دعتِ الضرورة... ويرى بوضوح أنّ جوب يتفحصُّه ويُلاحِظُ ما يفعله. ثمّة ما يقوله، السؤال المطروح بتلك اللكنة البطيئة، واليدان المفتوحتان، والوجهُ المُشرق بنور مع هذه الابتسامة الغريبة ـ كأنّها تقصد رجلاً آخرَ غير الذي أمامها، حَرِيّةٍ بابتسامة راهب بوذيّ ـ، ولكن ثمّة أيضاً هاتين العينين الفاتحتين الحيويّتين، واللتين لم تُفلتا تفصيلاً مُذْ وصل زائره وما انفكّتا تروزانِه. «هل أنتَ مَنْ قتلَه؟». لم يجبْ، لا يعرفُ إلامَ يلمّحُ جوب، لكنّ هذا الأخير لا يترك له مجالاً للكلام، مُشيراً بيده بما يُفسَّر بأنّه غير مُتعجّل لمعرفة الجواب... «متأكّدٌ بأنّ هذا أكثر سؤال وُجّه إليك... لقد خبرتَ ذلك. فلنقلْ لدينا خبرةٌ مشتركة». ويجلس على الأريكة، مُولياً ظهرهُ برهة لعاصم، فعل ذلك بشيءٍ من البطء، كأنّه أراد القولَ إنّه ليس خائفاً، وإنّه يعطيه ظهرَه، وما بمقدور أحد أن يمسَسْه بأذى. «ويسكي؟» يسأله غير أنّه جالس أبعدَ منْ أن يتمكّن من خدمة ضيفه. إضافةً إلى استغراق نظرته في البحر، يبدو أنّ سحراً قد مسَّه، وغدا ـ فجأة ـ بعيداً جدّاً عن الشرفة، وعن عاصم، بعيداً جدّاً عن السؤال الذي طرحَه للتوّ وعن جميعِ تلك التي سوف يطرحُها. يقترب عاصم من المنضدة الصغيرة ذاتِ العجلات ويسكبُ لنفسه قدحاً. تلك كانت إذاً، التجربةَ المشتركةَ، يقصدُ سِرت ومصرعَ القذّافي. يقصد ذلك

لأنّه، هو، شارك في ملاحقة بن لادن. وماذا لو يُعيد إليه السؤالَ؟ هل هو مَنْ أطلق عليه؟ لا... لن يسأله. وما النفعُ من طرحِ هذا السؤال...؟ كانوا اثنين أو ثلاثة يتقدّمون في ذلك الممرّ في منزلَ أبوت آباد. كانوا ستّة أو عشرة في الحوّامة الأولى، وعشرة أيضاً في الأخرى. والجميع مُزوّدٌ بنظّارات الرؤية الليليّة، الجميع مُتأَهّب للضغط على الزناد. في العمق، ما الذي سيُغيِّر في الأمر إذا كان هوَ مَنْ أطلقَ عليه؟ هم العشرون جميعاً فعلوا ذلك.

لم ينبسْ عاصم بكلمة بعدُ غيرَ أنّ شعوراً يكتنفه بأنّه موجود على هذه الشرفة منذ ساعات انقضَتْ سريعاً. ينظر إلى جوب، ويتذكّر الصورَ التي عُرضت عليه في زيوريخ، تلك التي التُقطتْ له بين زملائه فيما كان لا يزال يدعى سوليفان سيكو. يتأمّلُه الآن: بات جسدُه أكثرَ نحولاً، وخدّدتِ التغضّناتُ وجهه، إلّا أن ثمّة شيئاً منَ العمق في نظرتهِ لم يكن موجوداً، ثمّة قلقاً، وكثافة. جذعهُ عارٍ، وصدره مزدانٌ بقلادة خشبيّة طويلة تبدو أفريقيّةً، ويضع عدداً من الخواتم في أصابعه وشعرُه أشعث.

«هل كنتَ مستعدّاً لأن تُقتَلَ ذلك اليوم؟» يطرح جوب السؤال بصوت مكتوم ويشعر عاصم بأنّ هذا السؤال بمثابة اختبارٍ، وإذا لم يُجبْ عليه بنزاهة، فلسوفَ تنتهي المقابلة.

«أجل».

يزمّ جوب شفتيه، مُستمتعاً بهذه الحقيقة، يتركُها تطفو في الهواء. ثمّ يُردِفُ: «أنا أيضاً، بالطبع، لكنّي شعرت أنّها كانتِ المرّةَ الأخيرة...».

ما الذي غيّره، أثناء تلك المهمّة في أبوت آباد؟ هل خوفُه فاق كلَّ خوف عرفَه في المهمّات السابقة؟ أم بسبب هويّة مَنْ أردَوْه قتيلاً ذلك اليوم؟ أو بسبب اصطدام إحدى الحوّامات بجدار الفسحة فظنّ أنّه ميت لا محالَة؟

«ما الذي يدفعُنا للطاعة، ملازم أوّل، هل تعرف؟ أنت ملازم أوّل، أليس كذلك...؟ لقد خدمْتُ تحتَ قيادة مكروغان، لا بدّ أنّهم أخبروك

بذلك. شهدْتُ أبو غرَيب قبل أن تظهر للجميع القذاراتُ التي كنّا نمارسها هناك... قمْتُ بمداهمات في منتصف الليل لألمَّ رجالاً كنّا نجرجرهم منْ منازلهم وهم أنصافُ عراةٍ وكانوا يموتون دون كرامةٍ متغوّطين على أنفسهم... كما كنتَ تفعلُ أنت، على ما أعتقد... ما الذي كان يدفعنا للطاعة، ملازم أوّل؟ يظنُّ البعض بأنّنا نستمتع بتلك الأفعال... أنت تعلم بأنّ هذا غيرُ صحيح. لم أكن أحبُّ مكروغان، هذه هي الحقيقة التي لا شكّ فيها، ومع ذلك كان يمكن أن أُضحّيَ بنفسي من أجله. أُقسم على ذلك، فلو استدعى الأمر، في ذلك الحين، لوضعْتُ جسدي للحيلولة بينه وبين الرصاصة... لماذا؟».

يُنهي قدحَهُ بجرعة واحدة، ثمّ يلوذ بالصمتِ. فيشعر عاصم أنّ بوسعه طرحُ سؤاله ويفعل ذلك بنبرة خافته، بمراعاة تقريباً:

«ما الذي تفعله هنا، جوب؟» قاصداً: ما الذي تفعلُهُ في هذا المكان، في هذه المدينة التي ليسَتْ مدينتك والتي ستبصقك خارجَها ما إن تملَّ منك؟ ما الذي تفعلُهُ في هذا المكان، بهذا الزيّ الغريب، على هذه الشرفة، مُحاطاً بثوريّين مُدّعين؟

«آه...» يجيب الرجل رافعاً يده، كأنّ عاصماً قد طرح أخيراً السؤالَ الصحيح، ويزمُّ عينيه بمكرٍ.

يتأمّلُ هنيبعل السهلَ. البحر لم يرتعد. يخفُّ الحرُّ تدريجيّاً. لا يزال رأسه يضجُّ بالصدمات وارتداداتها، بالصرخات، وسقوطِ الأجساد، وصفيرِ الأسهم، وجَري الخيل. ثلاثُ ساعاتٍ مضَتْ والرجال تقتّلُ بعضها بعضاً. يتأمّل فيض الجثث المحيطِ به. جميعُهم من الرومان... لا يعلم العدد بعد، وربّما لن يعلَمه يوماً على وجه الدقّة، ولكنّ خمسةً وأربعين ألفَ رومانيّ ممدّدٌ عند قدميه. لا يزالون يئنّون، يتحرّكون أحياناً، يتوسّلون بأن يُجهَزَ عليهم أو أن يُعالجوا، يتصبّبون عرقاً وهم ينزفون. خمسةً وأربعون ألفَ قتيل. يشعر رجاله بألم في أذرعتهم لكثرة

ما ضرَبوا. لم يلزمهم سوى أن يُطبقوا الفخّ ويذبحوا جميع مَنْ علق بشباكهم، واحداً واحداً. استغرق ذلك منهم وقتاً طويلاً. والآن، لا يبقى في كاناي، على ضفاف الأوفانتو، إلّا الضوء الخافت لغسق آخر النهار، مُداعباً، فيضَ الأجساد. ليتراتٌ من الدم، هكتوليتراتٍ لا تُحصى تسقي الأرض. تُتخمُها لفرط غزارتها. خمسةٌ وأربعون ألفَ رجل تَصفّى دمُه في الوقت ذاته. خمسة وأربعون ألفَ جسدٍ مُقصّل ومبقور، ما يجعل الهواء نتناً. مكانُ المُحتَضرون الشاسع يئنّ تحت وطأة الهجير. فالحرُّ لا يزال شديداً رغم اليوم الذي يُرخي سدوله على مهل. إنّه الصيف. ولا تزال الحجارة لاهبةً جرّاء القيظ المترسّب أثناء النهار. خمسة وأربعون ألفَ جسدٍ يلزمهم أيّاماً ليتحلّلوا، أسابيعَ. انتصارُهُ ماثل أمامه: بشعٌ مثل مذبحة بلا اسم. أكبرُ مجزرة في التاريخ. ما منْ معركة أسقطَتْ في مدّة وجيزة هذا العددَ من القتلى. يرمق الرجالَ عند قدميه. الذين خسروهم من الرجال أقلُّ بعشرة أضعافٍ ممّا خسرَ الرومان، إلّا أنّهم مدينون بانتصارهم لمنْ خسروهم: السلتيّون. لذا، ينحني، ويلمسُ بين الحين والآخر يدَ أحدهم، وقد صلّبها الموتُ، لأنّه يريد تسلُّم المجد منهم. عمّا قريب سيصل الخبر مجلسَ الشيوخ. وعمّا قريب ستحتفل قرطاجةُ بجسارته. سيصبح، إلى الأبد، المنتصرَ في كاناي والذي قلب مجرى الأحداث. الانتصار الذي كان ينتظره منذ زمن طويل، منذ اليوم الذي اجتاز فيه مضيق جبل طارق وحتّى قبلَ ذلك بكثير، منذُ أن كان أبوه يروي له كيف استولى على جبل بيلغرينو في صقلية وحكمَهُ، انتصارهُ ماثل أمامه، ولكنه لا يريد أن ينسى بأنّ الموتى هم مَنْ يمنحونه النصر. هكذا الأمر دوماً وويلٌ لمن ينسى ذلك. المعارك الكبرى التي تظلُّ في الذاكرة هي مقابرُ جماعيّة فظيعة تجعل الطيور تحوم. هل هو فخور بذلك؟ بالخمسة والأربعين ألفَ رومانيّ الملقَيْن عند قدميه؟ هل بوسع المرء أن يكون حقّاً كذلك...؟ لا يريد أن ينسى الأحشاء الممتزجة بهواء الصيف لأنّه إذا كان للتاريخ مِنْ عطرٍ، فهذا هوَ عطرهُ.

«تروقُكَ الذخائر[1]، ملازم أوّل؟».

لا يدرك عاصم المغزى. أسئلة جوب توقعه دوماً بالحَيرة. والأكثر من السؤال، البهجةُ التي يسألهُ بها. كما لو كان مسروراً جدّاً أنّ يحظى بهذا اللقاءِ الليليّ معه، كما لو أنّ هذه البرهةَ المتقاسَمة من الليل داخل هذا المنزل في شارعِ الجناح هبةٌ ثمينة. مع أنّه يدرك سببَ وجود عاصم هنا، لا يمكنه تجاهلَ ذلك، ورغم ذلك ثمّة شيءٌ من شعور حقيقيّ بالسرور يعبرهُ وهو يطرح سؤاله، كما لو أنّه يتحادث مع صديق قديم. زمّ عينيه منتظراً الجوابَ. ثمّ يُخرجُ عَظْمةً من تحت أريكته، بعد أن رأى عاصماً يحيّره الجواب، ويلوّح بها. إنّه ظُنبوب[2]. وبحسب الحجم، لا يمكن لها أن تكون سوى عظمةِ إنسانٍ.

«ما الذي يجعل مِنْ عظْمةٍ أن تصير ذخيرةً؟ سأل بجديّة. هل سبق لك أن فكّرتَ بذلك؟ أنا بلى فكّرت، وهذا ما توصّلت إليه، ينبغي عنصران لتصير: الوحشيّةُ والقدسيّة».

ثمّ يُخفضُ ذراعه ويعيدُ العظمة إلى تحت أريكته. يدرك عاصم بأنّ زمام الحديث من اللحظة فصاعداً أفلَتَ من يده، وبأنّ عليه تقبّلَ الرضوخ لوجهةِ جوب، إذ هو من سَيُدير اللقاء وسيتكلّم إلى أن يوصلَه إلى النقطة التي تعنيه. من اللحظة فصاعداً، يعلم أنّ الليلةَ ستغدو منفتحة على السّماء، ستغدو طويلة، طويلة إلى ما لا نهاية وسيروقه ذلك. يوحي جوب بمزيج غريب من الانهيار والصلابة. لم يعدْ لديه الجسدُ الممشوقُ الذي كان له في الصور حيث كان جالساً بين رجال الكوماندوس الآخرين، إلّا أنّ في صوته ثمّة قوّةً عميقة، راسخة. يشعر بأنّ جوب يأخذه بعيداً عن مهمّته، وبأنَّ لا أهميّة لمباعث قلق الـ CIA في اللحظة الراهنة. إنّه في مكان آخر.

1ـ وتعني بقايا الموتى على العموم، وهي من فعل ذخر الشيء أي أبقاه، غير أنّها اكتسبت مع الوقت معنى دينيّاً وخصّصت لبقايا القدّيسين من رفات أو لباس أو أدوات.

2ـ عظم الساق الظاهر وهو أكبر عظام الساق.

«تنبعث من التاريخ رائحةٌ نتنة. أليس كذلك، ملازم أول؟ أنتَ وأنا، نعلم ذلك، إذ لا تزال رائحتُه تُزكِم أنفيْنا، أليس صحيحاً؟».

لماذا يعود دوماً إلى ذكر سِرتْ؟ إذ إنّه يقصد سرت بلا ريب... فهل يرمي بذلك إلى زعزعته؟ أم ليخلقَ نوعاً من التواطؤ بينهما، ليظهِرَ له أنّه يعرف سيرته، والمحنَ التي خبرها؟ لا ينفكُّ يستدعي ذكرى تلك اللحظة. هل ليستحوذَ الحشدُ الساخط مجدّداً على ذهنه وليشعرهُ ثانيةً بلفح هجير ذلك اليوم وخوفهِ؟ ألأنّه شعر بأنّ ذلك هو نقطةُ ضعفه وبأنّ ما يدور هنا على هذه الشرفة لا يتعدّى أن يكون صراعاً؟ أم لأنّه هو نفسُه مسكون بذكرياتٍ مشابهة ويحتاج حليفاً لمواجهتها؟

«هل انتصرْتَ، أيها الملازم أوّل؟ ذلك اليوم، في ليبيا... هل بوسعِكَ قولُ ذلك: انتصرت؟ أنا لا أقصد فرنسا. بل أنتَ، شخصيّاً. هل شعرتَ بالانتصار؟».

هو يعلم جيّداً أنه لم يشعرْ به. لا داعي لأن يجيبَ. يفكّر عاصم. الانتصار، هل شعر به في يومٍ من الأيّام؟ الشعورُ بأنّه أدّى مهمّته على أكمل وجهٍ، بلى. شَعَرهُ مراراً، أثناء عملية سرفال[1]. حيث كان يرسل المعلوماتِ الدقيقة عن هدف ذي أهميّة بالغة لطائرة صيدٍ وكان يسمع الآلة تشقّ السماء والانفجاراتِ، بعد بضع ثوانٍ، تدوّي في البعيد، ثمّ تصل رسالة الراديو «حُيّدَ الهدفُ»... ولكنَّ الانتصار؟ كلّا. يستأنفُ جوب كلامه بنبرة خافتة، كأنّه مأخوذ بالصور التي عادت وطفَتْ في ذهنه.

«هل رأيتَ كايل ومادوكس؟ أبطالَ أمريكا...».

أجل، رأى كايلٍ. القنّاصَ المُحتَفى به من بلد بكامله. الرجل ذا المئة وسبع عشرة ضحيّةً. ومادوكس الذي أجبرَ من أخفَوا صدام حسين على الاعتراف بمكانِه. ما الذي يقصده من وراء ذلك؟ بأنّه ليس من العدل ألّا يتذكّر البلدَ بكامله سوى هذين وينساه هو...؟

1ـ عملية عسكريّة شنّتها فرنسا ضدّ المتمردين في شمال مالي.

«نحن يا جوب اخترنا الظلَّ. وأنت تعلم ذلك منذ البداية...» يجيب عاصم.

يتبسّم جوب من الملاحظة.

«لا... لم تفهمْ... لستُ في وارد حسدِهما... أتعلم ما الذي أراه، أنا، حين أنظر إلى مادوكس؟ هل شاهدتَه أثناء أحاديثه الفردية حين يبدأ بسرد خبرته، والميكرو مُثبّت في أذنه؟ عرضٌ لرجل واحد. خليقٌ بمبشّر. يذرع الولاياتِ الجنوبيّة. كانساس. لويزيانا. والناس جميعُها على استعداد لأن تدفع من أجل الإصغاء إلى عبقريّة التحقيق... هُراء... ما أراه، أنا، هو الهزيمة. حياته توقّفتْ في اليوم الذي اقتلع فيه صدّام حسين من تحت الأرض، مُشعّثَ الشعر، بملامح ساطير[1] ومن حوله جميع رزمه النقديّة... وقد عرف ذلك مباشرة، أنا على يقين. فقد كان يخسر بذلك عدوَّه الكبير. ولن يتبقّى له لاحقاً سوى المحاضراتِ في القاعات المتعدّدة الاستخدامات والمعارض. الشيءُ ذاته بخصوص كايل. قنّاصِ الولايات المتّحدة... يكفي تبجُّح! القصّة الحقيقيّة، غيرُ مرتبطة بأعداد الرجال والنساء الذين أرداهم قتلى. وإنّما القصّة الحقيقيّة تكمن في بؤس نهايته. فقد قُتِلَ على يد أمريكيّ آخر، كان قد خدمَ في أفغانستان وتطوّع في هايتي بعد الزلزال وعادَ منها مُختلّاً. أمريكا ماثلة في هذا... في هذيْن الرجلين. المُختلُّ يقتل الآخرَ لأنّ البلد تقتلُ أبناءها. الهزيمةُ ذاتها دوماً. ربّما ارتاح كايل في اللحظة التي مات فيها لأنّه في الحدّ الأدنى، بهذه الطريقة، مات مثلَ بطل. وربّما مادوكس لا يطلب أكثر من ذلك... بأن يُقتلَ ويُعفى من السنوات اللاحقة التي سوف يواصل فيها سردَ القصّة ذاتها، مع الميكرو ذاته والنّكاتِ السمجةِ ذاتها، أمام جمهور سوف ينسى شيئاً فشيئاً مَنْ كان صدّام حسين وما الذي كان يفعلهُ الأمريكانُ هناك...

- هل هذا ما شعرتَ به في أبوت آباد؟ الهزيمة؟».

1ـ الساطير آلهة ثانويّة من حاشية دنيسيوس وتمتزج في شكله ملامح البشر والتيوس.

لا يجيب جوب مباشرةً. يتبسّمُ قبالة الليل، أو ربّما يتجهّمُ...؟ ثمّ يلتفتُ إلى عاصم ويسأله:

«ماذا لدينا يعارض هذا المآل، ملازم أوّل...؟».

يلوذ عاصم بالصمت. يفكّر في تلك اللحظة بشافين، أمام مدخل مخيم كوركوسك، تلك الفتاة الكرديّة بارعة الجمال التي كانت تمسك بندقيّتها بإصرار وتتقلد حزام ذخيرتها. كان قد شعر في الضوء الذي يشعُّ من وجهها بأنّها لن تعرفَ أبداً غمَّ القتال. أكان ذلك بسبب يفاعتها؟ أم لأنّها كانت تؤمن بعمق بالقضيّة الكرديّة، جسداً وروحاً؟ أو لأنّها كانت تعلم أنّها تمثّل كلَّ ما كان يُبغضه أعداؤها: امرأة بضفائر سوداء طويلة، سافرة الوجه وتحارب مثل الرجال؟ هي ما أرادوا تكميمَهُ، ولسوف يُحطّمونها فيما لو سقطتْ بين أيديهم. إذن بالنسبة لها، مُجرّد أنّها على قيد الحياة، فذلك يعني أنّها ظافرة، في كل ساعة من الليل والنهار، في ذهابها إلى الجبهة، وعند إيابها منها، طالما هي حيّة، كانت منتصرَة ومُجرّد وجودها كان يصفعهم مثلَ إذلالٍ مُقيم. ابتسامةُ شافين كانت تستولي على ذهنِه إلّا أنّه لم يقل كلمةً لجوب. هذا ما لديه ليُعارضَ رداءة الانتصارات، ليُعارض مادوكس وعروضَه التي يُرثى لها، نكاته المكرّرةَ لألف مرّةٍ وحركاته المبالَغ بها، لكنّه يرفض التصريحَ به، يرفض تقاسُم شافين مع جوب. يشعر، لو فعل ذلك، بأنّ الآخر سيلوثُ هذه الذكرى وهذا ما لنْ يحتمله. أو ربّما لأنّه يعرف بأنّ الرجل الذي أمامه تمسَّكَ، هو أيضاً، بوجوه شبيهةٍ غير أنّه شعر في نهاية المطاف بأنّهم ليسوا بأفضلَ من البقيّة، لم يجسّدوا سوراً أمنعَ في وجه الهزيمة وبأنّ جوب، فيما لو نطق كلمةً عن شافين، سوف يتبسّم ويفسّر له كيف أنّها لن تردّ عنه شيئاً ـ لا يريد أن تُسلب منه تلك الصورة، لذا على سبيل الجواب، يبادرُ الأمريكيَّ بالسؤال:

«ماذا قرّرتَ أن تفعلَ، جوب؟ أن تلعبَ لعبتك الخاصّة؟ أن تتحرّر؟».

يرمقه الآخر بهدوء.

«أنا مسرور بأنّهم أرسلوكَ، ملازم أوّل، قال وهو يتبسّم. لأنّك، أنت، تفهمُ ما أعني. وهذا سوف يمنحُنا أحاديثَ شيّقةً في مُقبل الأيّام...».

يتساءل عاصم إذا ما كانت هذه طريقةً ليقول له بأنّ المقابلة شارفتْ على نهايتها. يلاحظ بأنّه لم يقل شيئاً ممّا قد أعدّه، لذا يُردِف، متذكّراً مهمّته:

«لم نتكلّمْ عن السبب الذي أتى بي إلى هنا.

ـ على العكس... بالطبع تكلّمْنا...، يُجيب الآخر، حتّى إنّنا لم نفعل شيئاً آخر». ثمّ يُردف، بعد برهة طويلة: «أتظنُّ حقّاً بأنّ CIA تشعر بالقلق من إتجاري المحدود بالآثار المهرّبة الذي أزاوله بين الفينة والأخرى...؟ ما يُقلقها شيء آخر. ألم يبلغوك...؟ بالتأكيد لم يبلغوك. أرسلوك لكي تتفحّصني قائلين في سرّهم بأنّه كلّما كانت معرفتك عن الأمر أقلّ، كان أفضل. وهم بهذه الطريقة يهينونك... إلّا أنّني ممتنّ لهم لأنّهم اختاروك أنت. كان يمكن أن يكون الأمرُ مخيّباً أكثر...».

يبدو، فجأةً، بأنّ وهناً عميقاً استولى على الرجل. يتنهّد. مُتشنّج القسمات. يقف وينظر مُطَوّلاً إلىٰ البعيد نحو البحر. لم يعدْ عاصم يُبصر عينيه لكنّه يسمع صوته:

«سنلتقي ثانيةً، ملازم أوّل... بما أنّهم قد قرّروا، نوعاً ما، تكليفَك بي...».

في هذه اللحظة، كما لو أنّ كلَّ شيء كان مُعدّاً مسبّقاً، كما لو أنّ بوسع جوب، بما يشبه التخاطرَ مع الليل ورجاله، تقرير كلّ شيء، يظهر على الشرفة المصريُّ الذي أشار له إلى الطريق في بداية اللقاء، ويومئُ برأسه إلى عاصم مُعلناً له أنّ المقابلة انتهَتْ وأنّ عليه الآن أن يتبَعه.

«بعد ثلاثة أسابيع، يُردِفُ جوب لحظتَها، انزِلْ في فندق مينليك بأديس أبابا، ولسوف نستأنف نقاشنا... إذا لم تغادرْنا الكلماتُ حتّى ذلك الحين...».

أضاف الجملة الأخيرة هذه بأسى، كأنّه يستشعر كوارثَ مُقبلة، ولكن مَشُوبة بما يشبه الخبث ـ كأنّه يستبطنُ التساؤلاتِ الحميمة التي تجتاح عاصم. يلبث الفرنسيّ مشدوهاً. يتّجه إلى الحجرة، يمكث برهةً ليرى إن كان جوب سَيستدير ثانيّة ـ يتفاجَأُ في نفسه تأمّلَ ذلك ـ ولحظة يعتزم فيها مغادرة الشرفة، يُدوّي صوت جوب للمرّة الأخيرة، أقوى ومشوباً بالوعيد:

«فكّرْ في العظْمةِ، ملازم أوّل. واسألْ رؤساءك ما الذي سيجعلُها ذخيرةً... حرارةُ التقوى. وصدّقْني، إنّها هنا، وفي كلّ مكان. ولا تنتظر إلّا ذلك، بتلهّفٍ...».

يخرج عاصم. وما إن يصبحَ بمحاذاة سلسلة الحجرات، يسير المصري في إثره ويشعر حينئذ بفوّهة مسدس. هذا الظهورُ المباغت للتهديد يفاجئه. كأنّ بيروت ظهرتْ من جديد. غادر شرفةَ جوب، صوتَهُ العميقَ، الساحر، والآن، يلاقي ثانيةً شارع الجناح، لعبة الاستخبارات، المؤامرات، تجارة المهرّبات، وكلُّ هذا يجعله يتحسّرُ مباشرة على الدقائق أو الساعات ـ عاجز أن يحدّد على وجه الدقّة ـ التي أمضاها للتوّ هناك في الأعلى.

-VI-

كابوا

كم هوَ غريبٌ أن يرى المرء عدوَّه. ليس جنودَ معسكر الخصم، في ميدان المعركة، أولئك الذي يرتعدون مثلك ويصرخون مثلك، ويتضرّعون لكي يكونوا هم من سيبقرون بطنك وليس العكس، ليس هؤلاء الرجال، الذين يكونون صِبيةً أحياناً لا تتجاوز أعمارهم الخمسةَ عشرَ عاماً أو الستّة عشرَ، لا، وإنّما قلب العدوّ. هذا ما يراه تحت بصره: أسوار روما. في الجانب الآخر من تلك الجدران، يوجد مجلس الشيوخ، معبدا جونو ودميتير، الساحةُ العامّة، الأسواقُ، منازلُ النبلاء المترفة والمواخيرُ البائسة في الضواحي. في الجانب الآخر، يوجد مالُ الإمبراطوريّة والأوامرُ التي تجوبُ أوروبا وتنتقل في أنحائها. يعجز رجاله عن التصديق، إذ باتَ كلُّ شيء قريباً للغاية. يتذكّر اجتياز الألب وسديمَ بحيرة تراسيمين. يتذكّر قيظ كاناي وكلَّ ساعات المسير الإلزاميّة تلك. حين ذهبوا إلى كابوا، بعد كاناي، استطاع الرجالُ النومَ في أسرّةٍ للمرّة الأولى منذ ثلاثة أعوام. وهذه المرّة أيضاً انتزعهم من نومهم، هذه المرّة أيضاً، ناداهم إلى الحرب مُجدّداً وأعطاهم الأمرَ باستئناف المسير قُدماً. كابوا مُحاطةٌ من قِبل الرومانيّين. وهي صامدة، حتّى هذه اللحظةِ، ولكنّها لن تتأخر عن أن تفتح أبوابها أو سوف تموتُ اختناقاً. لا ينبغي أن يخسرَ كابوا. إنّها منفذُه الوحيد إلى البحر. بوجود كابوا يستطيع الحصولَ على الإمدادات وتجديدَ عناصر جيشه. بوجود كابوا يستطيع مواصلة الضغط على عدوّه وإرهاق أعصابه. وروما تعلم ذلك. المصيرُ رهنٌ بذلك. ولهذا السبب يحاصرون المدينةَ المتمرّدةَ. يمتدُّ التناحر لزمنٍ طويل. ولمحاولة الخروج من هذا المأزق، مضى على رأس بعضٍ من جيشه وسار إلى روما. يعلم أنّ ليس لديه القدرة

على ضرب حصار حولها. لم يفكّر يوماً بذلك لكنّه يريد فقط إيهامَهم بالحصار. يجب أن تشعرَ عاصمة الإمبراطوريّة بأنّها مُهدّدةٌ. بأنّها ماضية في هزيمتها فتستعيدُ جنودها. وبذلك تُفكُّ القبضة المُطبقةُ على كابوا وحينها يعود إلى الإقامة فيها ثانيةً ليهيّئَ لانتصاره.

كم مضى من الوقت وهو يقتُل؟ كم من الأشهر انقضتْ والحرب تتّخذ إيقاع معاركَ متتالية وكلُّ معركة أكثرُ دمويّةً من سابقتها؟ لا شيءَ من حوله عدا ذلك: ميادينُ معارك وطيورٌ تحوم وقد أصابتها رائحة الدم بالجنون. ثمّة ما هو أسوأُ من التعب والإنهاك. ثمّة ما هو أسوأ من فظاعة معركة مرّت كابوساً هاذياً. ثمّة ما هو أسوأ من اليدين اللتين ترتعشان لساعاتٍ بعد المعركة، من الأحصنة المتفحّمةِ جرّاء الحرائق، ثمّة ما هو أسوأ من آلاف القتلى في هذه الغابة التي لفرطِ كثافتها ينبو الرصاص فيها كما في متاهة مجنونة، الأسوأُ هو الشعور بعدم الجدوى، معركة سدى، ومعركة اليوم أكثر من المعارك التي سبقتها. لا يمكنه أن يصرّحَ بذلك لأحد لكنّه يشعر به وهذا يُدمّره. مجزرةٌ لا تملك حتّى فضيلةَ أن تكون حاسمةً. ربّما، في العمق، يستحقُّ لقبَ «غرانت الجزّار»؟ كم من الرجال أرسلَهم إلى الموت منذ بداية هذه الحرب؟ كم من الرجال توقفَتْ حياتهم لأنّهم امتثلوا لخططٍ هو وضعَها، لأنّهم أطاعوا أوامرَ هو أصدرها؟ عشرات الآلاف. كلُّ يوم يتساقط منهم قتلى واليوم أكثر من المعتاد. بماذا يستطيع التمسّكَ ليظل قادراً على سوق الرجال إلى القتال؟ بلينكولن؟ أجل، ربّما. لديه تقدير عميق للأبِ ذي القسمات الحزينة، وللقضيّة: الرقُّ جريمة الإنسان بحقّ الإنسان. لا يكفُّ عن تكرار هذا لنفسِه. عليه التشبّث بفكرة أنّهم، هم، قوّةُ التقدُّم، هم المستقبل ـ الوحيد الممكن ـ لهذا البلد المترامي والذي عليه أنَ يُولَد. ولكن هذا لا يكفي أحياناً أمام أرتال الأجساد المُمدّدةِ، شعورها ممرّغةٌ بالوحل، وقد استحالتِ البشراتُ رماديّةَ اللون ـ فِتيةٌ في معظمهم ـ، هذا لا يكفي أبداً...

أصرّتْ على التوقُّف في المتحف. يغدو خالياً في مثل هذه السّاعة، مغلّقاً أمام الزوّار، وهذا حسَنٌ، إذ على هذا النحو تريد زيارته. افتُتِحَ الأسبوع الماضي. رأتْ المشاهدَ في التلفزيون، وسمعت الكلمتين اللتين ألقاهما الرئيس العراقيّ، ومديرةُ اليونسكو. ما لم يتطرّقْ إليه أحد، هو أنّ السباق قد ابتدأَ. الرجال المسربَلون بالسواد يُدمّرون كلّ شيء. البارحة أسقطوا نمرودَ بالجرّافات. جميع المواقع التي سوف يصادفونها ستلقى المصير ذاتَه: المطرقة، جلّاخة الزوايا والديناميت. أيّ موقع سيكونُ التالي؟ يُثار اللغطُ الآن حول معبد الحضَر. يحكمون بالفناء على الآثار القديمة، مُنزلين الهلاك بمواقعَ شهدت أفولَ الإمبراطوريّة الرومانيّة، عاصرت ولادة وموت بلدانٍ وحضارات.

يواصل هنيبعل المسيرَ بحصانه على محاذاة أسوار روما مشفوعاً بأمل أن يشعرَ أعداؤه بالذعر وأن يستدعوا إليهم جيوش كابوا ليدافعوا عن عاصمتهم. يسأل مجدّداً ـ سبق وأن سأل ثلاثَ مرّات منذ وصوله ـ إذا كان قد جلب المُستطلعون أيَّ خبر بخصوص تحرّكات القوّات العدوّة. يُجابُ بالنفي. روما تراه، وتراقبه، وتبدي ملاحظات عن وجوده لكنّها لا تقرّرُ شيئاً. هل ستفقدُ برودة دمها؟ يجول تحت الأسوار، جيئة وذهاباً، يريد أن يراه الحرّاس فيُهرعون لاستشارة قادتهم، وبأن تُبلّغَ القادة القناصل وأن يقوم القناصلُ بدورهم بإخبار مجلس الشيوخ. هنيبعل هنا، تحت نوافذكم، يتبخترُ بمحاذاة السور مثلَ هِرّ، مُتلذّذاً مسبقاً بأمر السلْبِ الذي سيصدره عمّا قريب، «هنيبعل حضرَ بنفسه»، «المعركةُ الكبيرة النهائيّة تقترب»، هذا ما يريدُ سماعَه، «دعوا جيوش الجنوب بأن ترجع»، «هنيبعل يتعدّى على روما»، «ينبغي الاستعداد للحصار»، هذا ما يأمله ويسأل مجدّداً: «هل ثمّة أخبارٌ من كابوا؟ ـ أبداً»، يُقال له. لا يزال التاريخ مُتردّداً ويعلم أنّ ليس بوسعه فعلُ شيء سوى الانتظار، ويتذكّر بأنّه في أحد الأيّام، حين كان طفلاً، قطع عهداً على نفسه بالوصول إلى

روما، وقد وصلها اليوم، أوّل غازٍ لأراضي الإمبراطوريّة. أجل، فلينالُ الذعرُ منهم! وليشوّشْ أذهانهم. لأنّ ما أنجزه حتّى الآن، لم يسبقْه أحد إلى إنجازه.

يذرفُ الدموعَ هذا المساء، دون أن يقوى على إمساكها، تحت خيمته، محترساً ألّا يراه أحد. ليس بدافع الخجلِ وإنّما يدرك بأنّ دموعَه قد تكون علامة عجز وليس من حقّه أن يُخضِع رجالَه إلى مشهد كهذا. جعلتهم الحرب، بصدفةٍ مُروّعة، يعودون إلى المكان ذاته: غابات وايلدرنيس. قبل عام، حدثتْ معركة هنا، في مواجهة جنودِ ليْ، وقد انتصر الجنوبيّون على هوكر آنذاك، ولا تزال الجثثُ في هذا المكان. وبما أنّها أمطرتِ اليوم، فقد أعادتِ السيول فتحَ القبور والذين حاربوا رأوا جيّداً أنّهم يخوضون معركتهم على سرير من العظام. الذين سقطوا، منكبّين على وجوههم تمرّغوا برفاتِ زملائهم القدامى الذين كانوا يهلّلون بهم ببسمةِ هيكلٍ عظميّ. يذرفُ الدموعَ، والذهن لا يزال حافلاً بزخّات المطر تلك التي كانت تُحيل الأرض إلى حقل مُوحل، بتلك الحرائق التي كانت تنتشر رغم المطر، من مكان إلى آخر، وتحرقُ الجرحى أحياءً. الوايلدرنيس أهلكتْهم. ولكنّه حين يمسح وجهه كي لا تُرى دموعهُ، ويخرج من خيمته ليكون وسطَ رجاله، يفكّر في روما. «Qui vincit non est victor nisi victus fatetur». المنتصرُ ليس منتصراً ما دام المهزوم لم يعترفْ بهزيمته. لا يمكنه أن يصرّحَ بذلك لأحد، ولكن وهو ينظر إلى رجاله المتحلّقين حول النار محاولين التدفُّؤ، ولا ينبسون إلّا بالقليل من الكلمات، محاولين استعادة الشعور أنّهم على قيد الحياة، يفهم بأنّ الهزيمة ليست قضيّة خسارات بل حركة. ينبغي عدم التوقّف. ليس الرهانُ الانتصارَ في معركة وايلدرنيس، الرهانُ بألّا يتسنّى للليْ التقاط أنفاسه. إنّه يتقدّم نحو ريتشموند، عاصمة ولايات الجنوب. يريد الجنرال الجنوبيُّ الإبطاءَ، وكسبَ الوقت. يراهن على الانتخابات التي ستجري

قريباً في واشنطن. وبدون انتصار صارخ، لن يُنتخَبَ لينكولن ثانية، وإذا لم يُنتخَبْ، سيكون للكونفدراليين كاملُ الحريّة في التفاوض حول تمرُّدهم. هذا هو ما يصبو له ليْ. وعلى هذا ينبغي الردُّ. يسري همسٌ في جميع أرجاء المخيم، تحت الخيم، بأنّ جيش الاتّحاد تعرّضَ لهزيمة. ولماذا يُقال ذلك؟ ألأنّ سبعةَ عشرَ ألف جثّة ممدّدة هناك في الغابات، لا تزال وجوهُها مضاءةً جرّاء بقايا وهج الحرائق؟ لن يكون مهزوماً طالما التاريخُ لا يزال على تردُّدِه، وحتّى هذه اللحظة، هذه حاله. ينبغي إجبارهُ. لهذا السبب يأمرُ رجاله بالوقوف. غداً ينطلق الجيش مجدّداً، يستأنف طريقه نحو الجنوب، إلى عاصمة العدوّ. غداً يسير الجيش من جديد ولن تكون هناك هزيمةٌ طالما سيواصل مسيره قُدماً.

تجتاز القاعاتِ بصمت. كلُّ شيء هنا في مكانه. تعيد إحصاء جميع هذه القطعِ وتتذكر أنّها قبل اثني عشرَ عاماً، في 2003، قد فعلت الشيءَ ذاته، ذارعةً الحجراتِ جيئة وذهاباً، ولكنْ كان كلُّ شيء على الأرض آنذاك: زجاجُ النوافذ محطّم، الكراسي مقلوبةٌ، القطع ملقاة على الأرض، وواجهاتُ العرض خاوية. هامتْ بين القاعات مكتشفةً مشهدَ النهب، هي والعديد من أبناء جيلها الذين أتوا لمدّ يد العون للمديرة. كانتْ شابّة آنذاك غير أنّها لا تزال تذكر تماماً حالة ذهولها. جريمةٌ كبرى قد اقتُرفتْ، في هذا المكان، تحت أبصارهم، غباء وبشاعة. جريمةٌ تُعارض نورَ الحضارات ثمّ انحنوا معاً، في غضون ساعات، يلمّون الشظايا، يكنسون، يحصُون ما قد نقصَ إلّا أنّ كلَّ شيء كان قد غدا ناقصاً... أكثرُ من عشرة آلاف قطعةٍ فُقدت. كان العراق ملعباً شاسعاً للمهرّبين من شتّى الأصناف. لقد شهدُوا النهب دون أن يتمكّنوا من فعل شيء. كانت بغداد تغرق في النار والدم. تتذكّر سخطَها، حين طلع النّهابون من جميع أرجاء المدينة المُشتعلةِ مقتحمين المتحفَ، مُنتقين سرقاتهم في وضح النهار. تتذكّر الجنودَ الأمريكيّين الذين لم يبادروا للتصرّف، لبثوا ساكنين، وهم ينظرون إلى

تلك الزُّمرِ المنظَّمةِ وهي تضع يدها على ثروات البلد الأثريّة. كانتْ قد تأمّلتْ، مثل البقيّة، عاجزةً، نهبَ المتحف. وقد صَاحتْ، مثل البقيّة، إلى الجنود الأمريكيّين ليتدخّلوا. النّهابون مُحصّنون. مِنْ هنا بدأتْ حياتها. منذ ذلك اليوم، وبعد السقوط النهائيّ للدكتاتور، كرّسَتْ حياتها لملاحقة تلك القطع. مع الإنتربول ومع اليونسكو. كانوا يتّصلون بها كلّما عادتْ إحدى القطع إلى الظهور، سواء في الحجرة الخلفيّة لأحد متاجر بائع أنتيكا سويسري أو في أسفل حقيبة أحد الجنود الأمريكيّين. اثنتا عشرة سنة. ربّما لهذا السبب تجوب اليوم قاعاتِ المتحف الكبيرة بمفردها وتستغرق وقتَها في تمعُّن كلّ شيء بهدوء.

يتقدّمُ غرانت مثلَ بولدوغ[1]. ينبغي إشاحةُ الوجه عن الوجوه المخذولة، عن ألم المصابين، عن الشكوك. ينبغي صمُّ الأذنين عن تردُّد النفسِ ومواصلةُ التركيز على فكرة وحيدة: مواصلة التقدّم، بأيّ ثمن، يوماً بعد يوم. هكذا تُكسَبُ الحروب. ينبغي أن يتّصفَ المرء بالعناد. لذا يُصرُّ، يدفع رجاله كلّ صباح إلى نزع المعسكر، رغم التعب، واستئنافِ التقدُّم، للقتال، للموت والمتابعة... لا يزال التاريخ متردّداً لم يحسمْ أمره بعد. ينبغي بعد كلّ معركة النهوضُ من جديد، مهما كانت حصيلةُ المواجهة. ثلاثون يوماً من الحرب المتواصلة، ولا يزال التاريخ صامتاً. لا يميل إلى أيّ منَ المعسكرين، يبقى حائراً رغم الضربات الموجعة. بعد ثلاثة أيّام من معارك غابة وايلدرنيس، يلتقي الجيشان في سبوتسيلفانيا[2]. الشماليّون يتفوّقون عدداً يزيدون ضعفيْن وغرانت يعلم بأنّ هذه الورقةُ الوحيدةُ التي لديه ليلقيها، كما في كلّ مرّة منذ بداية الصراع: أن يُغرِقَ ميدان المعركة بفرق جنوده دون أن يأبه للخسارات. كيف يمكنهم البقاء أحياءَ بعد الثماني عشرة ساعة من القتال التي جرت في بلودي أنجل؟

1ـ واحد من أصناف الكلاب القوية التي لها طاقة كبيرة.
2ـ إحدى مقاطعات فرجينيا.

عشرون ألفَ قتيل في هذا المكان فحسب. شدّةُ عنفِ وابل القذائف المشظّاة والرصاص وكثافته، لم يكنْ يُسقِطُ الجنود قتلى فحسب وإنّما يمزّقُهم. كيف بوسع المرء أن يرى ذلك ويظلَّ حيّاً؟ في احتدام المعركة يسقُط الجنرال إويل. لم يتعرّضْ لإصابة، لكنّه رأى الكثير. يُلقي بنفسه أرضاً ويسدُّ أذنيه. غيرَ آبه بالموت - يتقبّل هذه الفكرةَ منذ ردحٍ طويل - لكنّه لم يعدْ يستطيع النظرَ إلى ما يجري حوله. طفحَ الكيلُ. فقدَ صوابَهُ. يتكوّرُ حول نفسه. لماذا هو لم يفعل مثلَ إويل؟ ما الذي، في داخله، يجعلهُ قادراً على تحمُّل ذلك؟ لن يرجعَ الجنرال إويل إلى سبوتسيلفانيا أبداً. يعيدُه الجنودُ إلى الخطوط الخلفيّة إلّا أنّه قد غدا من الآن فصاعداً مجنوناً يكلّمُ نفسَه. ثماني عشرة ساعةً وعشرون ألفَ قتيل. حين حلّ المساء يُجري غرانت حساباتِه، لا يستطيع إمساكَ نفسِه عن ذلك، يتمنّى لو أنّه لا يفعل، يعلم أنّ لا طائلَ من وراء ذلك. يدخّنُ سيجاره الثاني لهذا اليوم ويُحصي كالمجنون: المجموع ألفٌ ومئةٌ وأحدَ عشرَ قتيلاً في الساعة، ما يعني ثمانيةَ عشرَ قتيلاً في الدقيقة، إذن ثلاثةُ قتلى كلّ عشر ثوانٍ وذلك في مدّة ثماني عشرة ساعة... هو العقلُ المدبّر لذلك، ولا ينالُه الجنون؟

تتعرّف في واجهةٍ على بعض القطع المفقودة، ستّمائة وثمان وثلاثون عملاً أعادهم الجيش الأمريكي إلى العراق بعد نهب 2003. ومع أنّ هذه الأعمال بقيتْ، لمدّة سنتين، مفقودةً. أكدّت مراكز الاستقصاء التابعة للجنرال بتريوس أنّها أُرسلتِ الصناديق، والمتحف كان يكرّر أنّه لم يستلمْ شيئاً. صارعتْ، بمساعدة من الإنتربول، وهي تلحُّ مُضايقةً مكاتب ديفيد بتريوس ليقدّموا دليلَهم على إرسالها. لا شيءَ. اختفتْ. ولا أثر في أيّ مكان. ثمّ أخيراً، سنة 2010، ذات يوم جميل، عُثِرَ على الصناديق. العلبُ التي كانت تحتوي القطع كانت قد وُضِعَتْ خطأً في مخزن مليء بمعدّات تخصّ المطبخ. احتارتْ، ذلك اليوم، بين أن تصرخ فرحاً أو تبكي من الغضب. سنتانِ ذهبتا هباءً. ستّمائة وثمان وثلاثون قطعة لا

تُقدّر بثمنٍ موضّبةٌ بين مواقدَ ومناضد عمل. إنّها اليوم، هنا. متحف بغداد يقف على قدميْه مجدّداً. إنّه الردُّ على جرّافة نمرود وجلّاخة الموصل. اثنتا عشرة سنةً انقضتْ وهي تكافح تجارة القطع الفنيّة، اثنتا عشرة سنةً وهي تحاول إيقاف نزيف التراث الأثري العراقي. ستختفي الكثير من القطع لاحقاً. الرجال المسربلون بالسواد يزحفون نحو الحضَرِ. النهبُ متواصلٌ. فتخطر في ذهنها فكرة وتتساءل بغتةً إذا ما كان مَسٌّ قد أصاب عقلها. إذ يتبدّى لها أنّ غايةَ جيئتها وذهابها في القاعات الخالية هي جعْلُ القطعِ تراها. لكي ترى القطعُ، بلى، بأنّ ثمّة رجالاً ونساء تكترثُ لصونها، تهتمُّ بالاعتناء بها. بأنّ العالم الذي أخرجها من باطن الأرض ليس من جشع وإذلال فقط.

يجبُ بعدَ سبوتسيلفانيا مواصلةُ التقدّم. يدفع رجاله إلى المضيّ مجدّداً ويلتقي ثانيةً بجيش لي في كولد هاربر. لا أحد يعلم حتّى الآن من انتصر في حملة أفيرلاند أو مَنْ هُزم. لقد خلّفوا أربعين ألف قتيل وراءهم، وذلك لم يصنع فارقاً إلى الآن. في كولد هاربر، يرتكبُ خطأً. لن يكلّفَه حياته. ولن يُفضيَ حتّى إلى هزيمته. خطأً لا يغيّر شيئاً في مجرى الأحداث تقريباً، لا شيء، ولن يمنعَه حتّى من مواصلة زحفه، من المضيّ قُدماً نحو الجنوب وإنهاءِ مسير طويل لثلاثين يوماً من الفظائع تحت جدار بيترسبورغ. لكنّه من الآن فصاعداً بات يعرف الاسم الذي يتناقله الرجال همساً في المساء، داخل المخيّمات: «غرانت الجزّار». في كولد هاربر يرسلُ، في غضون سبع دقائقَ، سبعةَ آلاف رجل إلى المقتلة. سقطتْ كلُّ المعايير. لم تعد خسائرُ الأرواح ترد في حُسبانه. فلو أنّه يحصي، الآن، لكانَ علم بأنّ ذلك يعادل أكثرَ من ستّةَ عشرَ قتيلاً في الثانية. مثل إرسال قطيع مواشٍ تحت وابل من الشظايا. ستّة عشر قتيلاً في الثانية. كلُّ رجل يسقط كان يجسّدُ حياة، له قصّته، قرية مسقط رأسه، وأبوان يتأمّلان أخباراً تصل عنه، كلُّ رجل من رجاله كان يرتعد خوفاً

ومع ذلك يركض لأنّ ما من خيَار آخر لديه. الآن، يعلم بأنّه يتقلّد هذا اللقب، «جزّار»، يتقلّدهُ وسوف يتناهى إلى مسمعه، من الآن فصاعداً، في كلّ مكان، همساً، مُحيلاً الابتهاجَ إلى عارٍ ولحظاتِ السلام إلى جحيمٍ يُطارده. سوف يسمعه حين يميل لينكولن نحوه لتهنئته، «جزّار»، سوفَ يسمعه حين تهمس له زوجته في أذنّه أنّها تحبّه، «جزّار»، سوف يسمعهُ حين تهتف له الجموع وهو سائر وسطها ولسوف يُلاحقه إلى شيخوخته، «جزّار»، في كلّ حينٍ، «جزّار» في كلّ برهة تأمّلٍ يغتبط فيها بأنّه على قيد الحياة، «جزّار» لأنَّ السبعةَ آلاف قتيل في كولد هاربر ماتوا بلا طائل. يتقلّدُ هذا اللقب، «جزّار»، وسوف لن ينساه أبداً، حتّى حين سيكون أمام ليْ المهزوم، ولاحقاً أيضاً، حين سيغدو رئيسَ الولايات المتّحدة، «جزّار»، بلى، ليس من حقّه نكرانُ ذلك، هو الذي لم يعرفْ أن يصبح مجنوناً مثل إويل. إلّا إذا كان على خلاف ذلك، قد أصبح مجنوناً، بالفعل، ولكن دون أن يتهاوى على الأرض، ودون أن يدركَ: مجنون، بلى، لأنّه وصل هذه العتبة المخيفة، هذا المكانَ الذي يبتلع كُلَّ شيء، حيث لا شيء يهمّ سوى الانتصار وحيث يمكن التضحيّةُ بكلّ شيء لتحقيقه.

مَنْ فتحَ أبوابَ كابوا؟ بعد كم من ساعات التردُّد والجدال أو تحت سطوة أيّ انفعالٍ مفاجئ لرجل، أحدُ وجهاء المدينة أو مواطن عادي، ما عاد قادراً على احتمال هذا الحصار، فتحَ أبواب المدينة، تاركاً أريج سوق العطارة يتسرّبُ عبرها؟ لا بدّ أنّ هناك يداً تشبّثت بالقضبان الحديديّة الثقيلة، وحنجرة تمزّقت وهي تصرخ لتنبّهَ بأنّ المدينة استسلمَتْ. لا بدّ أنّ هناك أصابعَ أدارت المفتاح في قُفْل. هل يعلمون بأنّهم قلبوا التاريخ للتوّ؟ بأنّ إمبراطوريّة سوف تسقط وأخرى ستنتصر؟ انخدع سكّان كابوا بالحيلة التي كان يُضمرها هنيبعل للرومانيّين. كان يريد أن تعتقد روما بأنّها مهدّدة، وأنّه سوف يجمّع كامل قواته لينقضّ عليها. لم تنطلِ الحيلة على الرومانيين أمّا على كابوا فأجلْ، إذ شعرت المدينةُ بأنّ هنيبعلَ تخلّى

عنها. لم تدركْ بأنّ المناورة لم تحصلْ إلّا لفكّ القبضة التي كانت تخنقها وبأنّ القرطاجيّين سيأتون لاحقاً لإنقاذها. يدٌ فتحت الأبواب. ظنّوا بأنّ روما سترسل لهم نوّاباً. ظنّوا بأنّ الإمبراطوريّة ستأمر بنزع سلاحهم وقد تعاقبُهم بقسوة حتّى عبر ضرائبَ باهظةٍ. سبق وأن ناقشوا الفكرة وتقبّلوها. لم يدرْ في خَلَدِهم بأنّ روما ستجعل منهم عِبرةً. يُفتح بابُ كابوا. وقتُ التردّد الطويل ينتهي، ذلك الوقت اللانهائي حيث كان هنيبعل يجوب جيئةً وذهاباً تحت أسوار روما لكي يبصره الجميع ويسود الذعر في شوارع الساحة الرئيسيّة. التاريخُ حسمَ خياره، الباب يُفتح ومَنْ يدخل كابوا، في تلك اللحظة، لا يدخلها لأجل النقاش والتفاوض، وإنّما ليصبَّ جامَ غضبه ويُعاقب. يدخل الرومان ويدمّرون كلّ شيء. كي لا يخطرَ في بال مدينة أخرى أن تتجرّأَ على مقارعتهم كما فعلتْ هي. كي لا يستطيعَ أحدٌ التبجح بأنّه أرجفَ روما. يدخلون ويُدفّعونهم ثمن الأرق الذي أقضّ مضاجعَهم، والذعر الذي نال نبلاءهم. يُدفّعونهم ثمن ساعات الحيرة تلك وهم لا يعلمون إذا ما كانوا سيبقون أحياء أم سيصبحون جثثاً ممرّغةً في الطين البارد لميدان معركة. على كابوا أن تنزف وسرعان ما ستطغى على رائحة سوق سيلبازيا الطيّبة، رائحة أثقلُ، مثيرة للاشمئزاز، تنبعث من الدّم الساخن المُراق على الأرض. حين يبلغهُ الرسول بذلك، يتأمّل هنيبعل أسوار روما للمرّة الأخيرة. يعلم بأنّه لن يُفلح اليوم في إركاع الإمبراطوريّة. ولربّما لن يعود ثانيةً إلى رؤية هذا السور... لذا يتريّثُ قبل أن يأمر بالانسحاب. لا ينبسُ بحرف. يدرك الجميع حوله ما الذي يعنيه سقوط كابوا. عليهم، الآن، الانسحابُ نحو الجنوب. عليهم، احتمال ثلاثَ سنواتٍ من المكائد والانتظار. وسوف يتوجّبُ عليهم التحصّن في جبال كالابريا وأن يعيشوا فيها مثل خنازير الجبال البريّة بانتظار وصول التعزيزات. عليهم الآن أن يكونوا مُحاصَرين بدورهم. التاريخ حسم خياره. عليهم الهروبُ من العدو الذي سيجدُّ في إثرهم ليلاً ونهاراً. انتصار كاناي بات بعيداً. كابوا تحترق وعليهم هم الآن أن يذرفوا الدموع.

-VII-

جنيف

أديس أبابا. لماذا اختار جوب هذه المدينة؟ هذا السؤال الأوّل الذي طرحه عليه أوغست حين جلسا على المقعد في منتزه Promenade de la Treille، عند قدم شجرة الكستناء المائلة التي يعتمد عليها سكّان جنيف في ترقُّب مقدم الربيع. «لا أعلم»، أجابه عاصم. بدا الاستياء على أوغست. تبادلا بعض الأحاديث ثمّ قصدا المطعم الصغير ذا الواجهة الخشبيّة الجميلة في شارع جان كلفن حيث كان لديهما موعد مع دان كوفاك. كان الأمريكيُّ بانتظار أخبار، كان يريد من عاصم أن يبلغه إذا ما كان جوب قد جُنَّ أم لا، إذا كان يمثّل تهديداً، إذا كان يُعِدُّ لهجمات تستهدف المصالح الأمريكيّة، إذا كان متحالفاً مع أجهزة استخبارات عدوّة، أو إذا كان في حالة ذهنيّة تجعل منه عنصراً مُزعجاً. كان يريد من عاصم أن يجيبه عن جميع هذه الأسئلة غير أنّ الفرنسيّ بادره إلى القول:

«تكلّمْ عن ذخائر...».

بدا الاستياء على كوفاك بدوره، كما حصل لأوغست.

«ماذا قال، بالضبط؟

ـ إنّه من أجل أن تصبحَ عظْمة ذخيرة، تحتاج إلى حرارة التقوى وهو يعلم أين يجدها...».

كان ذلك اليوم البعيد الذي هجموا فيه على منزل في أبوت آباد. لم يكن أحد من أعضاء الكوماندوس ينبسُ بحرف، داخل حوّامة العودة، الجميع يلوذ بالصمت. يعلمون، طالما هم في الأجواء الباكستانيّة، يمكن

أن يحصلَ أيُّ شيء. أتتْ آليتان لتقديم يد العون وانتشالهم. أُجبروا على ترك الحوّامة التي سقطت في الباحة وتفجيرها قبل مُبارحة المكان. ذلك كلّه استغرق وقتاً وأحدثَ ضجيجاً. أبوت آباد استيقظَتْ. ولا بدّ بأنّ قيادة الأركان العسكريّة الباكستانيّة تُصدر الآن أوامرَ ومَنْ يعلم إذا كانوا لن يعترضوا الآليّتين الأمريكيتين لإظهار انزعاجهم... كان ذلك اليوم البعيد، في الآلة، حيث كانوا يكزّون على أسنانهم مُحصينَ الدقائق. ومن ثمّ يعلن الطيّار أخيراً بأنّهم دخلوا الأجواء الأفغانيّة، دفعةً واحدة، ينفجرون بهجةً. يرفع البعض خوذَهم، يطلقون صيحاتٍ ويتعانقون. أمّا سوليفان سيكو، لا يتحرّك، يترك الآخرين لغبطتهم. تمتلئ الحوّامة بمشاعر النصر، بعبارات التهنئة، بالانفراج والزَّهو، لكنّهُ لا يصيح، لا يتبسّم. مهمّته لم تنتهِ بعد.

لدى استدعاء كلمة «ذخائر»، عضَّ كوفاك على شفته وأَعتمَ وجهه. يستأنف عاصم، واصفاً الحرس الشخصيّ لجوب، وهيئته كزعيم مهرّبين، ومكان لقائهما. يقول لكوفاك بأنّ جوب بدا له «مُتبَصّراً». يستعمل هذه الكلمة ويرى الدهشة على ملامحه. ما الذي يستطيع إضافته أكثر؟ بأنّه متلهّف للقائه ثانيةً؟ وبأنّ ليس لديه من خوف سوى أن ينهض كوفاك في نهاية الوجبة ويشكرهما على المساعدة، مُعلناً لهما بأنّهم هم سوف يتولّون الأمر وسيتكفّلون بهذه القضيّة بأنفسهم؟ لا يريد أن يُستبعَدَ. يعاود التفكير في ذلك الموعد في أديس أبابا ويتمنّى لو يذهب إليه. قد قال محمود درويش: «لا تدعِ العالم يسرقُ منك الكلماتِ»، فهل هذا هو ما يجمعه مع جوب ويجعلَه متلهفاً للقائه ثانية؟ ألأنّ جوب، بفرادة، بطريقته المُربكة والغامضة، أعاد وضع كلماتٍ على العالم؟

«سوف تفسّرُ لنا؟» أوغست من طرح السؤال في النهاية. انتظر دان كوفاك أن ينزلَ من المراحيض، متظاهراً بأنّه ينزل الدرج الحلزونيّ الصغير برفقته، وأن يعود للجلوس على طاولتهم ليطرح عليه هذا السؤال بنبرة جافّة.

«إذا كنتَ تريد أن نتابع معك فينبغي أن تزوّدنا ببعض المعلومات الإضافيّة. قصصُ تهريب القطع الفنيّة، لا تنطلي على أحد. حتّى جوب يبدو على علم بدوافع إرسالكم شخصاً له». يدرك عاصم بأنّ أوغست يجازف على هذا النحو بكلّ شيء من أجل كلّ شيء. إذا تعنّت دان كوفاك ورفض البوح بما لديه، فإن مهمّته ستنتهي هنا ولن يلتقيَ جوب مجدّداً. سينظّم الأمريكيّون عمليّةً لاستقباله في أديس أبابا وسوف يُعثَرُ عليه مشنوقاً في غرفة في أحد الفنادق مع كلّ الأدلة التي تثبت حدوث جريمة حقيرة – عاهرةٌ جشعة للمال، أو لعبةٌ جنسيّة انتهت على نحو سيّئ... أو في حال أعادوه إلى الولايات المتّحدة، حينئذ سوف تبدأ بالنسبة له رحلة طويلة من استخلاص المعلومات، من الاستجوابات، من الزنازين، مع إعادة طرح الأسئلة ذاتها، وتكرارها لألف مرّة، إلى أن يغدوَ مجنوناً أو ينجحَ في شنق نفسه. يحبس عاصم أنفاسه، يشعر بهذه اللحظة إلى أيّ حدّ هو مصرٌّ على رؤيته ثانيةً وهذا يدهشهُ.

«الموضوع حسّاس...» يُجيب كوفاك بصوت خافت وعاصم يتنفّس الصعداء لأنّه، إذا الأمريكيّ يُجيب، يعني أنّه يريد مواصلة العمل معهم. «تعلمان بأنّه بعد تصفية بن لادن، واجهنا مشكلةً مع جثّته. إنّها نوع من الجثث التي تحرق الأصابع قليلاً والتي لا نعرف بالضبط ماذا نصنع بها...

– ما علاقةُ ذلك بجوب؟» يُقاطع أوغست.

تهبُّ الريحُ على جسر حاملة الطائرات، مُعظّمةً الأمواجَ الهادئة، جاعلة منها تلالاً جبّارة تتعاقب في إثر بعضها بعضاً. السماء صافية. يتأمّل سوليفان سيكو خطّ الأفق. لقد انضمّ للتوّ إلى ماكروغان الذي كان يقف بزيّه المهيب يُدخّن سيجارة بانتظار أن يتهيّأَ الإمام. لا ينبس سوليفان بكلمة. لا يتأخر ظهور الإمام، وفي إثره أربعة بحّارة يحملون صندوقاً خشبيّاً. يقتربون. تصفِقُ الراياتُ في الريح، وما من طير في السماء. إنّهم بعيدون جدّاً عن اليابسة. يبتدئ الإمامُ المراسم. يُطلَب منه أن يوجز قدر

المُستطاع. الجثّة مُسجّاة بكفنٍ أبيضَ. منذ أبوت آباد لم يفارقْها سوليفان لحظة واحدة. لقد أُخذتْ منها عيّنات للتثبّت من هويّته، لمقارنة DNA. انفجرت قاعدة أفغانستان بالبهجة ثانيةً – يتذكّر ذلك –حين أكّدتْ نتائج الفحُوصات بأنّه كان بن لادنَ بالفعل. ولاحقاً علم العالم برمّته بالنبأ. عمّتِ البهجة كافّة أنحاء البلاد. شعب بأكمله كان يطالبُ بالانتقام منذ سنواتٍ عشر. والآن، لا يبقى أمامه إلّا المحيطُ. ما إن يُنهي الإمامُ صلاته، يمسك سيكو وأحد البحّارة المحفّة ثمّ يرفعانها فوق رأسيهما. تبدأ الجثّة بالتحرّك، تنزلق على المحفّة، بتسارع، مدفوعةً بثقلها إلى أن تنطلق وتهوي عن الارتفاع الشاهق لهيكل السفينة العسكريّة. تظلُّ لبضع ثوان معلّقةً في الجوّ، ثمّ يسمعون صوت الارتطام مع الماء وبعده يرينُ الصمت. يحدّق سوليفان إلى الاتّساع يتململُ، يهدر، يعلو. يتساءل في سرّه ما الذي يفكّره المُحيطُ عن هذا الجسد الذي أسلَمناه له للتوّ وكم سيستغرق وقتاً حتّى يتأكّله... ثمّ، فجأة، يُخرِجهُ صوت ماكروغان من أفكاره ويصفق في الهواء الرطب:

«هيّا، أيّها السادةُ: فلنذهبْ لنحضرَ أوسمتَنا...».

تريّثَ دان كوفاك لبرهةٍ. لا بدّ أنّه يقدّر بين ما يمكنه الإفصاح عنه وما ينبغي أن يخفيَه، إلّا إذا كان يتظاهر، وكلُّ شيء معدٌّ مُسبقاً وما من غاية لتردّده سوى أن يظهر أكثرَ مصداقيّةً، ويوحي لهم بأنّهم يقتربون من صُلب القضيّة وبأنّ بعد ما سيقوله، لن يبقى شيءٌ خافياً على الفرنسيّين.

«كان سوليفان مُكلّفاً بحماية الجثمان، وكان ضمن الفريق الذي على متن حاملة الطائرات USS Carl Vinson، برفقة ماكروغان وبعض المسؤولين الرسميّين، أقاموا الشعائر وألقوا بالجثّة عن متن السفينة.

– ومن ثـمّ...؟ سأل أوغست ليدفع كوفاك للمضيّ إلى صُلب المُشكلة الحقيقيّة.

– انقضَتْ أشهر ولم يحدثْ شيء. وفي أحد الأيّام، يختفي سوليفان.

للوهلة الأولى اعتقدنا أنّه بسبب حالة اكتئاب، أو شيء من هذا القبيل... غير أنّ بعد مدّة وجيزة من اختفائه، بدأنا نسمع كلاماً عن مفاوضات غريبة. وأخذت تطفو معلومةٌ في أماكن شتّى تُفيد بأنّ عميلاً قد يكون اقترح على بعض المجموعات الجهاديّة رُفات زعيم القاعدة. للوهلة الأولى ظننّاها دُعابة، فالأمر لا يُعقل، قبل أن يؤكّد لنا عميل لدى الأجهزة الأردنيّة بأنّه رأى فحوصات DNA وبأنّ الرجلَ المعنيّ قد يكونُ بحوزته بالفعل شِلواً من بن لادن».

يعاود عاصم التفكير بجوب وهو يلوّح بالظنبوب البشريّ الذي معه على شرفة منزل شارع الجناح. يعاود سماع صوته، الخافت، الغامض والماكر. هل للأمر علاقةٌ بهذا حقّاً؟ بتهريب جُثثٍ؟ بعظْمةٍ قد تُوضَع في مزادات علنيّة؟

«هل تمزحُ؟ قاطعه أوغست. لا يمكن أن تكون جدّياً... حتّى لو افترضنا بأنّه نجح في سرقة إصبعاً أو إصبعَ قدم أو لا أدري ماذا، لن تقول لي بأنّك أعددْتَ كلّ هذه الترتيبات لهذا السبب؟».

يرمق الأمريكيّ أوغست بهدوء كبير، ثمّ يُجيب:

«أتفهّمُ أن تتلقّى الموضوع على هذا النحو، أوغست. إلّا أنّ هذه القصّة لم تضحكْ رؤسائي ولا البيتَ الأبيض. إذا عادتْ أعضاء صغيرة من بن لادن للظهور مُجدّداً في بقاع مختلفة، فسيُفلت الأمر عن السيطرة. وهناك أمر آخر. إذا كان سوليفان حقّاً من فعلَ ذلك، فهو بعيد جدّاً عن أن نتمكّن من استرجاعه وبالتالي أنا أكثر المتوجّسين من معرفة أنّه في بيروت، أو في أديس أبابا أو لا أعلم أين، يتواصل مع كلّ ما يُخرِجهُ الكوكب لنا من حُثالة. حركة الشباب، Aqmi [1]، النُّصرة، الدولة الإسلاميّة، بوكو حرام، ألا تشاركني الرأي بأنّ تنظيماً من هؤلاء بعد مدّة وجيزة، سيقول لنفسه بأنّ عضواً من قدامى الكوماندوس الأمريكي أصابه مَسّ، قد يكون صديقاً نافعاً؟».

1ـ تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي.

لم يعدْ عاصم يُصغي. استوقفتْه الكلمات التي نطقها دان كوفاك للتوّ. «إنّه بعيد جدّاً...» يعلم بأنّه كذلك. جوب بعيدٌ جدّاً ليرجعَ. ليس لديه أدنى رغبةٍ بذلك. إنّه يكلّمهم للمرّة الأخيرة من الضفّة الأخرى حيث قرّر إلقاء مرساته وهذا ما أبهره طوال مدّة لقائهما. جوب غادر الحياة. حرّر نفسه ممّا يئنُّ الآخرون تحت وطأته ويواجه المجهولَ. إذا كانت قصّة الذخائر صحيحةً، فهو ليس جدّيّاً. يسخر منهم على الأرجح، أو يعلن الحرب، أو إنّها مجرّد طريقة ليقول لمعسكره: وداعاً. كوفاك قالها وجوب يعلمُها، إذا فعلها فلن يستطيعَ العودة. إنّه يُحرِقُ مراكبه. يفعل ذلك مبتسماً، وهو يحدّقُ في اللّيل بنهم لأنّه من الآن فصاعداً لا خيار أمامه سوى المُضيّ قُدماً. يبتعد عن العالم، عن كلّ شيء، لكنّه ربّما يقترب من شيء حقيقيّ أكثرَ، مُسكرٍ أكثرَ، ويدرك عاصم بأنّ هذا ما اجتذبه بجوب ولهذا يسعى لرؤيته مُجدّداً، لأنّه يحسدُ إبحاره هكذا، بمفرده، مُولياً ظهره للنار التي تلتهم مراكبه على الشاطئ الرمليّ، والمجهولُ أمامه.

«أنا، هيلا سيلاسي، أوّلُ إمبراطور لإثيوبيا، إنّي اليوم هنا لأطالبَ بالعدالة المستحقّة لشعبي، المساعدةِ التي وُعِدَ بها قبل ثمانية أشهر، حين أقرّتْ خمسون دولةً بأنّ الاعتداء الذي تعرّض له شعبي كان انتهاكاً للمواثيق الدوليّة...».

انتظر طويلاً حتّى تمكّنَ من النطق بهذه الكلمات. حين دخل القاعة الكبيرة في مقرّ عصبة الأمم، الواقع على ضفاف بحيرة جنيف، ظنّ بأنّ اللحظة ستكون مهيبةً وتهيّأ لها، إلّا أنّه استُقبِل بالتصفير. أخذ إيطاليون يصيحون ناعتينَه بالقرد، وأنّه لا يجوز لإيطاليا أن تكون عضوة في مجلس يستقبل بلاداً كهذه. أثاروا جلبة. سخروا منه، نغّصوا عليه، وشتموه. كانوا أربعة أو خمسة، في الحيّز المخصّص للصحفيّين. كزّ على أسنانه، منتظراً بفارغ الصبر تدخّلَ الحرس الأمنيّ لإخلاء القاعة من أولئك النشطاء الفاشيّين. لكنّ إخراجَهم استغرق وقتاً طويلاً. الهزيمة،

مُتجرَّعة حتّى الثُمالة، ومصحوبةٌ بالإهانة. لن يُبقوا له شيئاً: لا الوقارَ ولا الصمتَ حتّى. حشد جِماعَ تركيزه على ذكرياتِ بلده كي لا يتأثّر. يقف هناك، على منبر عصبة الأمم، أمام الأرض بأكملها، مُهاناً كرجل سياسيّ عديمِ القيمة قد يُعتدى عليه في الأسواق، ملكٍ مخلوع في المنفى. سويسرا نفسُها لم تسمح له بالسفر إلى جنيف اليوم إلّا بعد أن تعهّد بأنه لا ينوي البقاء على الأرض الهيلفتيّة[1]. سيعود إلى باث ما إنْ ينتهي من كلمته. إلى فايرفيلد هاوس[2]، القابع عند أطراف المدينة، إلى ذاك المنزل المُطلّ على الطريق والذي لشدّة رطوبته تظلّ الإمبراطورة طوال اليوم مُتلحّفةً بشالٍ على كتفيْها. وعمّا قريب سيأتي الخريف، وبعده الشتاء. ينبغي عليه التصبّر بعيداً عن بلاده. هل سيراها يوماً؟ يركّز على ذكرى وقائع معركة ماي شيو ليظلّ مشحوناً بالغضب الذي هو بأمسّ الحاجة إليه. «زنجيّ حقير!» يواصل الصحفيّون إهانته. الشرطيّون حاضرون للإمساك بهم وطردهم إلّا أنّهم يقاومون وكلّما شعروا بدنوّ رميهم في الخارج، يرفعون من وتيرة شتائمهم. بينما يظلّ هو واقفاً بقامة منتصبة، بلا مبالاة. لن يتخلّى أبداً عن هذا الهدوء المدهش، وإلى آخر يوم من حياته، حتّى في أيام الاضطرابات التي رافقت الانقلابات: الهدوء كي لا يمنح العدوّ شيئاً. ينظر إليهم، هؤلاء الصحفيّون الأربعة أو الخمسة، البشعون مثلَ جُبْن الأقوى. هل لديهم أدنى فكرة عمّا جرى في ماي شيو؟ عن الشجاعة التي أظهرها الإثيوبيّون؟ هل كان بوسع هؤلاء الخنازير الذين يسخرون منه بإيماءات سخيفة أن يصمدُوا ولو لخمس دقائق، تحت القذائف؟ يبصقون على وجهه. أرسل له موسوليني هؤلاء المُشاغبين ليسلبَهُ حتّى المهابة. ليكنْ. سيحتمل. يعاود التفكير بالقرى التي دمّرها الطيران الإيطاليّ بإمطارها بالغازات التي لا يمكن فعلُ شيء حيالها، يعاود التفكير بذُعر محاربيه الذين أدركوا أنّ بسالتهم ستغدو

1ـ الاسم الرسمي الذي أطلق على الكانتونات السويسرية في الفترة ما بين (1798ـ1803).

2ـ Fairfield House: فيلا في شارع نيو بريدج في مدينة باث الإنكليزيّة. وعرفت لإقامة هيلا سيلاسي فيها في فترة المنفى (1936ـ1941).

دونما جدوى، بأنّ العدوّ في حِلّ حتى من إظهار وجهه وبأنّهم سيموتون هناك فوق ميدان المعركة ذاك، دونَ مجد، ببشاعة المعارك الخاسرة مسبّقاً. يعاود التفكيرَ في الجثث المنفوخة مثل بالونات الهيليوم، في الوجوه المشوّهة التي قضَتْ بالغاز. يعاود التفكير بكلّ ذلك ويشعر بالغضب يعتَملُ في داخله. يزداد هدوءاً. يزداد برودا، إلّا أنّ بوسعه أن يقصمَ المنضدة أمامَه إلى نصفين. جميع الناظرين إليه اليوم، من الخمسين بلداً، الذين يضحكون على مهزلة الصحفيّين الإيطاليين أو يستهجنونها، جميعُهم يمثّلون بلاداً تركَتْ إثيوبيا تموت. باعوا أرواحهم ليشتروا السلام. وليس لديهم رغبةٌ لسماع ما أتى يقوله لأنّهم يعلمون أنّه سيكون نوعاً من اللوم. قبل شهر فقط قاتل في ماي شيو. قبل شهر كان يحمل رشّاشاً وسط فوضى يصعبُ وصفُها من النار والغاز والقذائف، وهو الآن هنا منتظر دون أن تندّ حركةٌ عنه أن يخرجَ الخنازير الأربعة أخيراً وأن يسودَ الصمت مجدّداً، وحينئذ فقط، وهو ينظر مباشرةً نحو جميع تلك البلدان التي ليست صديقةً له، التي سوف تصفّقُ له بدافع التهذيب إلّا أنّها سوف تتركه يعود إلى رطوبة باث دون أن تفعل شيئاً، حينئذ فقط، يبدأ مُلقياً الكلماتِ التي انتظر منذ زمن بعيد أن يتمكّن من قولها: «أنا، هيلا سيلاسي، أوّلُ إمبراطور لإثيوبيا، إنّي اليوم هنا لأطالب بالعدالة المستحقة لشعبي...».

يسير عاصم على امتداد الضفّة اليمنى للبحيرة، شمسُ أيّار تتلألأ على المياه، والفنادق الفخمة تتتابعُ واحداً إثر آخر، يسير مخلّفاً مركز المدينة وراءه، تحدوه الرغبة في زيارة المقرّ القديم لعصبة الأمم الذي لم يتسنَّ له رؤيته من قبل. حين يصله أخيراً، يتَفاجأ بحجمه الصغير. غير أنّ الفناء الأمامي المقابل للبحيرة يمنح المبنى مظهرَ مُلكيّةٍ واسعة. يحاول تخيُّل وصول هيلا سيلاسي، في ذلك اليوم الذي ألقى فيه كلمته الشهيرة. لم تستفقْ بعدها عصبة الأمم من ذهولها قطّ. دفنَها النجاشيّ، أو بالأحرى

هي دفنت نفسَها بنفسها لأنّها اتّصفَتْ بالجبن، لأنّ أيّاً من البلدان التي كانت تضمّها لم يكن مستعدّاً للقتال من أجل الدول الضعيفة. ولكن هل بات الأمرُ مختلفاً جداً في أيّامنا؟ يتذكّر أيّام الانتظار عندما كانت فرنسا تضغطُ على الولايات المتّحدة من أجل التدخُّل في سورية. يواصل نزهته على امتداد البحيرة.

«هل انتصرْتَ، ملازم أوّل؟» يعاوده السؤال الذي طرحه عليه جوب، بذلك الصوت الأخنّ الذي كان ينطوي على وعيد، وحماسة. هل انتصرَ؟ عشرُ سنوات مضَتْ وهو يذرع الكرة الأرضيّة. يواصل تنفيذ المهمّات. ولكن بماذا هو يساهم؟ في الحرب؟ حين يتسكّع في شوارع باريس، لا يخالجه شعور بأنّ البلد تشهد حرباً. جنديّ في أيّ قضية هو إذاً؟ في هذا الزمن الذي لا تعيش فيه فرنسا حرباً ولا سلاماً، حيث التهديدُ منتشر ومستمرّ، ما الذي يمكن أن يكونه الانتصار؟ انتقامُ الدولة، هذا، أجل، يتفهّمه. وقد شارك في قتلِ الملا حضْرَتْ. هو مَنْ تحقّق من الإحداثيّات الدقيقة لمكان تواجده. ولَمّا فجّرتِ الطائرات الحربيّة الكوخَ، فكّر في الجنود الفرنسيّين العشر الذين قتلوا في كمين أوزبين قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات وشعر بالرضا، لم يكنِ منتصراً غير أنّه مفعم بذاك الشعور الذي لا يمنحهُ سوى الانتقام المُحقَّق، ولكن أين الانتصار حينما كلُّ شيء يستمرّ؟ هل وُجِدَ انتصارٌ واحدٌ في تاريخ عملياته كلّها؟ انتصارٌ قد يغلق حقّاً حالة حرب، ويبني السلام؟ ماذا يفعل إذاً، إذا كان كلّ هذا ليس سوى سلسلةِ مهمّاتٍ بلا نهاية؟ لسنوات طويلة، انتابه شعور عميق، صادق، بأنّه يخدم وطنه. هكذا كان يرى نفسه. هل بوسعه اليوم أنْ يقولَ بيقينٍ إنّه لم يشترك ببعض العمليّات الدنيئة؟ سؤال جوب يدور في رأسه: «هل انتصرْتَ، ملازم أوّل...؟». وسط الحشد هناك على طريق سِرت، لم يشعرْ بالانتصار ولا لحظة. كان الديكتاتور على مسافة خمسة أمتار منه، مُدمّى الوجه، مشدوهاً من الألم، لم يخالجه أيُّ شعور بالشفقة نحوه لكنّه لم يكن سعيداً أيضاً. رغم أنّ ما يحصل كان تحرراً لشعب.

في العمق، لا شيءَ عادل عدا تحرّرِ الشعوب، لا شيء يستحقُّ حمل السلاح عدا ذلك. هل عملَ يوماً على قضيّة مُشابهة؟ يسير على امتداد النهر مُتخيّلاً النجاشيَّ وهو يتكلّم أمام العالم بأكمله، المتجمّعِ في هذا المبنى، عن بلده التي احتُلّتْ للتوّ وتتراكب الصورة مع صورة شافين التي لم تكن البسمة تفارقها وهي على طريق كوركوسك، داخل ذلك البيك آب الذي كان متّجهاً نحو الشمال، صوبَ جبال سنجار. لماذا هو دائمُ التفكير بها؟ ربّما لأنّ الانتصارَ كان يلتمع في عينيها. بينما هو، أيُّ كلماتٍ يستطيع أنْ يضعها على ما يفعلهُ في الوقت الراهن؟

الآن، يصغون إليه بصمت متأمّلين على الأرجح ألّا تستغرق الكلمة وقتاً طويلاً، مستعجلين على العودة إلى فنادقهم، إلى التنزُّه على ضفاف البحيرة وأن ينسوا سريعاً هذه اللحظة المزعجة حيث رجلٌ قصيرٌ لا يتعدّى طوله متراً و50 سنتمتراً، إمبراطور مخلوع لمملكة بعيدة، يصارحُهم بحقيقتهم. يُصغون إليه بصمت وقد بات صراخ الصحفيين الإيطاليّين البغيض منسيّاً. كلماته هي التي تهيمنُ الآن على المجلس. يتكلّم عن غازات الخردل التي رُشّتْ على الفرق الأثيوبيّة وحتّى خارج ميادين القتال، على المواشي، على القرى. حربٌ شاملة لإرهاب بلد بأكمله. «... تِقنيةُ الخوف هذه نجحت. الناس والحيوانات قضَتْ جرّاءها، مطرُ الموت النازل عليهم من الطائرات كان يرفع صرخات الألم ممّن يصيبُه...» يقول كلَّ شيء وهذا يستغرق وقتاً. إلّا أنّه لن يعفيَهم من أيّ تفصيل. هو لا يستجدي الشفقة ولكنّهم لم يفهموا بعد. «... جميع الذين شربوا من الماء المسمَّمِ أو أكلوا من الطعام الملوّث ماتوا أيضاً مصحوبين بآلام فظيعة...» يرى، هو، هذه الأجسادَ المعذّبة، تحت عينيه. يعلم أنّه كان يُمكن أن يكون واحداً منهم. يزداد صمت المجلس وطأة. ثمّة ما يطوف في الهواء لا يمتُّ بصلة للشفقة التي يمكن أن نشعرها نحو مهزوم. كما لو أنّ أحداً لم يخبرِ الرجل القصير، في زيّه الذي لا

تشوبه شائبة، ويتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة، الواقف باستقامة بأنّ جيشَه قد هُزِمَ وبأنّ بلده احتُلّ. «... لهذا السبب قرّرتُ الحضور شخصيّاً وتقديم شهادتي أمامكم عن الجرائم التي اقترفَتْ على شعبي وأُوجّه إنذاراً إلى أوروبا عمّا ينتظرها فيما لو خضعَتْ للأمر الواقع...». ترفع وفود الدول الرؤوسَ ناظرةً بدهشة إلى الرجل الضئيل. إنذاراً...؟ هل سمعوا جيّداً...؟ نبرة صوته حازمة. حينئذ يدركون بأنّ من يتكلّم ليس مغلوباً، ليس ملكاً مهزوماً يتوسّلُ الصدقات. فهل التاريخ باق على تردُّده؟ يستأنفُ كلمته، ويشعر بقوّته تزداد. لا يمكن لشيء أن يزعزعَه. إنّه سليلُ الملك سليمان فما الذي بوسع بادوليو وغراتسياني أن يفعلاه أمامه؟ إنّه من سلالة ملكة سبأ وما أتى ليقدّمه هنا ليس استرحاماً. يبدأ ممثّلو الدول يستشعرون ذلك ويصغون بانتباه أكبر. الإمبراطور الواقف أمامهم يدفنُ، ليس إثيوبيا، وإنّما العصبةَ التي تُعقَد جلستهم في مقرّها. هذا ما يقوله. «... أؤكد بأنّ القضيّةَ المقدّمة إلى المجلس اليوم تتعدّى بكثير إيجاد حلّ للاعتداء الإيطالي... ما هو على المحكّ هو الأمنُ الجماعيُّ. ما هو على المحكّ وجودُ عصبة الأمم بحد ذاته...». ويواصِلُ، يردُّ باتّهام على كلّ انتهاك: الصمتُ السابق، خذلانُهم مراراً، الوعود الكاذبة، الحظْرُ الذي لم يرفع يوماً، الأحاديثُ الجبانة التي تدور في الأروقة. «... ثقةُ الدول في المعاهدات الدوليّة التي تُبرَمُ على المحكّ. التعهّداتُ بضمان أمان واستقلال الدول الضعيفة على المحكّ...»، بات الجميع يُصغي الآن. الرجل الذي أمامهم لم يعدْ يأسَى على بلاده وإنّما يعلنُ شهادةَ وفاتهم للتوّ ويبدو قويّاً، أشدَّ صلابةً من جميع مندوبي الدول الحاضرين. خسر كلَّ شيء، بلى، وسوف يعود غداً إلى باث وستتنفّس سويسرا الصعداء بأنّه لن يسعى إلى البقاء على ضفاف البحيرة لأنّها لن تعرفَ ما الذي ستفعله بضيفٍ مُربكٍ إلى هذا الحدّ. سوف يشعر بالبرد لثلاث سنوات أخرى ولن تحتمل الإمبراطورة الزكام أكثرَ فترجعُ إلى القدس وتتركه بمفرده، يحصي الأيّام ويتابع بعصبيّة تقلّباتِ الحرب، آملاً بأن تمنحَه إنكلترا فرصة الانضمام إلى شعبه. سوف يشعر بالبرد، ولسوف ينتظر

ليالِيَ بطولها، لكنْ في الوقت الحاضر، هو يقف أمامهم ويقول لهم بأنّهم ماتوا، هناك، معه، على أرض معركة ماي شيو، بينما كانوا يهنّئون أنفسهم لعدم تدخُّلهم في القتال «... الأخلاقُ الدوليّةُ على المحكّ»، والجميع يفهمه حين يقول ذلك، يقول بأنّه لم يعدْ لها وجود، وأنّ كلّ شيء مات هناك. يُنهي كلمته سائلاً الشعوب الحاضرة عمّا هم مستعدّون لفعله من أجل إثيوبيا، لكنّه يعلم بأنّ الجواب: «لا شيء»، يعلم بأنّ الذين يُصغون إليه يتبدّدون للتوّ في حَيرتهم، وهذا ما أتى ليقوله لهم، إنّهم خسروا، دون حتى أن يدركوا ذلك، وأنّ عصبة الأمم لم يعد لها وجود، لأنّه من الآن فصاعداً لن يؤمنَ بها أحد، وحين يغادر القاعة تحت هدير التصفيق، يشعر، للمرّة الأولى منذ الليلة التي غادر فيها أديس أبابا، بما يشبه الانتصار، كأنّ هذا الغناء الطويل لمهزومٍ الذي ألقاه للتوّ كان يكنسُ الشتائم ويعلن عن أفراح لا تزال غيرَ مرئيّة.

سوف يذهب إلى أديس أبابا ويُقابل جوب ثانيةً. سوف يكونُ الأمريكيّون هناك مِنْ ورائه، ولسوف يستَعملونه كطعم. هذه هي الكلمات التي ينبغي وضعُها على مهمّته. عليه إشغالُ جوب فيما يقرّر الآخرون مصيرَه. هل لهذا العمل صلةٌ بالوطنيّة؟ ألا يُدرجُه هذا ضمن فئة المرتزقة؟ عناصر ميلشياتٍ خاصّة، مفاوضون، قدامى رجال أجهزة الاستخبارات الذين تحوّلوا إلى موظفين في شركات حمايةٍ، الذين تعجُّ بهم البلدان الرازحة تحت نير الحرب. هل هكذا سينتهي به الحال أيضاً؟ في بلد نفطيّ يساوِمُ فيه على براعته مجموعاتٌ تجاريّة فرنسيّة عملاقة مبهورةً بمآثره العسكريّة؟ بالطبع ليس هذا ما دفعه ليكونَ ما هو عليه. ليس هذا ما يرغَب. كان يريد أن يكون في خِضمّ التاريخ ـ ليس أن يعترفَ به (ليس هذا مُبتغاه) ولكن أن يشعرَ به، ويتواجدَ في الأماكن التي يبحث فيها التاريخ عن نفسه، حيث يتشنّج، ويتردّد، متّخذاً أشكالاً مُخيفةً، لا يمكنُ وصفُها. أن يشعرَ بنفحته، ويرى كيف يُشكّلُ بلداناً، ويشوّه

حيواتٍ، ويخلق فضاءاتٍ متفرّدةً. هذا ما أراده منذ البداية. وقد شعر مراراً بتلك النفحة؛ أثناء عملية سرفال أو حين كان مدرّباً في كردستان، وحتّى في سرت أيضاً، التاريخُ هو مَنْ وضع للقذّافي قناعاً متورّماً. شعر بها في أفغانستان. كانت مُخيّبةً حيناً، ومخيفةً في حين آخر، إلّا أنّه كان حاضراً هنالك في النبض الحيّ لمجرى الأحداث، في الدُّوار الذي يصيب المرء وهو يرى في بقعة معيّنة كيفَ يقلِبُ قرارٌ بسيط الأمرَ برمّته، شعر بها مجدّداً، ويدرك بأنّ سوليفان سيكو انتابه الشعور ذاته وأحبَّه. هذا ما يتقاسمانه. ولهذا السبب أعطاه موعداً في أديس أبابا. لأنّهما أَخَوان في العمق. وبئس الأمر إذا كان يعلم، إذا لا يستطيعُ التجاهل، بأنّهما حين سيلتقيان ثانيةً، سيكون ذاك فخّاً. دعاه جوب إلى الموعد الثاني ليقول له بأنّهما متشابهان. هو أيضاً عرف هذه اللحظاتِ من تمدّدِ الوقت حيث تطول الثواني ويتردّدُ التاريخ. هو أيضاً ضغط على زناد سلاحه، ثلاث رصاصات، بصوت مكتوم، الجسد الذي يسقط، الجسد الذي بالكاد تسنّى له رؤيتَه، جرى الأمر بسرعة، دائماً يجري بسرعة، يجري ذلك دون مشاعر، بتوتُّرٍ، ولكنْ دون خوف أو بهجةٍ، لأنّ الوقت لا يتّسعُ، ثلاثُ طلقات والعالم برمّته سيعلم بأنّ قصّةً تنتهي، السنوات العشرُ من تعقُّبِ الإرهابيّ الذي تحدّى الولايات المتّحدة، وسوف يوصفون بالأبطال، غير أنّهم يعلمون بأنّ الوضع بكامله كان يمكن أن ينقلبَ في اللحظة التي حطّت فيها الحوّامة في باحة منزل أبوت آباد، مع تلك الحالة من فقدان التوازن، وتحطُّم شفرات الحوّامة، كان يمكن لتلك الليلة أن تكون ليلةَ إخفاق، وأن نجدَ جُثث جنود أمريكيّين قتلى، وأن تُطالبَ الباكستان بتفسير، ولكانتِ القاعدة اختالتْ متباهيةً، يعلمون أنّ الأمر برمّته متعلّق دائماً بتفاصيلَ صغيرةٍ جدّاً، ردّةُ فعل الطيّار، استجابة عضلة معصمه، التي تؤدّي إلى أن تحطّ المركبة بالرغم من جميع المصاعب وهذه الحركة التي تنقذُهم تأخذهم مباشرةً إلى الطلقات الثلاثِ لأنّه من اللحظة التي تحطّ الحوّامةُ فيها يكون التاريخ قد اختار ولم يبقَ عليهم سوى اجتيازِ الطريق الذي بسطه أمامهم. في العمق يُحبّ تلك اللحظات، لحظاتِ

تردُّد التاريخ. ترى ما الذي اختاره لجوب؟ هل لذلك كلّه أدنى أهميّة؟ لا، على الأرجح لا. لأنّ جوب لا يُصارع إلّا من أجل نفسِه. بالحريّ معرفةُ ما الذي اختاره التاريخ لشافين. لهذا يحسبُ الحساب، أجل... في الحقيقة، ربّما كلُّ ما يحصل يشعره بالامتعاض؟ كأنّه يُجبَرُ على رؤية ما هو عليه، ما لم يخطرْ في ذهنه قطّ أن يُصبِحهُ. هذا الشعور بالإحراج أمام الذات، ربّما هو علامةُ الهزيمة؟ سوف يضطرّ أن يسأل جوب إذا ما كان قد سرق حقّاً جزءاً من الهيكل العظميّ لبن لادن، وإذا كان قد فعل، فأين يخفيه. سوف يضطرّ للتكلّم والتصرّف كما لو أنّ للأمر أهميّةً، في حين هو لا يكترثُ لذلك. لا يستيقظ أبداً وهو يتساءل تحت أيّ كثيب رمليّ في أيّ بقعة من الصحراء الليبيّة دُفِنَ القذافيّ. أمّا جسدُ الإسكندر الكبير، فبلى. جسد هنيبعل أيضاً. ينطوي داخلَ هذين على ارتعاشةٍ. لأنّ كليهما كان مفعماً برؤيا، إذ إنّ كِلَا الجسدين لرجلين رأيا التاريخ يتخلّى عنهما بينما كان بوسعهما تسيّدهُ، لأنّهما رجلان صرعا عوالم ووضعا كلماتٍ على عوالمَ جديدة. جوب يدرك ذلك. ويُحتمَلُ إذا كان لديه حقّاً ظنبوباً، إصبعاً أو ضلعاً للسعوديّ، أن يُغرقه هذا في أسى أعمق لأنّه على خطأ وهو يعلم ذلك. لا تكفي حرارةُ التقوى لتصنعَ ذخيرة. يجب أنّ تكون الجثّة لرجل كان قد أرعدَ بقيّةَ الرجال، منَ المفاجأةِ أولاً ومنَ اللهفةِ لاحقاً.

-VIII-

باريس

تعيدُ تزريرَ قميصها وهي جالسةٌ على طاولة المعاينة. جسَّ الطبيب ثدييها. يداه باردتان. أجفلَتْ. ثمّ حاولتْ تركيز انتباهها كأنّها تريد أن تعلمَ بماذا تشعرُ تلك اليدان، والبحثَ معهما عن العدوّ، وتعيينَ حدوده، وإشعاره بإرادتها بأن تحيا، أن تقاومَ. «ينبغي أن تفكّري بنفسك قليلاً...» قال الطبيب حلوش وهو يرفع عينيه بابتسامة لطيفة من وراء نظارته. أنهى تصفُّح ملفّها بالعينين. «... سوف تحتاجين لكامل قوّتك من أجل هذا الصراع... هل أنت مُحاطةٌ بأحد؟». لا تجيب مباشرة. مُحاطةٌ بأحد؟ بلى، هي كذلك. مُحاطةٌ بجميع الرجال الذين أحبتْهم. هؤلاء الذين تتذكّر أسماءهم، مروان، عاصم، والذين لم تعرف أسماءهم قطّ. بلى، هي مُحاطةٌ بالتماثيل التي عملتْ عليها. بالمجوهرات الآشوريّة. بالعمالقة الضخام لخورسباد الذين هم هنا في داخلها، لأنّ هذه هي حياتها. وأيضاً بوتا هنا، وماريت باشا، وهرمز رسام، هل بوسعها قولُ ذلك؟ هل هذا ما يسألُ عنه؟

يهبط الليل على أديس أبابا. يختفي جبلِ أنطوطو على مهل، وما من نَسَم. يرجع عاصم إلى فندق ماكونين سيراً على قدميه. الرطوبة في كلّ مكان، تغلّفُ أجساد النساء في الأسواق، تغطّي واجهاتِ المباني، في الجلبة المتواصلة للشارع، الرطوبةُ في نظرات العابرين ووهن الأطفال. يشعر بالحزن ويمضي دون تعجُّل لأنّه لا يريد الوصول سريعاً. لا يريد النوم في تلك الغرفة الصغيرة الخالية، بلا روح، وما من ساعة سوى مروحةِ السقف. لا يريد أن يستيقظ في صباح الغد، وهو يتصبّب عرقاً

ـ رطوبة... رطوبة... إلى حدّ تذوبُ الأجساد معه ـ ويذهب إلى الموعد الذي قطعه له جوب. كلّ شيء سيغدو بشعاً. سيكون الأمريكيّون في المكان. خرج من اجتماع معهم في السفارة. اللهجةُ تغيّرتْ. لم يعد أحدٌ يطلب منه تقييم سوليفان سيكو. لا أحدَ يطلب منه أن يكون له رأي. إنه طُعم فحسب. شرحوا له لمدّة عشرين دقيقة ما الذي سوف يحدث: سيتركون له الوقت لكي يسلّم عليه، لكي يتكلّم قليلاً، ولكنْ عليه أن يجدَ طريقة للخروج بسرعةٍ. سيكون عليه أن يؤكّدَ لهم بأنّ جوب موجودٌ بالفعل، ثمّ لا يتبقّى عليه سوى الاختفاء وهم سيتكفّلون بالباقي.

لطول الوقت الذي صمتَتْ به بعد السؤال فهم الدكتور حلّوش. فلم يُصرّ. يحدّثُها الآن بوجهه اللبنانيّ الشغوف، ويديه الضخمتين ـ لم ترهما بهذه الضخامة حين كان يتلمّسُها ـ، عن الإجراءات التي ستُجرى على جسدها وما سينجمُ عنها. عند هذه المرحلة يكلّمها بهدوء كما لو كان يكلّمُ طفلاً، وحين أنهى تبسّمَ وسأل: «لديك أسئلة؟». لديها، أجل. هل سأموت؟ هل لديها الحقُّ في طرح هذا السؤال، السؤال الوحيد الذي يحرق شفتيها؟ هل ستموت؟ أجل، بالطبع ستموت. ليس هذا ما ينبغي أن تسأله. عمّا قريب؟ هل ستموتُ عمّا قريب؟ غير أنّها لا تسأل شيئاً، تحجِمُ، وتجيب بصوت خافت «لا». فيتناول جدول مواعيده ويسألها: «متى يمكنك الرجوع؟ ينبغي أن نبدأ بأسرع وقتٍ ممكنٍ». كما لو أنّه يجيب عن السؤال الذي لم تتجرّأْ على طرحه. فتفتح مفكّرتها، تتشوّش قليلاً، وفجأة تعود إليها أبيات كفافي: «أيّها الجسَد، تذكّرْ، ليسَ فقط الشّغفَ...» وأكثر منها، صوت عاصم المُفعمةَ به، خامة صوته تماماً، وإيقاع أدائه: «أيّها الجسَد، تذكّر...» وذلك يملؤها قوّةً، كأنّه عانقها للتوّ وهمسَ في أذنها، لأجلها فقط، كلماتٍ صائبة، ليستْ مُواسيةً، ليست مبهجةً، وإنّما حقيقيّة. فترفع رأسها ويرى الطبيب حلوش فيها تصميماً يُفاجئه وتقول بصوت حاسم: «في الأسبوع القادم متى تشاء...».

حين يصلُ شارعَ هيلا سيلاسي، تقف سيّارة بمحاذاته. يمدُّ السائقُ رأسه من النافذة المفتوحة ويسأله: «تاكسي؟» يومئُ بيده نفياً وتنطلق السيّارة بهدوء. يسير. يأخذه ذهنه دوماً إلى سوليفان سيكو. يتذكّر اللحظة التي تناول فيها كُلّاً من كريس كايل وإيريك مادوكس، بطلا الوطن العائدَيْن إلى بلادهما، إلى الحياة المدنيّة، والبطن المكوّر من شرب البيرة وسهرات البار حيث يُكرّر للمرّة العاشرة أحداث الهجوم الذي حصل قربَ الفلّوجة، بالفم الذي يزداد ترهُّلاً والنظرة التي تزداد تدلّياً. لقد تحدّثَ عنهما باشمئزاز. مؤتمرات مادوكس، حيث يتدلّى الميكرفون من الأذن وكُمّا القميص مشمّران إلى المرفقين، ويذرع المنصّة جيئة وذهاباً كما لو أنّه يؤدّي عرضاً هزلياً، مُطعّماً حكايته بدعابات قصيرة مُجرّبة. لقد تحدّث عن كلّ ذلك وصوته مشوبٌ بالذعر. هل قرّر التنقّل بين بيروت وأديس أبابا ليهربَ من الحياة المدنيّة تلك؟ ليُطيلَ زمن الخطر فلا يرجعُ إلى حياته السابقة؟ ألأنّه يشعر بأنّ السلام على الأرجح يحطّمه أكثرَ من ليالي الحوّامة في سماء أفغانستان؟ يتفهّم ذلك. يتذكّر آخر رحلة له إلى كردستان العراق. حين ذهب لتدريب مجموعةِ الشابّة شافين. في طريق العودة، توقّفتْ رحلته في فيينا. يتذكّرها، تلك الساعاتِ التي قضاها في مبنى المطار... كان مُغادراً أربيل ومخيّماتِ التدريب الكرديّة. كان مُغادراً النظرة الصريحة لشافين التي تقاتل لأنّ داعشَ اختطف أختها أثناء سيطرته على جبل سنجار. كان مُغادراً مُخيّماتِ اللاجئين، وجميع تلك الأمّهاتِ ذواتِ الوجوه المنهكة اللائي يتأمّلْن أبناءَهُنّ وهم يلعبون في الطين لاعناتٍ أنفسهنّ لأنّ ليس لديهنّ سوى ذلك يقدّمنه لهم. كان قد غادر كلّ ذلك وبالكاد بعد ساعتين، بغتةً، وهو يخرج من الطائرة، ورائحةُ كردستان لا تزال عالقةً على سترته، تمتدُّ محال Duty free على مدّ البصر، وتنبعث أنغام الفالسات الفيينيّة في أجواء الأروقة كافّة. كان شهرُ كانونَ الأوّل، الألعاب طبعاً على قمّة المعروضات كما باباوات نويل المزيّفة... كان قد وقف مشدوهاً، لا يعرف ماذا يفعل، عاجزاً عن النطق، عاجزاً عن تصديق أيّ شيء. إنّه

العالم نفسه. لا تكاد تفصله سوى ساعتين من الطيران. العالم نفسه: هذه البائعة بشعرها المُضفّر وفستانها التيرولي[1] السخيف المكشوفِ الصدرِ الناهضِ الثديين، لكي يتوقّفَ رجال الأعمال ويشترون علبة شوكولاتة أو سجقاً مغلّفاً بالسيلوفان، تعيش في العالم نفسه الذي تعيش به شافين، التي تتدلّى عن كتفها بندقيّةٌ أوتوماتيكيّة، أو عالم أطفال مخيم كوركوسك الحفاة، الذين لم يفهموا بعد، لأنهم لا يزالون صغاراً جدّاً، بأنّ أمهاتهم يذبُلن، في كلِ يوم يمرّ، وعمّا قريب لن تظلَّ في داخلهنّ بسمةٌ. إنّه العالم نفسه، فظٌّ أن يكون مُختلفاً إلى هذا الحدّ، بين مكانين متجاورين. تتابع البائعة ذاتُ الضفائر الشقراء بضربات خفيفة إيقاع هذا الفالس الشائع في المتاجر دون أن يعتريها أيُّ شك أنّ لشافين وجوداً، كما ليس لجنود البشمركة متّسعٌ للتفكير بأنّه قد يوجد مكان حيث تتكدّس فيه الساعات في علبٍ بلاستيكيّة ويُباع فيه السُّجقُ على أنغام الموسيقى. المشقّة الأكبر تكمن في هذا الانتقال من مكان إلى الآخر. وهذا ربّما ما أودى بجوب... أيُطلبُ منه بعد أحداث ليلة أبوت آباد، بعد حاملة الطائرات والتشييع حيث قُذفتِ الجثّة إلى البحر، أن يرجعَ إلى بيته، إلى بلدته في ميشيغان، ويصافحَ جيرانه، ويأخذ بيك آبه إلى أقرب مول ويملأ برّاده بمعلّباتِ اللّبن؟ كيف بوسعنا فعلُ ذلك دون أن تُمزَّقَ بعضٌ من أرواحنا في كلّ انتقال من عالم إلى الآخر؟

لم ينبسْ هنيبعل بحرف. منذ يومين لم يكلّمْ أحداً. الأمواج تهدهدُ السفينة. لا شيء يظهر في الاتّساع سوى السماءِ الرماديّةِ المتماهية بلون المياه المعدنيّ. يغادر الشطآنَ الرومانيّة عائداً إلى قرطاجةَ، مُخلّفاً وراءه انتصاراته ووقائع ملحمته. لم يعُدِ الرومان يرتعدون. في أيّ وقتٍ بدّلَ الخوف معسكره؟ هل حصل ذلك حين نجح سيبيون في الاستيلاء على

1ـ الزيّ التقليدي لولاية تيرول النمساوية والواقعة وسط أوروبا.

قرطاجنة[1] ووضع يده على خزينة الذهب الضخمة والعَتَاد الحربيّ؟ كان كلُّ شيء على الدوام رهناً بشبه الجزيرة الإيبريّة. إنّها مفتاح هذه الحرب الشاملة التي تمتدّ من جبل طارق إلى اليونان. اعتقد لمدّةٍ هو وأخواه، بأنّهم سينجحون في جمع الجيشين البونيّين، جيشِه وجيشِ هازدروبال. كان عليه أن يهبط جبال كالابريا ليصعدَ صوب الشمال مجدّداً وعلى هازدروبال أن ينزلَ في شمال روما ويسير نحو الجنوب. إلّا أنّ هازدروبال هُزِمَ عند نهر ميتور. وهو، الآن، عند قدميْه، هنا على جسر السفينة هذا المبتلّ بالرذاذ، في هذا الكيس الذي تنبعث منه رائحةٌ نتنة. إنّه هنا، عائد إلى مسقط رأسه، مهزوماً. لن يرى هو ولا ماغون قرطاجة بعد اليوم. مدّ له أخواه يدَ العون في المعارك التي خاضها وها هو اليوم يعيدهما إلى أمّهما أشلاءً. لقد أتى ذاك اليوم الذي جُلِبَ له فيه سلّة من الصفصاف مُرسلةً من الرومان، ذاك اليوم الذي مزّق له روحَه. كان داخلَ السلّة رأسُ هازدروبال، بصعوبة يمكن التعرّفُ عليه، متورّم الوجه، جافّ الفم، وشعرهُ ممرّغٌ بالطين. أرسلوا له رأس أخيه ليربكوه، ويدفعوه للخروج عن طوره، ليصيبوه بالجنون. أعاد طلبَ سردِ تفاصيل معركة ميتور ممّن شهدَها عشراتِ المرّات. أخبروه أنّه حين أدرك هازدروبال بأنّه يُهزم، اندفع هاجماً على عدوّه مباشرة. أبى أن يظلّ حيّاً بعد هزيمته. كان يدرك تماماً بأنّه إذا هُزِمَ في معركة ميتيور فلن يلتقيَ الجيشان أبداً، وإذا لم يفلحا في ذلك، فسوف تكون هزيمةُ روما ضرباً من المستحيل. لذا هجم على صفوف العدوّ مباشرة لكي يموتَ وهو يقاتل. ماغون هلكَ أيضاً. سقط عن الحصان إثر طعنةٍ في الفخذ. نجح رجاله بانتزاعه من أرض المعركة، وإعادته على متنِ إحدى السفن التي كانت تلقي مراسيَها في عرض بحر جنوة، لكنّ الحمّى أودَتْ به وهو على ظهر السفينة وسطَ الروائح التي لا تُطاق للقيح والبخور. يفكّر بهما،

1ـ مدينة إسبانية على شاطئ المتوسط، يعني اسمها قرطاجة الجديدة، بناها هازدروبال (صهر هملقار) في 227 ق.م.

بهذه الحرب التي افترست أحبَّ الناس إليه ويصمت، لأنّ ما منْ شيءٍ سوى الصمتِ بوسعه أن يحتضنَ هذا القدْرَ من الموتى.

يسير عاصم في شوارع أديس أبابا حيثُ، أكثرَ من مرّة، يدفع وجودُه طفلاً للتلفُّت، وما إن يعبَر، يشدُّ ثوبَ أمّه ليقول لها، بنبرة متواطئةٍ: «أرأيت، أمي، الأبيض...؟». يسير ويقول في سرّه بأنّه غير واثق من قدرته على البقاء حيّاً بعد أن يتغيّرَ عالمه، في اليوم الذي سيقول له أوغست بأنّه قد أبلى بلاءً حسناً، وأنّ ما من مهمّة أخرى في الوقت الراهن ويستطيع أن يذهبَ ويستريح. يودّ لو يتحدّثُ مع جوب عن ذلك. غداً. في حيِّ أسد يهوذا، في الطابق الثالث من المبنى الذي ينتظره فيه، ولكنّه يعلم أنّهما لن يستطيعا ذلك. لن يتركوا لهما الوقت. وكلّما تقدّم في سيره، تكبرُ في داخله فكرةُ أنّه يخون سوليفان سيكو. ويأمل بأنّ الآخر، بحدّةِ بصيرته كهاذٍ، توقّعَ كلَّ شيء. يأمل بأنّ جوب يسخر منه، ومنهم، ومن الجميع، وبأنّه يعرف كيف يُفلِتُ منهم.

انتصارٌ عسكريّ. هذا ما يحتاجونه. يجبُ أن تسقط واحدة من مدينتي بيترسبورغ أو أطلنطا الكونفدراليتين، اللتين يفرضون الحصارَ حولهما منذ أشهر. يجب أن تسقطا، وإلّا فلن يُنتخَبَ لينكولن من جديد. وعلى هذا يعقد جيفرسون ديفيس وروبرت ليْ أملَهما. يريدان كسبَ الوقت. إذا استطاعا مقاومة الحصار حتّى الخريف، فسيصوّتُ الاتحاد للديمقراطيّين وعندئذ سيُبرم سلام. ليس سوى انتصارٍ عسكريّ بوسعِه إنقاذُ معسكر الاتّحاد، إذ إنّ كلَّ شيء، يتدهور، لا شيءَ يسير كما يرام. يُدخّن غرانت سيجاراً عقِبَ سيجار، يجافيه النوم. يتمنى لو يجيب زوجتَه، التي ترسل له كلماتٍ مفعمةً بالمراعاة والحنان، بأنّ بركة دم تحولُ بينهما. يخطر له أحياناً بأنّ أفضلَ ما يفعله هو الابتعاد عنها. فأيُّ حياة ستكون ممكنةً بعد كلّ ما حدث؟ كيف سيقوى على نسيان

رائحة البارود، ومنظر الجثث؟ أمضى زمناً طويلاً في الحرب. فتيانٌ قضوا نحبهم لأنّهم أطاعوا أوامره. ومع ذلك، لا تكفُّ جوليا تكلّمهُ عن لينكولن، وتحثّه على التشبُّث بكلمات الرئيس. لا بدّ تستشفُّ بأنّه يضلّ طريقه. تكرّر، على مدى الرسائل التي تبعثها إليه، بأنّ التاريخ سينصفُهم، وأنّ إلغاء الرقّ تقدُّمٌ له أهميّة قصوى، غير أنّه لم يعدْ يسمع، حتّى إنّه لا يعيدُ قراءةَ الرسائلِ كي لا يسمحَ للكلمات بأن تمسّه. كلُّ شيء يبدو له بعيداً جدّاً. رسائلُ شيرمان فحسب تمنحه بعض السكينة. إنّهما يتكلّمان اللغةَ ذاتها. يعلن له صديقهُ، في رسالته الأخيرة، موتَ الشّاب مكفيرسون، ضابط ألمعيّ بعمر الثلاثة والثلاثين، أُطلِقَ عليه الرصاصُ وهو مُمتطٍ حصانه تحت جدران أطلنطا لأنّه رفض تسليم نفسه. بكى شيرمان حين جلبوا له جثته. كم من الشبّاب مثل هذا سيلزم دفنهم بعد؟ خيرةُ شبّان الأمّة. كم من الرجال كان يمكنُ أن يواصلوا حياتهم، وفي يوم ما، أن يقودوا البلاد؟ مكفيرسون كان يمتلك مواهبَ استثنائيّة. «سيبزُّني أنا وغرانت»، كان يكرّر شيرمان على الملأ والآن لم يعدْ أكثر من جثّة هامدة، نُكرّمها إلّا أنّها باتتْ بلا نفع أبداً. يا للخسارة. أشهرٌ بأكملها من الخسارات... لا يريد سماع أحد يتكلّم عن قضيّة عادلة، عن كفاح من أجل الحريّة. ما عاد يطيقُ الاحتمال. يريد فقط أن يحتلَّ شيرمان أطلنطا. لا شيءَ آخر سيوقفُ جريان الدم. يجب أن تسقطَ أطلنطا أو بيترسبورغ. ولكن إلى اللحظة لا شيءَ يتحرّك.

يجتاز المتوسّط، ثمّ يُقفِلُ عائداً إلى قرطاجة مدركاً أيّ أوانٍ يبدأ الآن، إنّه أوانُ السيّاسة، أوانُ التحالفاتِ والخيانات. لأوّل مرّة منذ ثلاثَ عشرةَ سنةً، يفقد المبادرة على القتال. روما هي التي تلعب الآن، روما التي تستفزّه بإرسال رأس أخيه كما استفزّها في الماضي بحرق أراضي توسكانا. عرف إلى الآن الكثير من المحنِ، الألمِ، عرف الفظاعةَ، الخوفَ من ميدان المعركة، الأحشاءَ الممرّغة في الوحل والرجالَ

الذين يئنّون في نزعهم الأخير، ولكنّ النصر كان حليفَه دوماً في خاتمة كلّ جولة. وكان ثمّة لديه ما يقدّمه للذين ينجون. وكان ذلك كافياً. فلم يفكّرْ أيٌّ من رجاله يوماً بالعصيان، بالتمرّد، بنسج المكائد، بالانتفاض عليه. ولا أدنى تذمّر يَندُّ عن عدم الطاعة. حتى الإسكندر الكبير تخلّى عنه رجاله عند ضفاف هيداسبس. أمّا هو فلا. ظلّ رجاله مخلصين له. ولكن من الآن فصاعداً سيتسلّل الخوف إلى نفوسهم. من الآن فصاعداً ستغدو الهزيمةُ ماثلةً أمامهم في أماسي المخيّم، لتُضاعفَ من إنهاكهم. سيتطلّب الأمر منه قيادةَ جيشه رغم العقبات، والمحافظةَ على رباطة جأشه، وأن يصمدَ. سيتفكّكُ المعسكر القرطاجي. وإذا كان يريد أن ينتصر، فعليه أن يكسَب هذه الحرب التي لا تُخاض في ميدان القتال: تكميم حانون، ومنع ماسينيسا أن يُغيّرَ تحالفَهُ. يتأمّل البحر ولا يزال عند قدميه الكيسُ الذي فيه رأسُ أخيه ويأمل بأن يَلقى، هو أيضاً، إذا كان سيُهزَمُ، حتفَه قبل هزيمته.

معظم الرجال يندفعونَ نحو خطّ المواجهة وهم يصرخون لأنّ لا خيارَ أمامهم سوى ذلك، لأنّهم خائفون جدّاً. شيرمان، ليس كذلك. القيظ خانق، تسيل قطرات العرق على فروة رأسه تحتَ القبّعة، غير أنّه يحافظ على استقامته فوق حصانه. تتطلّع الرجال إليه لتستمدَّ منه الشجاعة، يعلم ذلك. كما يعلم أنّ في تلك اللحظات، لحظاتِ العنف الضارية في القتال، بوسعه المحافظةُ على هدوئه. من أين اكتسب هذه الموهبةَ، لا يدري، إلّا أنّ الأمر جرى هكذا دائماً. إنّه مجنون. لم ينكرْ ذلك يوماً. الجميع يردّد: شيرمان رجل مُختلّ. تتآكله سوداويّة مرضيّة، ولديه مزاجٌ مُتقلّب وينتابه ما يدعوه رجالُه «أطوارُ غرائبيّة» ـ ولكن ليس في ساحات القتال، البتّة. تحت النيران يهدأ كلُّ شيء، ويرى الأشياءَ بوضوح. وبدل من أن يشلّه الخطر المُحدق به، يعزّز قدرتَه على التركيز. يعلم بأنّها موهبةٌ: رباطةُ الجأش أثناء المعركة، كما غرانت أيضاً، وجميعُ

محاربي التاريخ الكبار، القادرين على انتهاز الفرصة في الاشتباك، أن يروا الثغرةَ التي يمكن التسلّلُ عبرها وقلبُ مجرى الأحداث. هو هادئٌ. يرى ما ستكون عليه مجريّات المعركة: مصيرُ كلّ شيء معلّقٌ بالسكّة الحديديّة، جنوب أطلنطا. هناك يعطي الأمر بالهجوم، لأنّ في ذاك المكان يمكنُ لكلّ شيء أن يتداعى.

يسير عاصم في شارع هيلا سيلاسي بينما الليل يهبط. يسكنه صوتُ عمّه، يُغيظه ذلك ويرهقه. هذا آخر ما تمنّى أن يذكره اليومَ غير أنّ ذهنَه قد قرّر على ما يبدو أن يزيدَ في تشتّته. عمُّه داميان أستاذ السياسة الدوليّة في معهد الدراسات السياسيّة، الشغوفُ بالشعر، عمُّه الذي وضع بين يديه قصائد بازوليني، درويش، سيزير لكي يُطلِعهُ على صوت العالم المتمرّد. يسمَعهُ هنا في شوارع أديس أبابا ذاتِ الإضاءة السيئة، عمُّه الذي يقول له: «رجلٌ حرّ، بئسَ الأمر...! هذا ما كان يمكن أن يتمنّاه أبوك». لا يريد تذكُّرَ ذلك لأنّ الحزن كبير جدّاً إلّا أنّ الذكريّاتِ تتسلّل رغماً عنه، لا تدعُه الذاكرة في شأنه. يُعلن لعمّه للتوّ بأنّه ذاهب إلى سان سير[1]. فعل ذلك مبتهجاً بينما ظلّ الآخر يحتفظ، أمامه، بهيئةٍ جدّيّة مستحضراً ذكرى أبيه: «رجل حرّ... هذا ما أراده أبوك لابنه!»، مثلَ صفعة أتى وقعُ الكلمات. لا يريد مخاصمة هذا الرجل الذي يحبُّه، هذا الرجل الذي تولّى تربيته من عمر العشر سنوات حين قضَى أبواه في حادث سيّارة، لا يريد أن يصرخَ غضباً لأنّ عمّه فعل كلّ ما بوسعه لأجله ولسوف يساعده لاحقاً؛ حين قدّمه في أحد الأيام، بعد عودته من سان سير، إلى مدير قديم للـ DGSE[2]، ولاسيّما أيضاً حين وضع بين يديه شِعر إيلوار، ونيرودا. لا يريد أن يصرخَ ولن يفعل ذلك، يغادرُ فحسب. لن يعودا إلى ذكر

1ـ مدرسة فرنسيّة تدرّس العلوم العليا العسكريّة.

2ـ (La direction générale de la Sécurité extérieure): المديريّة العامة الفرنسيّة للأمن الخارجي.

ذلك البتّة. ولن يوجّهَ له عمّه اللوم ثانيةً، حتّى إنّه سيدعمُه، حين سيكون باستطاعته ذلك، ولكن هذه العبارة تبقى: «رجل حرّ...» لن ينساها يوماً. هل خان روح أبيه بتطوُّعه في الجيش؟ هل كان حرّاً، منذ عشرين عاماً، وهو يتنقّل منْ مهمّة إلى أخرى؟ أوليس هذا ما يريده سوليفان سيكو: التحرُّر من الجيش، من الطاعة، التحرُّر من ذاته، ومن كلّ شيء، كي لا يعيشَ سوى بطريقته، في الظلام.

حين يرسو على الشاطئ البونيّ، يشعر مباشرةً بالخوف الذي يخيّم على الرجال. يسبقهم الأسطول الروماني ببضعة أيّام. أسطولٌ هائل ألقى مراسيَه إلى الغرب قليلاً، كما يُقال، من ناحية جبل طارق. أغلقتْ قرطاجة أبوابها. الخوف، يراه في العيون، في الطريقة التي استُقبل بها. يدور في خلَد الجميع الأمر ذاته: إنّ الريح غيّرتْ وجهتها وروما، إذا لم ينجحوا في ثنيها، هيَ من ستبتلعهم. يُحكى عن أسطولٍ حربيّ هائل. مكوّنٍ من أربعمائة سفينة شحن مُحمّلةً رجالاً، وخيلاً، ومؤونة، وأسلحة، تصحبُها أربعون سفينة حربيّة. لم يُشهدْ له مثيلٌ من قبل. روما ترفع رأسها وآتية كي تلدغَ. لا ينبس بحرف، يكزُّ على أسنانه. مخطئون من يفكّرون بأنّ كلّ شيء قد حُسم. عليه العودةُ بأقصى سرعة ليمنع حانون من إشاعة الريبة، ليُقنعَ الرجال بأنّ المعركة لم تحسمْ بعد. ما يدور منذ ثلاثةَ عشرَ عاماً هو حرب على إمبراطوريّة. هل كانت قرطاجة تفكّر حقّاً بأن تخوضها دون أن تتألمَ؟ أو أنْ يقتصِرَ الألم على جندها؟ أتى الدور عليهم ليحتملوا لدغة الغازي على أراضيهم. لمَ لا؟ ستندلعُ النار في قراهم كما اندلعت في قرى توسكانا. سيرتعدُ المدنيّون، آملين بألّا يكونوا يوماً على طريق الجيوش. سوف تندلع الحرب في جميع الأرجاء. غير أنّه يعلم كيف يخوضها. سبق وأن عانوا مراراً، مُحتمِلين مشاقّاً لا يمكنُ تخيُّلها، مسيراتٍ إلزاميّة، ليال وهم يرتجفون من البرد، جبال الألب ومرتفعات كالابريا السوداء، تحمّلوا الكثير إلّا أن شيئاً واحداً لم يعتدْ عليه: قراءةُ

الخوف على وجوه المحيطين به. كلّما خاطبه أحدٌ، صافحه أحدٌ، لا يرى سوى الخوف، ليس الخوفُ الذي يستبق القتال، ليس الخوفُ من الألم أو الموت، أبداً، وإنما خوفٌ أشدّ قتامةً: الخوفُ بألّا تُكلّل في النهاية، كلُّ هذه الأشهر، كلُّ هذه السنين من المعارك بغير الهزيمة.

أخيراً يلتقط شيرمان أنفاسَه. لقد انتهى الأمر باستسلام الجنوبيّين. انسحبوا وأغلقوا على أنفسهم في أطلنطا. وما يبدأ الآن هو شيء مختلف. إسقاطُ مدينة فِعلٌ شائنٌ. الأمر أشبهُ بعملية خنقٍ بيدين عاريتين، وهي تستغرق وقتاً ولكن لم يعدْ ثمّة شكّ، لأنّ ليس بوسع المخنوق مهما تخبّط الفكاكُ منكَ. ترى فمَ عدوّك ينفتحُ متوسّلاً الهواء. تجحظ العينان، تشعرُ بالحياة، مشدودةً، عصبيّةً، تتخبّط، تريد الفرار، التملّصَ من الضغط. شيرمان يجيد فعل ذلك. فيخنقُ أطلنطا. يقصف المباني والشوارع، يقطعُ خطوطَ الإمداد إلى أن تنتهيَ أطلنطا بالسقوط. أخيراً. هدوء كبير يتردّد في داخله. هل ثمّة متّسعٌ للبهجة؟ هل يصيح غرانت، القابعُ تحت خيمته عند قدم بيترسبورغ، ارتياحاً حين يُعلَن له الخبر عبر برقيّة؟ ما منْ متّسع لغير الصمت، صمتٍ هائل من الإعياء. يسير شيرمان بين الرجال، ويهنّئ رجاله في المدفعيّة بجفاء ويتجهّز لدخول المدينة المدمّرة. ستصله بعد بضعة أيّام، رسالة من غرانت، الوحيد ربّما الذي يعلم ما الذي أعطاه مِنْ ذاته إلى هذه الحرب: «عزيزي الجنرال شيرمان، انتصاركَ هو أهمّ ما يمكن لجنرال أن يحرزَه خلال هذه الحرب. سيعترف التاريخ بأنّك أدرتَ حملتك بموهبة وبراعة لا تُضاهيان، بل لا نظيرَ لهما»، وسيفكّر بأنّها كلمات غريبة لوصف حالة خنق. لكنّه ليس بحاجة إلى قراءة هذه الرسالة ليعرفَ أنّه مع سقوط أطلنطا أُعيدَ انتخاب لينكولن للتوّ. ليس بحاجة ليعرفَ أنّ غرانت أمر بإطلاق مئة طلقة بندقيّة على جدار بيترسبورغ تحيّةً عسكريّة له ليسمعَ فرح معسكره وبشائرِ النصر. لا يقول شيئاً لأنّه يعلم بأنّ الأمر لم ينته بعد وحتّى، بغرابة، إن القادمَ هو

الأسوأ. سيتوجّبُ مطاردة العدوّ، ومضايقته. شيءٌ ما يبتدِئُ الآن وهو أقرب إلى الانتصار إلّا أنّه ـ يدرك ذلك وهو على يقين بأنّ غرانت يدركه أيضاً ـ سيكون قذراً، أقذرَ منْ كلّ ما فعلوه حتى الآن.

عند مغادرتها مبنى الطبيب حلّوش، تشعر بحاجة للتوقّف في مقهى لتلتقطَ أنفاسها وتأخذَ قسطاً من الراحة. تجلس على طاولة وتطلب فنجان إكسبرسو. لا تفكّر بشيء. تحاول فقط تصفيةَ ذهنها، تترك العابرين يمضون دون أن تعيرهم انتباهاً. وفجأة تلفتُ انتباهَها شاشة التلفزيون في آخر القاعة. تبثُّ صوراً عن بلدها. لا تسمع الصوتَ غير أنّها تتعرّف على الأماكن. الحضَر. كلُّ شيء يتواصل هناك. لا يكتفون بمتحف الموصل. يتقدّمون، وفي كلّ مكان يمرّون فيه، يحطّمون التماثيلَ وينسفون الآثار. لم يخطرْ لها أن تشهدَ ذلك خلال حياتها. يتقدّمون ويمحون المواقع واحداً واحداً، النمرود، الحضر. بمطارق، بجرّافات، يضربون الجدار الأثريّ، يقلّبون الحجارة التي صمدَتْ. وحين يجدون معابد أو قصوراً لا تزال واقفة، يفخّخونها بالديناميت فتستحيلُ دخاناً. تنظر إلى المشاهد في التلفزيون. تختلط الأشياء. تتمازج العصور ومعها الصرخات. ظلالُ أميرات نمرود الآشوريّات يهمْنَ على وجوههنّ وسط الغبار ممسكاتٍ الرأس مثل ندّابات. آثاريّو الماضي يلطمون على صدورهم ويشتمون البرابرة. تراهم، هرمز رسام، وماكس مالوان، جميع أولئك الذين أنفقوا أيّاماً في حفر هذه الأراضي الجافّة، يتمزّقون بقوّة الانفجارات. يتهادى الغبار ثانيةً وما يتبقّى كارثة. وجوه التماثيل تشوّهتْ، والأعمدة الحجريّة طريحةُ الأرض. ما عادتْ مواقعَ أثريّة وإنّما أراضٍ قاحلة. ابتلعَت الأرض هذه الآثار. تخطر إلى ذاكرتها فجأة القطعةُ الصغيرةُ في متحف بيرغامون، والتي نُقِشَ عليها كتابةٌ سومريّة. أُذهِلتْ حين رأتها، وكانت في مقتبل العمر. تُقدّم البطاقة الملصقة على الواجهة ترجمةً للكتابة القديمة: «أنتم إذا عثرتم على هذه القطعة، أعيدوها إلى التراب ثانيةً، أعيدوها وأكملوا

طريقكم لأنّها ليست منذورةً للضوء وإنّما لمملكة الخلود». صعقَها ما قرأت. تلك القطعة، التي تتوسّل الأحياء أن لا يأخذوها، كانت معروضةً الآن في واجهة متحف. هل كانت هذه مهنتها؟ سرقةُ قطعٍ من الفناء؟ والمضيُّ على عكس إرادةِ صُنّاعها؟ معبدُ الحضَر، أليس من الأفضل لو تُرِكَ تحت التراب؟ مثل ضريح فيليب المكدوني وأضرحة وادي الملوك؟ نقتحم عنوةً عالم الموت، ونأخذ منه قِطعاً نقدّمها إلى مذبحة الأحياء، إلى الديناميت، والرفوش، والجرّافات... لم يعدْ بوسعِها التحمّلُ، لم تعدْ تعلم، تشهق بالبكاء... تستشيط غضباً. تنبثق من داخلها فكرة أنّ يكون الموقع القادم تدمرَ ويصيبها ذلك بالغثيان، فتحاول تهدئة نفسها، تعاود التفكير بسؤال الطبيب حلّوش: «هل أنت مُحاطةٌ بأحد؟» لا يلبثوا أن يكونوا أقلَّ فأقلَّ. بهذا كان عليها أن تُجيبه. أقلَّ فأقلَّ إذا أحرقوا الحضَر ونمرود. أقلَّ فأقلَّ إذا انتزعت منها هذه الآثارُ التي لم تكن إلى الآن تخشى الزمن.

انتظرها طويلاً هذه اللحظة. منذ ثلاث سنوات طوال من الرطوبة الإنكليزيّة، من البرد والنزهات وسط الأجواء الرماديّة، لم يفكّرْ بغير هذه اللحظة. وأخيراً هو على طريق العودة وللمرّة الأولى منذ هروبه، يطأُ الأرض الإفريقيّة. ومع ذلك يستولي عليه بعض الأسى: ليس لارتيابه بمآلات الحروب المقبلة، أو بسبب الخشية من العجز عن استعادة أديس أبابا، وإنّما بسبب السؤال الذي يهجس به: هل كان في يوم غيرَ ألعوبة الأمم؟ من مكانِه في هذا الفندق الذي نزلَ فيه تحت اسم Mr Strong، ينظر إلى شارع الإسكندريّة، المطلّ عليه، المكتظّ بالعابرين المُتعجّلين، ويشعر بالأسى. يعود، ولكن تبعاً لأهواء الحرب. فالأممُ الأوروبيّة، التي احتقرتْه، غيّرتْ رأيها فجأةً. فرنسا وإنكلترا تحاربان ألمانيا وإيطاليا، وفجأة، خرج بعض الخبراء برأي يقول: إنّ ملكَ الملوك المنفيَّ هذا قد يكون ذا نفع إذا استطاع دفْعَ بلده للتمرّد... يعلم بأنّ هذا الكلام بالضبط

هو ما تمّ تداوله في المستشاريّات. هكذا كان الأمر على الدوام. فمتى كان سيّداً على مصيره أو مصيرِ بلده؟ هزيمتهُ أمام إيطاليا حُسِمتْ حين رفضتْ إنكلترا وفرنسا رفع الحصار. ومذّاك، كلُّ شيء كان مُبرماً وبسالة محاربيه لم تكن قادرةً على تغيير شيء. واليومَ، ينتهز تقلّباتِ الحرب الكبرى التي تنخرُ أوروبا. هل كان له يوماً قرارٌ في أيّ شيء؟ سيلتحق بالخرطوم عمّا قريب وسيحاول العبور إلى إثيوبيا أوّلَ ما يتسنّى له ذلك لكي يعلمَ الجميع بأن الإمبراطور قد عاد. كلّ يوم يقتربُ أكثرَ، ولكنه يقتربُ مخفوراً بفرنسا وإنكلترا. الكولونيل مونيه سبقَه، ووينغيت يصحبُه مثلَ ظلّه. كيف يستطيع ألّا يرى بأنّه لا يقرّر شيئاً؟ سيعود له بلده وعرشه إذا انتصر الحلفاء على ألمانيّا ويبقى، في العمق، مصيره معلّقاً دائماً بمشيئة أوروبا ولعبةِ الأمم. منذ خطابه في جنيف وهو يمقتُ هذه المراوغاتِ الدبلوماسيّة. لن يصرّحَ بذلك. سيظلُّ غير مبالٍ ولسوف يُظهِرُ لوينغيت صداقةً حقيقيّة ولكن، حين يطلّ على شارع الإسكندريّة، يعلم بأنّه لا يستحقُّ اسمه المستعار. كان حريّاً به أن يطلق على نفسه Mr. Weak لأنّه هو كذلك: ضعيف وتابع لإنكلترا على أملِ أن يعودَ يوماً إلى بلاده مُتوّجاً بالانتصار.

لَطالما أحبّتْ باريس. تتذكّر أيّام ما بعد الظهيرة في الإسكندريّة، حيث كانتْ تسأل مروانَ بسذاجة، وهي تذرع عاريةً الغرفة الغارقةَ في الضوء والتي انتهيا من ممارسة الحبّ فيها للتوّ: «متى سنشتري شقّةً صغيرة في باريس؟». وكانا يضحكان مثلَ شابّين على فكرة أن يتخيّلا نفسيهما يسيران ملتصقين على جسر الفنون أو في أزقّة الدائرة الخامسة. مروان بخطوته المتمهّلةِ وهي متشبّثةٌ بذراعه كما لو لتتركَ نفسَها تُحمَلُ من عملاقها الذي يلتفت إلى عبور الباريسيّات مراراً ما سيدفعها إلى توبيخه ضاربةً ظاهر يده عقاباً على شبقِه، وهي تُذكّره بأنّه متزوّج، ما سيغرقُهما في نوبة ضحكٍ... بلى، خطرت لهما الفكرةُ مراراً قبل ذلك

اليوم الذي أتى فيه مروان، بهيئة طفل مُعاقَب وصوتٍ غدا باهتاً، ولم يبقَ. كان مريضاً. أخبرها زملاءٌ بذلك لاحقاً. هذا ما كان عليه الأمر إذاً؟ مجرّد هذا: مع دنوّ الموت، الألم، يعود إلى جوار زوجته؟ هذا ما كان عليه الأمر؟ وكلُّ ما تبقّى كُنِسَ. هل ما تبقّى كان مجرّدَ تسليةٍ؟ ألم يكن بوسعها أن تأخذَ حصّتها من الألم؟ بأن ترعاه؟ وهي، اليوم، إلى من يمكنُها أن تلجأ؟ ألهذا، بالضبط، تعود الآن إلى التفكير به؟ لأنّها لو كانتْ تستطيع، لو لا يزالُ حيّاً، فهل كانت تتمنّى أن تلتجئَ إليه؟ تهبط جادّةَ بينا، مستمتعةً بجمال الواجهات المضاءة بذاك الضوء الرماديّ الذي يُحيل باريس إلى قصرٍ من الزنك. حسمتْ أمرها على الإقامة هنا. سترتّبُ مواعيدَ عملها مع المتحف البريطاني. تترك متحفَ غيميه، على يسارها. تتردّد بعض الوقت، يخطر لها أن تدخلَه، لمجرّد إلقاء نظرة ثانية على تماثيل الغاندارا في القاعة الكبيرة بالطابق الأرضيّ، لترى الجمالَ الفاتن للرجل ذي الشاربين والصدر المغطّى بالقلائد، ثمّ تُعرِضُ عن الفكرة، تريد أن تكون في باريس، في الشارع، دونَ تمثال، دون تاريخ، غارقةً في برهة هذه النزهة، مُخلّفةً وجه الطبيب حلّوش وكلماته تتلاشى رويداً رويداً، «إجراءات»، «صراع»، «علاج كيميائي»، تبتعد... تريد كلمات أخرى، كلمات، كلمات تُدخل السكينة إلى نفسها. وثمّ تعاود فجأة التفكيرَ في رجل الأمس، الذي دنا منها في بار فندق بولمان. كانت الحاديةَ عشرةَ. نزلتْ لهذا السبب، لأنّ البقاء في غرفتها بات غيرَ مُحتَملٍ. اعترتْها رغبة بأن تصرخ أو تهرب. تأنّقتْ، ووضعت مساحيق التجميل على وجهها، متسائلةً إذا ما سيدنو رجلٌ نحوها، مشمئزّةً مما تفعله ومتلهّفة إلى فعله في آنٍ معاً، رجل، أيّاً يكنْ، كي لا تظلّ بمفردها مع شياطين نفسها، كما يُقالُ، إلّا أنّ ما من شياطينَ في نفسها، مُجرّد وحدةٍ لا تُطاق. أتى الرّجل. لم تنتظرْ طويلاً. شرعا بالتّحادث. الكلماتُ المتبادلةُ في مثل هذه الأوقات، لا تعدو كونها تمهيداً متعجّلاً بعض الشيء لالتقاء الأجساد، ومُحرجاً بعض الشيء، ومن جملة أسئلتها التي لم تكن تعنيها حقّاً، سألته: «ما مهنتُك؟» وعندئذ، عِوضاً عن الإجابة بأيّ

شيء يخطر في باله ـ بوسعه الادّعاء بأنّه طبيب أو مهندس، ليس لذلك أيّةُ أهميّة ـ، كسا الشحوبُ وجهه وقال: «أنا شخص فاشل». فعرفَتْ عندئذ بأنّ الباقي سيكون مُرهقاً، وأنّه لن يكون هناك ليلةٌ في السرير، ولا نشوةٌ، ولكن فات الأوان: أخذ الآخر يتكلّم، كان يقول بأنّه فشلَ في كلّ شيء وعلى كافّة الأصعدة، زوجتي أخونُها وهي تعلم، عملي بائس، وانساقَ يكمل، لا شيءَ يوقفه، كان يُفرغُ نفسه، ما اضطرّها للمغادرة، لأنّها لم تعدْ تقوى على الاحتمال، تركته ينتحبُ على مقعده الصغير أمام كأسٍ إضافيّ من الويسكي والذي سينوّمه في نهاية المطاف وحينها فقط سيسكُتُ. تُعيد اليوم التفكير بما حصل، وتتذكّر الاشمئزاز الشديد الذي اعتراها إزاء ذاك الرجل إلى الحدّ الذي دفعها للوقوف والمغادرة قبل أن يُكمِلَ جملتَه... خافتْ بأن تكون مثلَه، أن تكونَ فشلتْ في كلّ شيء. الحياة العاطفيّة التي تركتها وحيدةً في خاتمة المطاف، المهنة التي تدفعها للهاثٍ وراء قطعٍ يبتلعُها العالم. أهذا هو الفشلُ في كلّ شيء؟ هربتْ لأنّه بدا لها بأنّ مرآةً تُوضَعُ أمامها وبأنّها هي الجالسةُ على ذاك المقعد الجلديّ الصغير، تتمتمُ لنفسها كأنّها تُخاطِبُ كأسها، بظهر مُدبَّبٍ لتتوارى عن الأنظار، ولكن لا، أخطأَتْ. تسير وتعبر السّين على جسرٍ ألما. الضوءُ يجعل المياه تتلألأ كما الأسقف بالانعكاسات ذاتها. باريس حاضرةٌ هنا، خفيفةٌ، فضيّةٌ، وتعلم بأنّها لم تعرفِ الفشلَ الذي عرفه ذاك الرجل. لم تجرِ الأمور هكذا. ليستِ المسألةُ بأن تنجحَ أو تفشلَ. نجحَتْ بما بدأتْ به، بما أولتْه عنايتها. غاصتْ في الحياة بولعٍ، تخبّطتْ، حاربتْ... أين الفشلُ؟ ما خبرتْه، هو الهزيمة، وهذا شيءٌ مختلف. ما خبرتْه هناك، في عيادة الطبيب حلّوش: الهزيمةُ. ذاك الشعور الذي يعتريكَ بأن تجد نفسك إزاء شيء سيُفنيكَ ولا فَكاكَ لك منه. أمام فوضى شوارع أربيل، الهزيمةُ ماثلةٌ... وإزاء تحطيم الحضَر ونمرود أيضاً. الحياة تُقوّضُ وتُحطّم ما بنتْه، تقلب كلّ ما بدا لها راسخاً، الهزيمةُ، بلى، في اللحظة التي هجرها مروان، عائداً إلى زوجته مثلَ كلب أعرجَ يُقفل راجعاً إلى وجاره، ولكن ليسَ الفشل، عندئذ تتنفّسُ بعمق لأنّها تعلم بأنّ ما تعيشُه،

هذا الوهن الجسديّ، هذا الشعور بالتناقص، بأنّها لم تعدْ بكاملها كما لا يكون الشخص إلّا في العشرين من عمره، هذا التقطيع الضئيل للذات، الذي لا يُلحظ ويحدُّ من زخمنا الذي لم يعد موجوداً، الذي يجعلنا أقلَّ وسامةً، أقلَّ بهجةً، ويمنحُنا دون أن نشعر حتّى مظهرَ الخائف، الهشّ، إنّه القوس العميق للحياة وليس عجزاً شخصيّاً. الهزيمة هذه ليست ناجمةً عن خيار سيئ، عن خطأ أقترفَ أو جُبن، بوسعها ترك رجلِ البار ذاك يكرّر «أنا شخص فاشل، أنا شخص فاشل»، هي عاشت، ولم تفشلْ بشيء. إلّا أنّه في يوم ما تأتي لحظة الاستسلام ويأتي قبلها، على نحو تدريجيّ، زمنُ السقوط في الخسارة، الزمنُ الثاني حيث تخور القوى، حيث يغدو الاندفاع، والدهشة، والمفاجأة أكثرَ ندرةً، مجرّد ذلك، هو الدخول في زمن الهزيمة غير أنّه شَطرٌ من عمرها وسوف تحاول أن تعيشَه حتّى الثمالة، دون فشل فيه أيضاً، لكي تبقى هي نفسُها، مريم، حتّى النهاية. وبينما تسير في ساحة الأنفاليد تكرّر متبسّمةً، دون انقطاع، هذه الكلماتِ: «أيّها الجسَدُ، تذكّرْ...»، تُشعِرها هذه الكلمات بالارتياح إذ تُعيدها إلى ذلك الرجل، عاصم، الذي تحبّه، الذي ربّما هي على وشْكِ أن تحبَّه أكثرَ من الآخرين جميعاً لأنّ صورتَه تكبر في داخلها، شهراً إثر شهر، وحتّى لو اقتصر لقاؤهما على تلك الإقامة الخاطفة في زيوريخ، حتّى لو لن يلتقيا أبداً، إنّه هو، تدرك ذلك، مَنْ أعطاها الكلمات التي كانت تبحثُ عنها.

–IX–

أديس أبابا

يقرّر أن يجتاز الجادّة. أديس أبابا تدبُّ نشاطاً. يمرّ بين سيّارتين تكادان لتلَفِ نوابضهما المخفّفةِ للصدمات تجران مَصدّاتهما على الأرض، يغوص في فوضى حركة المرور لوهلةٍ ثمّ يخرج من الجهة الأخرى للتدفّق المزدحم للمركباتِ. اتّخذَ الأمريكيّون أماكنَهم. تمكّنَ من تحديد مواقعهم. اثنان في أسفل المبنى. وثالث أبعدَ قليلاً. ولا بدّ أنّ منهم مَنْ تمركزوا على السطوح. وعلى الأرجح ثمّة سيّارةٌ متأهّبة للتدخّل. إنّهم هنا. الكمينُ مُعدّ وتمثال أسدِ يهوذا ينظر إلى مؤامرات الرجال وجلَبة السيّارات المتواصلةِ باللامبالاة ذاتها.

أديس أبابا في حالة ابتهاج. يدخلُ مدينتَه وإلى جانبه وينغيت. ويسير وراءهما، مُظفّرين، رجالُ قوّةِ جدعون[1] من إثيوبيّين، وسودانيّين، وكينيّين، مختلطين جميعاً وتستر أجسادهم خِرَقٌ رثّة، لكنّ الجمهور لا يرى ذلك، بائسين جميعاً، غير أنّه يهتفُ لهم بحماس. الحربُ المُحيطة بهم من كلّ حدب وصوب، الحربُ التي ترعب العالم، الحرب العالميّة الثانية تمنحهم النصرَ. ينسحب الإيطاليّون وتستعيد أديس أبابا ملك الملوك ثانيةً. ساروا من قرية أُمّ إدلا الصغيرة إلى جبل بيلايا حيث أقامتْ حاميةُ جدعونَ مقرَّها هناك. ساروا، وهم آخذون بالتضخُّم من قرية إلى أخرى، مُستنهضين أبناء المناطق الريفيّة. ساروا لكي يعيدوا إلى إثيوبيا كرامتَها التي أهدرتْها عصبة الأمم والشارعُ اليوم يهتف للنجاشيّ المُستعاد.

1- وهو الاسم الذي أطلقه الجنرال الإنكليزي أورد تشارلز وينغيت على القوّة التي قادها في إثيوبيا تيمناً باسم قائد توراتي.

حينَ يلجُ داخل المبنى، تُشعِره الظلمة بالارتياح. يجلس صَبيَّان على درجات السلّم، يتبادلان بحماسة أوراقاً نقديّة أو صوراً، بالكاد يرفعان رأسيهما وهما يفسحان في المجال ليمرَّ. يصعد الدرج. المكان هنا أقلّ حرارةً. لن يتأخّر رجال الكوماندوس عن اللحاق به، هذا مؤكّد. سيقولون للصغيرين بأَنْ يلعبا في مكان آخر، وسيمتثلان على عجل وهما يَلُمّان كنزهما البائس. يعلم كلَّ ذلك. عاش مراراً لحظاتٍ مشابهةً في مدن أخرى. ستأتي سيّارة وتركنُ مقابل المبنى، وسيظلُّ محرّكها مُشغَّلاً وبابها مفتوحاً. الشيء الوحيد الذي لا يعرفه، إذا كان من أجل القبض على جوب أم لمحوِ الآثار التي قد يتركها قاتلوه.

يهتف الجمهورُ لدى مروره. المدينة في حالة من البهجة. يعود هيلا سيلاسي ليلاقيَ أديس أبابا التي غادرها قبل بضع سنواتٍ وكانت قد نُهبَتْ، أديس أبابا التي رزحتْ تحت الاحتلال وحاولت المقاومة، كما في ذاك اليوم الذي أُلقِيَ فيه تسعُ قنابلَ على غراتسياني، تسعُ قنابل كان لها أن تقتلَهُ تسعَ مراتٍ إلّا أنّه من الصعوبة بمكان قتلُ الرجال الذين يقتاتون على الدّم، وللمصير أحياناً اعتباراتٌ غريبة. نهض غراتسياني وأديس أبابا التي حبسَتْ أنفاسَها اضطرتْ أن تُخفِضَ رأسها من جديد. اليوم هي تغنّي، جذلى بمرور إمبراطورها، يرافقه ونغيت السائرُ إلى جواره، ويتساءل أيُّ انتصار هذا الذي لم نظفرْ فيه بمعركة واحدة. عاد بفضل الإنكليز. لم يدحَرْ جيوشَ عدوّه. أديس أبابا تهتف له ولكن لا تزال تتردّد في أُذنيه شتائم الصحفيّين الإيطاليّين في جنيف: «زنجيّ حقير...!». البلد يحتفل بالانتصار ولكنّه يشعر بأنَّ شيئاً من هزيمة ماي شيو لم يمحَ، ولن يمحى أبداً. ربّما في العمق لا شيءَ غيرُ الدّم يمكنه أن يثأر لهذه الإهانة؟ وربّما لن يتبسّم حقّاً إلّا ساعةَ سيُشنَقُ فيها موسوليني من رِجليْه، في ساحة لوريتو الكبيرة، في ميلانو، مثل خنزيرٍ يُعدُّ للذبح؟ يسير في شوارع أديس أبابا. يصرخ الجمهور فرحاً لدى مروره. سيحكمُ الآن، مستعيداً

صلاحيّاته، وبلاطه، وشعبه، وسلطته. لن يعودَ فارّاً مُتخفّياً في المغارات أو منفيّاً تحت مطرِ باث، سيستعيد المجد واحترام رعيّته، لذا يحاول أن يستمتع بمدينته المُستعادة، بالدفء الذي يحيطه والذي افتقده كثيراً. الشعبُ، في جميع الأرجاء، يهتفُ مردّداً اسمه، إلّا أنّ في داخله لا يشعر بأيّ نصر، أو على أيّة حال لا شيءَ يرقى إلى مستوى الهزيمة التي شعر بها، لا شيء بمقدوره محوُ لحظات الإهانة في عصبة الأمم والانتظار اللانهائيّ في باث، كما لو أنّ للهزيمة أبداً ثِقَلاً أكبر من الانتصار، كما لو أنّ في خاتمة المطاف لا شيءَ سواها يظلُّ في قلوبِ الرجال.

ينبغي تكبُّدُ هزيمة أو إحرازُ نصر. الأمر هكذا. وهنيبعل يدرك ذلك. كثيرٌ من الرجال الذين سقطوا يطالبون أن يعرفوا بالحدّ الأدنى ضمنَ أيّة فئة، منتصرون أم مهزومون، سوف يضعهم التاريخ. سيشنُّ معركة هنا على هذه الأراضي التي غادرها وهو صبيٌّ صغير. انقضى دهر منذ ذلك اليوم الذي أصبح فيه على رأس الجيش البونيّ واجتاز البيرنيه. سنواتٌ من الحرب، من سفك الدم، سنواتٌ من التفكير، من إعداد خطط، وتصوّر تكتيكات جديدة. واليوم، يعود إلى نقطة الانطلاق: الساحل الإفريقيّ للبحر المتوسّط. في هذا المكان ستنتهي الحرب. كلُّ شيء جرى إعدادُهُ. التحالفات عُقِدَتْ وفُكّتْ. روما بارعة على الدوام في بذر الشقاق. اكتشف صيفاقس الاتفاقاتِ السرّيّةَ بين روما وماسينيسا. فتملّكَهُ سخطٌ عارم وبدَّلَ معسكره. كانت الإمبراطوريّة الرومانيّة قد أقامتْ، لزمن طويل، حلفاً مع ملك الماسيسيل[1] الذي يحكم نوميديا الغربيّة إلاّ أن سيبيون لم يكن يكتفي بذلك. فعملَ بالخفاء على ضمّ ماسينيسا، ملك الماسيل[2]، إلى صفوفه ولا يهمُّ إذا ما كان هذان الملكان عدوّيْن لدوديْن، ولا يهمُّ إذا كان قد وعد كلّاً

1- الشعب النوميديّ الذي سكن غرب الجزائر وجزء صغير من شمال المغرب، وكان ملكهم صيفاقس.
2- الشعب النوميدي الذي سكن شرق الجزائر وبعضاً من تونس، وكان ملكهم ماسينيسا.

منهما بمملكة الآخر، لا يهمُّ حتّى إذا كان صيفاقس سيقاتل في نهاية الأمر إلى جانب قرطاجة، مغتاظاً من تقرّب سيبيون من عدوّه. جرى إعداد كلّ شيء والتاريخ يطالب بمعركته. مقترحاتُ السلام قُدّمتْ ورُفِضتْ. وقت المفاوضات مُطَّ إلى أقصاه. تقابلَ هنيبعل وسيبيون. تحادث الرجلان تحت خيمة تخفق في الريح. ساعتان من المناقشة لم تفضِ إلى شيء. روما لا تريد المفاوضة. وهنيبعل – في العمق– يرى هذا عادلاً. إذ سيشعر بالخزْي لو أقدم على إبرام سلام وَضيع. يعود للتفكير بأخيه المقصولِ الرأس، بقتلى الحملات الماضية جميعاً ويعلم بأنّهم سيأتون في ليالي أَرقهِ يصرخون فيه لائمين. هل فعلَ كلَّ ما فعله من أجل أن يُبرِمَ في آخر المطاف معاهدةً مجحفة تحت خيمة رومانيّة؟ قد يحصل ذلك... ولكن ليس قبل أن يقاتلَ. فإذاً يُعدّ خططه للمعركة. سيضع ثمانين فيلاً في الصفّ الأوّل. ومن الوارد أن يشحبَ الرومانيّون وهم يرون بهائم الماستوند تلك. سيذكّرهم ذلك بالأفيال الأربعين التي اجتاز بها الألب والتي ظهرت في سهل تيسين. وسيضع وراء الأفيال مرتزقةَ الغولييّن، هؤلاء قادرون على فعل العجائب. وقد برهنوا ذلك في كاناي. ما منْ شيءٍ يقف في طريقهم. فيما بعد سيأتي القرطاجيّون. مضَتْ أيّامٌ وهو مُنهمِك في التفكير بكلّ هذا. ويعلم بأنّ سيبيون يفعل الشيءَ ذاته منذ أيّام. رأى ذلك في عينيه حين تصافحا. تكلّما، تظاهرا بأنّهما يتناقشان إلّا أنّ في ذهن كليْهما منذ اللحظةِ كانت تدور معركة الغد.

في غرفة فندق لا تمتُّ بصلةٍ للماضي، يرمق سوليفان سيكو الفتاةَ التي تنهض. تدور حول السرير ذاهبةً إلى الحمّام، مُظهرةً للناظر مؤخّرتها وبشرةَ ظهرها الفاتحة. كم عمرها؟ عشرون عاماً...؟ يرمقها إلى أن تختفيَ مع شعرها الطويل الأشقر. يسود الصمت في الغرفة. يبقى مستلقياً لبرهة ثمّ، على مهل يفتح بيد درج منضدة السرير ويخرج منه الكتابَ المقدّس. تعبر بسمة خفيفة شفتيه. يُقلّبُ الصفحاتِ لا على التعيين. ثمّ يجمد فجأة. هنا،

تحت بصره وجد للتوّ الاسمَ الذي كان بانتظاره، يُدرك أنّه سيغدو اسمَه، بلا ريب. يتمتم الجملة التي قرأها للتوّ. يريد سماعها تتردّد في فضاء الغرفة الصغيرة التي لا تزال تعبق برائحة الحبّ المأجور: «الموتَ على عظَامي هذه...[1]». يتبسّم ثانيةً ولكن لعبارة أخرى، كما لو أنّ هذه الأسطر كُتبتْ لأجله، ثمّ يقول بصوت عالٍ: «جوب». يتمهّل قليلاً، كأنّه يُدوّر فكرةً في رأسه ثمّ ينهض، يتناول محفظته ويقترب من باب الحمّام. الفتاة التي تستحمُّ وراء الباب، لا تسمع صوته مباشرةً. حين تقطعُ الماءَ، يشرح لها بأنّه سيمرّر مالاً من تحت الباب، وبأنّه ينبغي ألّا تفتح. تسأل إذا كلّ شيء على ما يرام، يظهر عليها القلق. فعلى الأرجح غيرُ معتادةٍ على أن يدفع زبائنها مالاً إضافيّاً. لا يجيب ويمرّر أوّل ورقة نقديّة من فئة العشرين دولاراً وهو يكمل الشرح: يريدها أن تبقى في الحمام، وأن تناديَه، ليس أكثر من ذلك، أن تناديه لمرّات عديدة مُتلاحقة. تطلب منه أن يُكرّرَ، غير متأكّدةٍ بأنّها فهمتْ جيّداً. يُمرّر ورقتيْ نقد أُخريين ويعيد: أن تناديَه باسمه، فقط، لا شيءَ آخر، ولكن لزمن طويل... ثمّ يعود للاستلقاء، شابكاً ذراعيه تحت عنقه، في ذلك السرير الذي لا يزال يعبق برائحة عرق الجسدين. عندئذ أخذ صوت الفتاة يتردّدُ، يُطبِق جفنيْه ليمتلئَ بالصوت: «سوليفان...؟ سولي...؟».

يتوقّف عاصم في الطابق الثالث لالتقاط أنفاسه، يحاول للمرّة الأخيرة انتهازَ الهدوء المحيط به. يُخرجُ الورقة المدسوسةَ أسفل جيبه ويقرؤُها ثانيةً: «الباب الأخير في نهاية الممرّ إلى اليسار». يتقدّم، يسلكُ الممرّ. تتلاشى جلبة الشارع حين يحاذي أحد أوائل الأبواب، يُهيّأُ له أنّه التقط صوت تلفزيون أو راديو. يُكمل. إلى أن يصبحَ أمام الباب الأخير. يطرق، ينتظر. لا شيءَ...

تُكرّرُ مجدّداً «سولي...؟» بنبرة مختلفة، بصوتٍ أحدَّ، أشدَّ خوفاً.

1ـ «فَاخْتَارَتْ نَفْسِي الْخَنِقَ، الْمَوْتَ عَلَى عِظَامِي هذِهِ». سفر أيوب، الإصحاح السابع.

يحاول عاصم استراقَ السمع، يطرقُ ثانية. ما من جواب إلى اللحظة. يضع يده على المقبض فينفَتِحُ البابُ قليلاً. تتناهى له جلبة الشارع مجدّداً، وحركة المرور. يدفعُ البابَ ويكتشف غرفة واسعة تطلّ على الجادّة التي وصل منها، ويجد واحدة من النافذتين الكبيرتين مشرّعةً. ما منْ أحد. يتقدّم. ولا أيّ قطعة أثاث. يتوغل أبعد، ويتفقّد الغرف الأخرى. الشيء ذاته في أرجاء المكان. إنّها شقةٌ خالية. لا يوجد سوى موكيتٍ قديمٍ مفروش على الأرض، وهذه النافذة المفتوحة ـ علامةٌ في الحدّ الأدنى على مرور شخص منذ وقت قصير. يتنفّس بهدوء، تاركاً سكون المكان يجتاحه.

«سولي...؟» تستمرّ، تؤدي بجدّية العملَ الذي دُفعَ لها لأجله، تكرّر نداءها بنبرات مختلفة في الوقت الذي لا بدّ فيه بأنّها تعود لارتداء ملابسها. «سولي...؟» في هذه الغرفة الخالية من الروح التي لن يعود إليها أبداً، هذا ما أراد سماعَه: غيابَه. «سولي...؟» يسمع الفراغ الذي سوف يتركه بعد أن يكون قد فارق حياته.

الشقةُ خالية. يستعرض عاصم كلَّ ما نجا منه: الحوار الزائف مع جوب، اللحظة التي كان عليه أن يتذرَّع بإجراء اتصال أو تدخينِ سيجارة على الشرفة ليعطيَ إشارةً إلى الرجال المنتظرين في الأسفل. كلّ ذلك تبدّدَ للتوّ. جوب ليس موجوداً، ربّما لم يأتِ البتّة إلى أديس أبابا. يسخر منهم جميعاً، منه ومن رجال الأجهزة التي تلاحقه. سوف يستأنف طريق الجنون وعاصم سعيد بأنّ يكون الأمر كذلك. فيتبسّم، يمسح بيده العرق عن وجهه، وينحني من النافذة المفتوحة، يتأمّل أسد يهوذا قبالته، الذي يتولّى برسوخ فرعون تسيُّدَ شعب من السيّارات. يشير بيده ليأتوا ويأتون. سُرعان ما يسمع الرجالَ تصعد أربعاً أربع، معتقدين بأنّ المهمّة لا تزال جاريةً، إلّا أنّه لا يوجد شيء، لم يعد يوجد سوى شقّةٍ خالية.

«سولي...؟» لا يتبقّى شيءٌ من سوليفان سيكو، لا شيءَ سوى هذا الاسم، ملفوظاً من هذه الفتاة التي لا يُعرَفُ من أين أتتْ والتي ستصمتُ عمّا قريب، هذا الاسم الذي يتردّد لمرّة أخرى أو مرتين، ثمّ يتوقّف نهائيّاً. وهو يعلم بهذه اللحظة أنَّ كلّ شيء قد تبدّد حقيقة وبأنّه نجح بالهروب مما كان عليه.

يغادر. لم يعدْ ثمّة مَنْ ينتظره ولن يحتاج الأمريكيّون لملاحظاته من أجل الاجتماع الذي سيعقدونه مساء هذا اليوم في السفارة. حين يعود إلى الشارع، القيظُ خارجاً يلفح وجنتيه. الهواءُ خانق لدرجة لا تُحتمل. يتّخذُ اتّجاه فندقِه لمّا فجأةً يناديه صوت من ورائه: «أيّها السيّد... أيّها السيّد...». للوهلة الأولى لم ينتبه. «أيّها السيّد...». أخيراً يلتفتُ: وإذا بشخص مُعاق، يجلس على كرسيّ متحرك قديم يعود إلى قرن، صدِئِ المسندَيْن، ويصدرُ عن دواليبه صريرٌ حادّ. قدما الرجل ضامرتان، هزيلتان ومُعوجّتان مثلَ خشب مريض. «أيّها السيّد...» همَّ ليستديرَ ويكملَ دربه، تاركاً الكسيح يتبعه قليلاً ثمّ يملّ، غير أنّ في نظرة الرجل شيئاً يوقفه مثلَ تواطؤ، هيئة عارف. يقترب منه، ويُخرج ورقة نقديّة يعطيها له. لا يعيرهما العابرون انتباهاً، لا يُرى في المشهد أكثرُ من أبيضَ يقدّم ورقة نقديّة إلى مُتسوّل. تندُّ ابتسامة واسعة عن الرجل. لا يشكره، بل يحدّقُ في عينيه ويقول له بالإنكليزيّة: «طرابلس. فندق راديسون. في 27 حزيران الساعة التاسعة مساءً». ويضيف بما يشبه توقيعاً من نوع غريب، هذه الجملةَ التي يجد صعوبة في نطقها: «أنا مُشوّه إلى حدّ يجعل الكلاب تنبح لدى مروري... وما من شيء يشغلني سوى مخالسةِ النظر إلى ظلّي في وضح الشمس...»[1]. ثمّ يتبسّم لهذه المقولة الناقصة لأنّه أفلح في نطقها رغم كلّ شيء. يدرك بأنّ عاصماً فهمه للتوّ وسيغدو من حقّه المالُ الذي وُعِدَ به لقاء هذه المهمّة. يتوقّف الزمن. لم يعد عاصم يسمع الشارع من حوله.

1- اقتباس من مسرحية «ريتشارد الثالث» وليم شكسبير.

يظلُّ جامداً، مأخوذاً بهذه الكلمات. جوب هنا، بينهما، غيرَ مرئي، ناطقاً بلسان المُقعد. جوب حاضر هنا، يلعب مع ريتشارد الثالث والمشلولِ الإثيوبيّ، ويهزأُ من رجال المخابرات الأمريكيّة. يتعرّف على صوته، حتّى لو أنّه يتكلّم من فم المُقعد الذي لا يعرف باسم من ينطق، الذي على الأغلب لم يرَ سوليفان سيكو قطّ، الذي يفعل ذلك لأجل الورقة النقديّة فقط التي وعده بها أحدهم، لكنّه يعلم بأنّ هذه الكلمات صادرةٌ عن جوب وبأنّ الموعد هذا حقيقيّ. سوف يلتقيان ثانيةً. سيتمكّن من طرح الأسئلة التي أخذ يهجس بها منذ آخر لقاء جمعهما: ما الذي نجحْنا به؟ وما الذي نخضعُ إليه...؟ يتبسّم ويشعر فجأة بالارتياح وسط هذه المدينة الخانقة وهذا الازدحام الفوضوي. سيذهب إلى طرابلس. هل تقصَّدَ جوب أن يعطيَه الموعد في ليبيا؟ هل يريد اختباره، ليرى إن كانت لديه شجاعةُ العودة إلى هناك؟ ليس بسبب حالة الحرب الدائرة في البلد وإنّما لأنّه ترك فيها ذكرى الحشد الساخط وديكتاتوراً بوجه متورّم. لا يمكن أن تكون مصادفةً. هل يأخذه إلى ليبيا ليكون في موقع ضعفه؟ قد يكون يريده أعزلَ، خارج العالم، أمام ذكرى عجزه عن تجاوز حدوده، كما كان هو خارج العالم في الحوّامة التي أخذته من أبوت آباد مع زملائه الذين كان يصرخون بهجةً وهم ينظرون إلى جثّة بن لادن عند أقدامهم، في اللحظة التي شعر بشرخ يفصلهُ عن بقيّة الرجال لا يمكن أن يلتئمَ، قد يكون هذا ما يريده... أن يقبل ملاقاته في المكان الذي انكسر فيه شيءٌ في داخله. عند ذلك فحسب سيتكلّمان... وعند ذلك فحسب، قد يفهم ما الذي يمنح جوب تلك النظرة الساحرة؛ المتوقّدة والمرحة في آن معاً، كما لو أنّ العالم الملتهب بات يُمتعه بعد أنْ فضَّ أسراره.

–X–

زاما

سيفعلون بتدمُر ما فعلوه في نمرود. تحرّكاتُ القوّات تؤكّد بأنّ داعش يستأنف تقدّمه نحو واحة تدمر والمدينة الأثريّة. ينبغي المقاومة، ومحاولة كلّ ما هو ممكن. منذ الصباح، تُحاول الاتّصالَ بخالد الأسعد ولكن لا تُفلِحُ في ذلك. تدور حول نفسها في مكتبها مُحتدّةً على الرجل المسنّ ذي الثلاثة والثمانين عاماً الذي لا يمكن الوصولُ إليه. تعرّفتْ عليه أثناء دورة تدريبيّة في سورية. «مسيو بالميرا»، كما كان يناديه الجميع. لا تزال تتذكّر وجهه النبيل الجميلَ وشعره الأشيبَ ونظارتيه السميكتين التي تمنحه هيئة كاتبٍ مصريّ. تتذكّر محاضراته التي يقدّمها بالآراميّة أحياناً، في نهاية عشاء، واضعاً الجميع في حالة دهشة. يروقُهُ ذلك. ليس ليُبهر الطلّاب الشبّان، وإنّما لتبقى أصواتُ هذه اللغة القديمة تتردّد. إنّها طريقتهُ في جعل الزمن القديم ينطق داخل الإنسان. تحاول الاتّصال مُجدّداً. يجيبُها أحدٌ في النهاية. آلو...؟ إنّه صوت شاب. تُعرّفُ عن نفسها، وتقول بأنّها تتّصل من اليونسكو في باريس. تتكلّم مع نجله وليد. يشرح لها بأنّ أباه في الموقع. وسيطلب منه الاتصالَ بها ما إن يعود. تنتهز الفرصة لتسأل عن الأوضاع. وليد متوتّر. يجيب بجمل قصيرة. «نحن في غاية القلق. أبي يعمل كثيراً لأخذ جميع الاحتياطات...». تشجّعه ببعض الكلمات، تشكره وتغلق الخطّ. رجال يعملون، وينهمكون، ويفكّرون بكيفية حماية الآثار بينما البلاد تحترق. رجال تُصارع وسط عالم يضطرب لتورّثَ تدمر إلى الأجيال اللاحقة. ولا يزال خالد العجوز يذرع هذا الموقع الذي يحفظه عن ظهر قلب، مُكلّماً الحجارة القديمة بالآراميّة.

فإذاً ستكون زاما اسماً لانتصاره أو لهزيمته. حان وقت معرفة ذلك. يُعطي أمره بالهجوم فتندفع الأفيال الثمانون، مُستثارةً من قِبَلِ فيّالتها. تذهب مباشرة نحو الكمين الذي نصبهُ لها سيبيون إلّا أنّ هنيبعل لا يبصره. يركّز جهده في الوقت الراهن على إيصال أوامره بشكل جيّد. اصطدامُ الجيشين كان عنيفاً، مثلَ دبّين ينتصبان في مواجهة بعضهما. يريد الرومان محوَ كاناي وتراسيمين من الذاكرة. يقاتل سيبيون ليثأر لأبيه ولجميع القناصل قبلَه الذي عرفوا الهزيمة. هنيبعل على أرضه ويدرك بأنّه إذا خسر اليوم فحتّى الأشجارُ سيُهرَقُ دمها. صوت الجلبة البهيم وصرخات المُقاتلين تتعالى في السهل. قرطاجة بأكملها تحبس أنفاسها. المدينة بأكملها، والتي تفصلها خمسُ ساعاتٍ من المسير عن زاما، تنتظر أن تعرف إذا ما كانت ستُنهب أم ستُطيح بالإمبراطوريّة الرومانيّة. لا يرى هنيبعل أنّ الأفيال تتوغّل عميقاً في الصفوف. أو يرى ذلك ربّما ويرحّبُ به؟ لم ينتبهْ بأنّها تتوغّل بيُسرٍ كبير. يتراجع المشاة الرومانيّون، تاركين بهائم الماستوند تتقدّم. يتبسّم سيبيون. كلُّ شيء يجري كما كان يأمل. سوف ينتصر على هنيبعل بإعادة خطّة معركة كاناي. لقد أولى عنايةً في ترك مسافات بين وحدات فيلقه المختلفة والأفيال اندفعتْ مسرعة داخلها. وسرعانَ ما سيحصل في زاما مثلما حصل في غوغاميلا: يشحَبُ هنيبعل مثلما شحبَ دارايوس. كلاهما يشهدان الأفيال، يفصلهما قرن من الزمن، وهي تغضب مذعورةً. تُفزِعها أصوات الأبواق، والحشودُ التي تتحلّق حولها وتدفع جوانبها. فتهتاج، تستدير، وتضرب خبطَ عشواء للدفاع عن نفسها، ثمّ تعود على أعقابها، هاجمةً على جنود معسكرها دون أن تميّز. لم يعد بوسعها التراجعُ بعدما أوغلتْ عميقاً في صفوف الخصم. وإذا بالفيالق تُطبق عليها وفي زاما، كما حدث قبل قرن في غوغاميلا، تغدو أفيال الحرب الكبيرة بهائمَ واسعةَ الأجْنَابِ بلا نفع ويغدو نهيمُها، فجأة، مطابقاً لأنشودة الكارثة.

«ليس وارداً أن أبرحَ مكاني».

تكرّر محاولةً إقناعه. تكلّمه عن الخطر المُحدق به. عن عنف أولئك الرجال الذين يقطرُ الموت من أصابعهم. تقول بأنّه سيكون أكثرَ نفعاً وهو في مأمن، بأنّ اليونسكو محتاجٌ إلى معارفه عن الموقع. تقول بأنّه يمكن إجراء كلّ الترتيبات لإحضاره إلى أوروبا. وهي شخصيّاً ستتكفّل بذلك ولكن خالد الأسعد يكرّر:

«لن أبرحَ مكاني».

يمرُّ وقت طويل من الصمت.

تعيدُ المحاولة، بصوت رقيق مثل ابنة تحاول إقناع أبيها:

«إذا سمحْتَ، سيّد أسعد... أرجوك».

لا يزال صامتاً. ربّما يقدّر تبعاتِ خياره فيما يخصُّه ويخصُّ عائلته؟ ربّما يتبيّن المستقبل؟ حين يستأنف الكلام، بنبرة غدتْ أدفأَ أيضاً، يطلب منها ألّا تلومه. «أنا رجل عجوز ـ قال ـ حياتي انتهَتْ. إذا غادرتُ، سيكون كلّ شيء قد ذهب هباءً. لا أستطيع، أتفهمينني؟ أخذتُ احتياطي. أحاول مع ولدي وليد أن نضع أكبر عدد ممكن من القطع الأثريّة في مأمن. سأحافظ على الموقع ما دمتُ حيّاً. تخيُّلُ بريام متخلّياً عن طروادة قبل وصول الآخيّين ضربٌ من المستحيل...».

ينتهي الحديث. تعرف بأنّها لن تفلح في إقناعه. سيبقى، مع ولده، مثلَ حرّاس معبد فارغ ينتظران الموت. سيبقى لأنّ المغادرة إلى أيّ مكان آخر ستكون هزيمةً. هل سِنّه يُعفيه من الخوف؟ أم لأنّ حياته دنتْ من نهايتها وما عاد بوسع الأحداث أن تزعزعَه؟ تُغلق الخطّ وهي تطلب منه أن يُزوّدها بأخباره وألّا يتردّدَ في طلب أيّ شيء يحتاجه. يقول نعم، بالطبع، ويشكرها. تعلم بأنّه لن يفعل. بريام العجوز أغلق أبواب مدينة إيليون ومكث ينتظر وصول البرابرة. مُقدَّرٌ عليه بأن يرى العالم ينهار، هناك، من النقطة التي هي نقطته: تدمر، لؤلؤة الصحراء، مدينة الملكة

زنوبيا التي ما من حارس لها سوى رجل مسنّ ناهز الثالثة والثمانين يجول جيئة وذهاباً بين أعمدة وأطلال، حارساً على المدافن البرجيّة ومُسلماً خوفَه لهبّاتِ ريح المساء.

في زاما كما في كاناي، يصمد الصفُّ الأوّل. يتراجع ببطء، تاركاً العدوَّ يتوغّل عميقاً، ولا يبقى أمام سيبيون سوى أن يفعلَ ما فعله هنيبعل نفسُه، كنوع من العرفان للمعلّم، القيامَ بحركة التفافيّة واسعة تُطبق الكمين على القرطاجيين. يُخفِضُ القائد الرومانيّ يده. إنّه الأمر الذي كان ينتظره ماسينيسا وفرسانه النوميديّون ليهجموا. يلكزون جوانبَ مَطيّهم ليُحكِموا الخناق على العدوّ. يدرك ماسينيسا بأنّه انتصر، وأنّه من الآن فصاعداً سيحكم نوميديا من سيغا إلى سيرتا، وبأنّ خصمَه صيفاقس سيندحر. يدرك بأنّه ربح رهانه للتوّ وبأنّه كان محقّاً بتبديل حلفه، خائناً قرطاجةَ التي ستصبح عما قريب هباءً. فرسانُ ماسيل يهجمون ويدرك هنيبعل أنّه لم يعد أمامه سوى مغادرةِ زاما. يرحل، مثلما رحل دارايوس تاركاً الرجال وراءه نهباً للموت. ربّما سيظلُّ البعض منهم يحاربون ببسالة. لا بدّ أنّ ثمّة محاربين سيقاتلون بحماس، وسط فوضى الاشتباك، ويدفعون العدوّ للتراجع ولكن ما عاد لذلك نفعٌ. الأمر سيستغرق وقتاً، بضع ساعات أو أكثر، ريثما يستنفد المقاتلون قواهم، ريثما يرى الجميع بأنّ الهزيمة مؤكّدة، ريثما ترتجف الأجساد من التعب ويخرُّ أكثرهم بسالةً راكعين على الأرض مُسلّمين أعناقَهم للنحر.

«أحرِقوا كلّ شيء! أحرِقوا كلّ شيء...!» يتردّد الجنود للوهلة الأولى. يتبادلون النظراتِ كما ليروا مَنْ بينَهم مستعدٌّ للإطاعة، فيما شيريدان يصول ويجول جذلاً. يُشير إلى المزرعة التي توقّفوا أمامها للتوّ، في وادي شيناندواه، ويصرخ: «أحرقوا!» يعقدون العزم، وفي النهاية ينفّذون الأمر، يُخالطهم إحساسٌ بالعار. سيعتادون سريعاً وعمّا

قريب لن يفكّروا حتّى في ذلك. جميعُ المزارع التي على طريقهم ستلقى المصير ذاتَه وسيفعلون ذلك دون أن يلاحظوا ما يفعلونه حتى «The Burning» هذا ما طلبه غرانت من شيريدان: الحربُ الشاملةُ، التي تُبكي القُرى. عمّا قريب لن تكون لديهم حركةُ التردّدِ الخرقاء هذه، عمّا قريب لن يحتاجوا حتّى الترجُّل عن أحصنتهم. لن يتردّدوا أيضاً في إطلاق النار على بطون المزارعين الذي حملوا مِذْراةً لحماية محاصيلهم، أو في اللجوء إلى نصلِ السكّين لنحرِ النساء اللائي سيحاولْن التدخُّلَ. عمّا قريب سيحرقون كلّ شيء، على نحو تلقائي. طوالَ أشهر. ولن يحتاج شيريدان لأن ينطقَه، لأنْ يصيحَ مُصدِراً الأمر وهو منتصب على سرج حصانه: «أحرقوا كلّ شيء!»، لأنّهم سيكونون قد تعلّموا فعلَه. يفكّر غرانت بأنّه سيتوجّب عليه الاعتذار عن هذه الأوامر التي أُعطيتْ لأنّه يعرف أيَّ واقع يتخفّى وراء ما يطلُبُ فعلَهُ. وحين يأمر «The Burning»، يرى المزارع المحروقةَ والأطفالَ الغارقين بدموعهم. فيخاطب جوليا في ذهنه، حين يشربُ دون أن يجدَ النومُ إليه سبيلاً، اغفري لي، جوليا، لأنّني أمرتُ بالقتل، اغفري لي، جوليا، نساءٌ وأطفال قد سُحقوا، بِودّه أن يقول، أن يصرخَ بأنّ ما يطلبُ من رجالهِ فعلَهُ هو الجنون بحدّ ذاته. «حين سأُنهي الأمر، يكتب له شيريدان، لن يعود الوادي صالحاً للحياة لا لبشرٍ ولا لحيوان»، وهذا ما فعلَه: المواشي تُبقَر أو، بداعي السرعة، تُحرَق حيّةً في الإسطبلات، ومع المزارعين أحياناً، اغفري لي، جوليا، ولا تنظري إليّ بحبّ بعد الآن. الانتصارُ يقترب والحربُ تزداد قذارةً، تزداد قساوةً. ما عاد الرجال منذ زمن طويل يحلُمون بالسموّ، يعلمون بأنّ الحرب تُشنُّ بتجهّم وبأنّهم قد خسروا أنفسَهم. فما طُلِبَ منهم هو أن يقبلوا التغرّب عن أرواحهم والذهاب إلى أقصى درجات الخسّة. وهم يفعلون ذلك. يكتب شيريدان إلى غرانت بأنّ وادي شيناندواه لم يعد سوى رمادٍ وغرانت، وهو يقرأ الرسالة، لا ينتابه أيُّ اشمئزاز، ليس له الحقُّ. فهو مَنْ أمرَ رجاله بذلك. إذا كان لا بدّ أن يشمئزَّ، فليشمئزَّ من نفسه وهذا هو ما يفعله، ولكنْ مَنْ يستطيع سماعَه؟ تظلّ جوليا

تحبّه، بينما هو مسكون بصيحات شيريدان. «أحرقوا...! أحرقوا كلّ شيء...!»، وليس له الحقُّ بأن يجد ذلك مُقزّزاً لأنّه هو الذي أمر به فيردّ عليه بأن يأمر بإطلاق ألفِ رصاصةٍ بندقيّة على بيترسبورغ تحيّةً للذين أراقوا دم أرض شيناندواه، «أحرقوا... أحرقوا»، وحين يُعيد طيَّ رسالته ويرفع رأسه، يعلم بأنّ أسلوباً جديداً في شنّ الحروب قد بدأ.

مهزوماً. يتأمّلُ البحرَ منْ مصاطب قرطاجةَ، عند قدميه في الأسفل المرفأُ المُستدير والسفن الحربيّة جميعُها ـ وعلى مسافةٍ أبعدَ المتوسطُ، هذا البحر الذي لم يفلحْ يوماً في إخضاعه. مهزوماً. يردّد هذه الكلمةَ في سرّه، لا يزال عاجزاً عن تصديقها، رغم أنّه رأى مركب الصلح الذي أرسله القرطاجيّون إلى سيبيون، المركبَ المحمّلَ بأغصان زيتون وشرائطَ بيضاء والذي أخذ يبتعد عن المرفأ على مهل، بمهابة، مُتّجهاً نحو الغرب. ورأى سحناتِ القرطاجيّين في الشارع، الذين باتوا يعلمون بأنّهم أصبحوا تحت رحمة المنتصرين. هل انتهى كلُّ شيء حقّاً؟ كان يعتقد دوماً بأنّه إذا خسر أمام الرومانيّين، فالثمنُ سيكون حياتَه، مثل أخويه ماغون وهازدروبال. لكنّه حاضر، حيٌّ، في هذا اليوم الذي يجب فيه على قرطاجة أن تُطأطِئَ رأسَها. معاهدة السلام أُبرمَتْ. وصلت الأحداث إلى خواتيمها. سَلّمتْ قرطاجة أفيالَها الحربيّةَ. وقبلتْ بأن تُقلّص أسطولَها إلى عشرِ سفنٍ. وأرسلتْ مئةَ رهينة إلى روما من أبناء أكثر العائلات وجاهةً والذين سوف يُعدَمون إذا ما خانت تعهدّاتها. تقبل قرطاجة بأن تدفع الجزية المترتّبة على المهزوم، ضريبةَ الحرب لكي تزدهرَ روما مجدّداً. ستحكم روما الشريطَ الساحليّ المتوسّطي هذا بأكمله. يسمعُ منَ المصطبة التي يقف عليها، رئيسَ الأسطول البونيّ وهو يُصدر أمره: «أحرقوا!»، وعندئذٍ، تندلع النيرانُ، دُفعةً واحدةً، في جميع السفن الحربيّة الراسية في عرض المرفأ. بدايةً لا تظهر. فنتوقّع أن يضطرّ إلى تكرار أمرهِ، «أحرقوا!»، ولكنْ لا حاجة لذلك، الجنود أطاعوا، على

مرأى العيونِ الممتلئةِ حبوراً للسفراء الرومانيّين الذين سوف ينقلون المشهد بحذافيره. يسمعه، هذا الصوت، «أحرقوا!»، يرتفع الدخان بدايةً من عنابر السفن، ثمّ تظهر ألسنةُ اللهب الأولى، «أحرقوا!»، كما لو أنّ النار تضطرم في كامل المتوسّط، هنا، تحت بصره، مع ذكريات انتصاراته أيضاً، كاناي، تراسيمين، التي كانت بلا جدوى، أحرقوا البَرسيديين الذين لن يُفلحوا أبداً في إخضاع الإمبراطوريّة، أَحرقوا كابوا الملعونةَ التي فتحتْ أبوابها، وماسينيسا الخائنَ مع سلاح فرسانه النوميديّ، أحرقوا البهجة، فلن تعرفَ يوماً طريقها إليهم، أحرقوا الشمسَ أيضاً، فاعتباراً من الغد لن يعود هناك حريّةٌ، النارُ تلتهم الآن أشرعةَ الثمانين سفينةً حربيّةً، تحمل الريح لهم رائحتها يشعرُ كما لو في فمه طعمُ رماد، أحرقوا، روما انتصرَتْ وأفيالُنا قُتِلتْ، شعوبٌ من الجنود تنظر إلى حريق الأسطول، بصمت، آتيةً من شتّى الأنحاء التي سقطوا فيها، في الأرياف الإيبيريّة، أثناء اجتياز الألب، وفي حرب الغِوار على جبال كالابريا، القتلى في كافّة ميادين الحرب أو الذين تساقطوا على الطرقات، أَحرقوا، أنتم جيش المهزومين ومن الآن فصاعداً ستمضون برؤوس مُطأطئةٍ، أَحرقوا، تتداعى المراكبُ، تتفكّكُ، وتغوص في عرض البحر، على مهلٍ، في دَعَة تقريباً.

-XI-

سيرنايكا[1]

1ـ (Cyrénaïque، بالفرنسية) وهو الاسم الذي كان يطلقه الرومان على إقليم برقة في شرق ليبيا.

شاخ عمر الضهور في بضع سنوات. تغضّنَ، وخمدتْ نظرات عينيه. وَهنٌ عميق يُثقِلُ حركاتِه، وحتى ابتسامتَه. يعود عاصم للتفكير في أوّل لقاء جمعهما. كان ذلك حين بدأتِ الاتّصالات التي سبقتِ الهجومَ الفرنسيَّ ـ البريطاني سنة 2011. قاتلا جنباً إلى جنب أثناءَ معركة بنغازي. كان عمر يتولّى تنسيق إعادة انتشار الرجال المكلّفين بالدفاع عن المدينة، بينما هو يُزوّد الطائراتِ المقاتلةَ الفرنسيّة بالمعلومات عن مواقع الضربات. كم يبدو كلُّ هذا بعيداً... فرحةُ سقوط القذّافي عَبرتْ سريعاً وتركتْ مكانها للصراع العنيف من أجل الهيمنة على المناطق النفطيّة. ظهرَتِ الدولةُ الإسلاميّة، تفكّكَ البلد وانزلق في حربٍ أهليّة. يُقرأُ الوهنُ على وجه صديقه كما يُقرأُ في شوارع بنغازي. لَم يعد ثمّةَ متّسعٌ للبهجة. لماذا لا يكونُ هناك انتصارٌ أبداً؟ لا يكون هناك أبداً لحظاتُ فرح خالصٍ لا يعقبها شيءٌ سوى حياةٍ ترفلُ بالسلام نعيشُها في دَعَةٍ؟ لا يطلب عمر منه شيئاً، ولا يطرح عليه أيّ سؤال حول دوافع قدومه. لا بدّ أنه شعر بأَنْ ليس للأمر صلةٌ بمهمّة رسميّة. يأخذُ عاصماً ويصعدان السطح في المكان الذي فيه، في زمن الدفاع عن بنغازي، كانا معتادَيْن على مراقبة المدينة ومجرى الاشتباكات، ويقدّم له سيجارة. الصمتُ. هذا ما يحتاجانهِ. لم يعدْ بوسع أيّ كلمةٍ مساعدتهما. ثمّ يقول له عمر بأنّ غداً عند الساعة الخامسة بعد الظهر، سيأتي رجلٌ موضع ثقةٍ كبيرة لديه ويأخذه إلى سِرتْ وحتّى إلى طرابلس إن استطاعَ، إلى أبعد نقطة يمكنه الوصول إليها على الطريق الساحليّ.

بأيّ وقت كفَّ عن كونهِ رجلَ خِطاب عصبة الأمم؟ تحوطه حاشيته بتملُّق. تتبَسَّم في وجهه وبالهمس تثير ألفّ مكيدةٍ سخيفةٍ في اليوم. يأتونَه كاشفين عن دناءات، وطموحات، يأتونه ليحذّروه مِنْ بعضٍ منهم، محاولين تزكيةَ بعض آخر. يسمع دون أن يرفَّ له جفنٌ. لا يُظهِرُ أيَّ تأثّر. بأيّ وقت كفَّ عن كونه ذلك الرجلَ الشجاع الذي واجه العالم برمّته في جنيف ليغدوَ ما هو عليه اليوم: تجسيدٌ بائسٌ للامتيازات؟ هو ملك الملوك، المتحدِّرُ منْ ملكة سبأ. ليس مفروضاً عليه أن يكون محبوباً، يُفكّر، ولا أن ينالَ الإعجابَ. هو موجود، وهذا كلُّ شيء. والرجال الذين في الصباح، يسارعون إلى الإصغاء للدسائس، الرجال الذين يتآمرون، يتهامسون، ويسيرون بخطواتٍ مكتومةٍ، لا يطلبون شيئاً آخرَ. فإذاً بأيّ وقت بدأ الشعب يُفكّر على نحوٍ مختلف؟ ليس السبعُ والعشرون سيارةَ رولز رويس التي يمتلكها هي السببُ، ولا الترفُ، أو البذخُ، ليستِ النّمورُ في الأقفاص، أو الجواهر، إنّه الجوعُ. المجاعاتُ تنهش البلاد ولا يرى ذلك، أو يعتقدُ بأنّها أزمةٌ عابرةٌ. الشعبُ يموت واقفاً ولا يبدو أنّ أحداً يرى في إنقاذه أمراً مُلحّاً.

في أيّ وقت بدأتْ ترجح كفّةُ الحرب لصالحهم؟ يحيِّيه الكابتن بفخر آمراً حصانه بالتوقّف بضغطٍ خفيفٍ من الفخذين لا يكاد يُلحظ: «ها هم، سيدي الجنرال...» يملؤُه الزّهوُ بصيده، على نحو سافر. يتبسّم دون أن يتمالكَ نفسه من أنْ يُردِفَ: «نجدُهم على جميع الطرقات... لم يعدْ ليْ قادراً على الإمساك برجاله...». يتنحّى الحصان جانباً ليمرَّ رتلٌ من الهاربين والفارّين من القتال. ما عادوا بشراً. يتقدّمون بخطوات متثاقلة، وأجساد هزيلة، فقدوا نصفَ أوزانهم، مذهولي النظرات. يعاود غرانت التفكير بالأجساد في خنادق بيترسبورغ، حين استسلمَتِ المدينة أخيراً بعد تسعة أشهر من الحصار. كان ثمّة صِبْيةٌ في عمْرِ الثالثةَ عشرةَ، حفاة، مُلْقَونَ هناك في الطين... عارٌ

على الكونفدراليين الذي سلّحُوهم وعارٌ عليهم هم الذين قتلوهم. ما عادوا بشراً. لا هؤلاء الذين يترنّحون أمامه، الذين لم يأكلوا منذ أيّام – إلّا العشبَ الغضَّ وجذور النباتات –، ولا هو، منْ يقف أمامهم باستقامة، مُتأثّراً بهذا القدْرِ من البؤس مع أنّه هو الذي أمر بتوجيه الحرب إلى الإمدادات لتجويع الجنود. ينظر إلى الكابتن الشابِّ الذي يتبسَّم إلى جواره، سعيداً بصيدِ اليوم، والذي لا يرى في رجل انتهى به الحال ليصبحَ كيساً من العظام بلثّة نازفةٍ ما يستدعي السخطَ. «الحربُ هي الجحيم War is hell» قال صديقه شيرمان. يجب عقاب المدنيّين وفصل العدوّ عن قواعده. «أستطيع جَعْلَ جورجيا تصرخ من الألم»، كتب له، وفعلَ ذلك، مُدمّراً كلّ ما أتى في طريقه. ها هم المهزومون أمام عينيه بأجسادهم الهزيلةِ وشفاههم البيضاء يَهذون من الجوع. هل ينبغي الابتهاجُ لهذا المشهد؟ أجل، لأنّهم علامةُ الانتصار. يبدو من الواضح أنّ جيشَ ليْ يذوب. لا بدّ أنّهم باتوا أقلَّ من ثلاثين ألفاً وجميعُهم يتضوّرون جوعاً. «الحربُ قاسيةٌ». يعود دوماً للتفكير بشيرمان لأنّ ما من أحد لديه صفاءُ ذهنه ويقول الأشياءَ بالوحشيّة التي تحتويها. «كلّما اشتدّتْ قسوتُها، سوف تنتهي أسرعَ». القرى تحترق، والرجال يتساقطون من الجوع على طول الطريق. لا شيءَ يمنع شيرمان من التقدُّم. يخوّضُ في الوحل، يجتاز الغاباتِ. يدمّر كلَّ شيء والجنوب يصرخ ألماً. هل ينبغي الابتهاجُ؟ يفكّر بهذه اللحظة بأنّ النصرَ محنةٌ. يترك الكونفدراليّين بخرقهم الرثّةِ يمرّون ويعتريه شعور بأنّه هو المُهانُ، والأسوأُ، شعوره بأنّ هذه الإهانة لن تبرحَه، وسيضطّر إلى اعتياد حملِها في داخله، وحتّى حين ستصدح صيحاتُ الانتصار – لأنّها ستصدحُ –، حتّى في تلك اللحظة، ستكون كامنةً في داخله، سرّيّةً، لاذعةً، لن يقوى على الفكاك منها، وسيظلُّ له إلى حين موته إرثٌ يتقاسمه مع فِرق الأعداء: هذه اللحظةُ، والرؤوس مطأطئةٌ، حيث الإنسانُ من كثرةِ ما أوغل بعيداً ما عادَ إنساناً.

لزمنٍ طويلٍ، سيتذكّر هذه اللحظاتِ ـ دون أن يعلم على وجه اليقين إن كان قد عاشَها حقّاً أم إنّها حلمٌ طويل مسكون بصوت البحر وطلقاتِ الأسلحة الأوتوماتيكيّة في البعيد. لزمن طويل سيتذكّر هذا الطريقَ الطويلَ الذي سلكَه من بنغازي إلى طرابلس والذي استغرق يومين من السفر والغبار، في هذا البلد المُستنفَدِ الذي يعبق برائحة الخوف والنفط. سار في السيّارة لساعات، محاولاً تجنُّبَ التقاطعاتِ، الحواجزَ، مستسلماً لتتابع المشهد، ووجهه لصقُ الزجاج، مستعيداً هذا البلد الذي عرفه قبل سنوات. يتذكّر صرخاتِ حشدِ الانتفاضة آنذاك، مجموعاتٍ من الشبّان، مستعدّين لأيّ شيء، مع بندقيّة واحدة لأربعة أو خمسةٍ أحياناً، مُقسِمينَ بألّا يتراجعوا خطوة أمام تقدُّم الفِرق التي بقيَتْ على ولائها للقذّافي. اليومَ، شوارعُ المدن الساحليّة فارغةٌ ولم يعد فيها بهجةٌ. عند كلّ صباح يصعَدُ شبّانٌ سيارات البيك آب ويذهبون لإرعاب قرى المنطقة الغربيّة. البلدُ يتمزّق. يقتضي الإنصاف بأن ينتهيَ كلُّ شيء في طرابلس، لأنّ كلَّ شيء سينتهي، لا يساوره شكٌّ بذلك. لن يكون هناك لقاءٌ ثالث. جوب يستدعيه للمرّة الأخيرة، وبعدها يُسدَلُ الستار.

لماذا تعود دوماً إلى التفكير به؟ بذاك الرجل الذي لن تراه بعدَ اليوم على الأرجح، بذاك الرجل الذي لم تقاسمْهُ سوى ليلةٍ؟ لماذا دائماً يعود ذهنها إلى زيوريخ؟ لا تزال مسكونةً برائحته، وملمس بَشَرته، تتذكّر. وبوسعها أن تُقسِمَ ـ وهي على يقين تامّ بذلك ـ بأنّه، أينما حلَّ، يتذكّرها أيضاً. ربّما في العمق لهذا السبب نهضَتْ وتركَتْ رجلَ فندق بولمان. ليس لأنّها تريد الهروب من حزنه المثير للشفقة، كما اعتقدَتْ، ليس لأنّ الأمرَ يُثقلُ عليها، كلّا، وإنّما لأنّها لم تكن تريد، بعد زيوريخ، أن تغرقَ في ليلة شقيّة حيث ستَضغَطُ الأجسادُ على بعضها دون قناعةٍ، حيث النشوةُ ستُؤخَذُ أكثر ممّا توهَب. أين هو في هذه اللحظة؟ في أيّ ركن من العالم المُشتَعلِ؟

الرحلة طويلة. وهذا حسنٌ. يحتاج إلى هذا الوقت. لم يكن ممكناً التوقُّف في لبدةَ الكبرى كما كان يرغب: ليرى ثانيةً الأطلالَ الرومانيّة الضخمة المواجهةَ للبحر، واثقةً من أبديّتها، متحدّيةً اضطراباتِ البشر. كان يرغب، لأنّه يشعر بأنّ للأمر صلةً بجوب. يسلك مُجدّداً طريق سرت ـ مصراته، الطريقَ الذي عرفَ عليه خطَّ ظلّه. أليسَ للأمر صلةٌ به؟ ما شعره جوب في الحوّامة التي أقلّته من أبوت آباد، مع جثّة بن لادن عند قدميه داخلَ غطاءٍ بلاستيكيّ، ذاك الانفصالُ عن العالم، ذاك الشعورُ بأنّ شيئاً لن يعنيَه بعد الآن، أليسَ هذا هو ما شعر به أيضاً، على هذا الطريق، منذ ثلاث سنوات سبقَتْ، داخلَ ذلك الحشد الذي أراد إعدامَ الدكتاتور دون محاكمةٍ؟

امضِ، هنيبعل، جنحُ اللّيل يحميكَ، ولن يعثرَ الرومان عليك، امضِ، الأفراسُ تخور مُنهكةً بين فخذيك، واحداً تلو الآخر، زبدٌ أبيض يتطاير منها، تلهث، غير أنّ أفراس التبديل مضمونةٌ وثمّة دوماً فرسٌ ليعدوَ بك من جديد ويحملَك بعيداً عن قرطاجة.

كان يمكن لكلّ شيء أن يستمرَّ. عهودٌ من السيادة. حياةٌ من الأُبّهة السحيقة للمتحدّرين من قبيلة يهوذا. كان يمكن لكلّ شيء أن يستمرّ لقرون. إلّا أنّ الشخصيّاتِ الرسميّةَ التي تستقبله في ذاك المطار البرازيليّ لهم هيئاتٌ غريبة ووجوهٌ عابسة. حطّتْ طائرته للتوّ من أجل القيام بزيارة دولة. حلّقَ فوق مساحة كبيرة من الكوكب، غيرَ مُبالٍ، وهو يفكّر في الخطاب الذي يجب أن يلقيَه، والآن السفيرُ الذي أتى لاستقباله يدنو منه ويقول بصوت مُرتجفٍ: «جلالتكم...» لا يعلم كيف يُبلغُه بما لديه. لا يستوعبُ إلى اللحظة بأنّ عليه أن يبلغَ إمبراطوره بأنّ انقلاباً حدثَ للتوّ في البلد. يتجمّدُ النجاشيّ. يطلب تكرارَ ما قيل، يريد أن يزوّدوه بجميع المعلومات المتوفّرة. فيشرح له السفير ما يعرفه: الأَخَوان منغستو وجيرمام، اللذان يعتبرهما مثل أبنائه، استوليا على مقاليد الحكم. حتّى إنّهما دخلا القصر. هيلا سيلاسي لا يتردّد. يُقفِل عائداً على الفور.

امضِ. هنيبعل. عشرُ سنوات انقضتْ على انتصار روما، عشرُ سنوات وقرطاجةُ تطأطئُ رأسها وتدفع الجزية إلى الإمبراطوريّة. ورغم الشروط المفروضة من قبل مجلس الشيوخ الروماني، حالةُ قرطاجةَ جيّدةٌ. وحين تقترحُ بأن تُسدّدَ مقدّماً ما عليها لروما لأربعين عاماً، يرتجف مجلسُ الشيوخ. لم يكن يرى المهزومَ مزدهراً إلى هذا الحدّ. قرطاجةُ تعيش، وليست محتضرةً. هنيبعل لا يزال موجوداً. منْ يستطيع الجزمَ بأنّه لن يملكَ القدرة على أن يشنّ حملة في يوم ما؟ لا يلبث مجلس الشيوخ أن يغدو نومه أسوأَ. وذلك يضعه في توتُّرٍ. هو انتصر... كيف يحصل إذاً ألّا يغطّ في نوم هانئ؟ كيف يحصل بأنّ يشعرَ بالخوف؟ هل سيكتفي هنيبعل على مرّ السنين بإدارة الانحطاط الذهبيّ لمدينته تحت الهيمنة الرومانيّة؟ مَنْ يصدّق ذلك؟ الشيوخ يدركون ذلك، يشعرون به منذ زمن طويل: لن ينتهيَ شيءٌ طالما هنيبعل على قيد الحياة. لقد أخطؤوا حين قبلوا وساطة سيبيون لترك البَرسيديّ حرّاً في مدينته. كان يريد الظهورَ بهيئة النبيل، المُتعالي، ولكن الشيوخ الآن ترتعد. يجب موتُ البَرسيديّ. قرطاجة فاحشة الثراء. يجب أن يموتَ لأنّ مجرّد تردُّدِ أنفاسه كافٍ لتهديدهم. كافٍ لإعطاء الجرأة للكارهين لروما وينتظرون الساعة بأن تحينَ. فيقرّرون موته وهنيبعل يعلم ذلك. في عتمة ليل يغادرُ كلَّ شيء. لن يرى قرطاجة ثانيةً. لن يعود إلى أرض إفريقيا أبداً. امضِ، هنيبعل، من فرس إلى آخر، في تلك الليلة حيث تنجو من السكين، وتُسابق الريح إلى المركب الذي أُعدّ لأجلك، وتغادرُ الشاطئ بأقصى سرعة. كلُّ شيء يبدأ مجدّداً، هنيبعل. أنت وحدَك على متن ذاك القارب الذي يقلُّك إلى سرسينا إلّا أنّك تجعل فرائصَ روما ترتعد. لأنّ جيشاً من الموتى صعد معك ويطالب بثأره، صعد معك صِدامُ الإمبراطوريّات القادم، امضِ، هنيبعل، في ليلة الهروب هذه تصحو على نفسك، معارضاً، يلتمس في نفسِه القدرةَ دوماً على الوقوف في وجه هيمنة روما. كلُّ شيء يبدأ مجدّداً. بعد هزيمة زاما، بعد عشر سنوات من الصمت إزاء دفع الديون المتوجّبة للمنتصر، كلُّ شيء

يبدأ مُجدّداً، أنت تجيد القتال وتسابق الريح صوبَ الشرق حيث ستجد حلفاء. السلوقيّون بانتظارك. يريدون هزيمة الإمبراطوريّة الرومانيّة وأنت تكفي، باسمك، بالدم الذي أجريتهُ، أن تُرجِفَها.

رحلةُ العودة طويلةٌ، طويلةٌ على نحو لانهائيّ. لا أنباء لديه عمّا يجري في بلده. لا يعلم بأنّ مُناصريه قد أمروا بأن تجولَ إحدى سيّاراته الرسميّة شوارع أديس أبابا لطمأنةِ الشعب وبأنّ، في كلّ مكان تعبر منه، يعلو تهليل النساء محيّياً حضورَ ملك الملوك. لا يعلم بأنّ الثوريّين استوليا على قصره واحتجزا ثماني عشرة رهينةً. يشعر بأنّ عليه الوصولَ بأقصى سرعة ممكنة، وبأنّ المسألة متوقّفةٌ على ساعات، بأنّ وجوده ضروريٌّ في المدينة، ولكن لا يمكن للطائرة أن تسرعَ أكثر. فضلاً على أنّ إحدى مراوح المركبة الثانية التي ينبغي أن تقلّه إلى العاصمة مكسورةٌ. لا يكترث ويقوم بالرحلة مائلاً في السماء، مثل عرشه الذي يترنّحُ. من الآن فصاعداً يعلم بأنّه لن ينعمَ بفرحة هانئةٍ، ولا سلطة كاملةٍ. من الآن فصاعداً، ليس ثمّة إلّا الوحدةُ والتوجُّس.

تعمُّ البهجةُ جميع الأرجاء. يرفع كاستر قبعتَه مع ابتسامة انتصار. يهتف الرجال باسمه، ويشعُّ وجهه بالافتخار. ينتظر غرانت بأن يُعلَن له الخبر. لا يحبُّ كاستر، لم يحبِبْهُ يوماً. كان يجده على الدوام مفرطَ الزهوّ بنفسه وقاسياً بلا مبرّر. كم غريبٌ أنّ رجالاً بين الضبّاط الكونفدراليين يقدّرهم أكثرَ بما لا يُقاس من بعض ضبّاط معسكره... في النهاية، يصلُه النبأُ: ألقى كاستر ورجاله القبضَ على قطار إمدادات مع خمسة وعشرين مدفعاً. المِلزمةُ تكْربُ أكثرَ. صفٌّ ليْ يختنق. يصافح غرانت كوستر. إنّه خبرٌ جيّد وهذا أيضاً غريب: رجالٌ سوف يموتون من الجوع ويُعَدُّ هذا خبراً جيّداً. الذين لم يبقَ لديهم ما يقيتهم منذ أيّام، المصابون بالذهول، الذين يفرّون، يترنّحون في الحقول، الذين غدَوا ظلالاً هزيلة ومع ذلك

يسيرون دون توقّفٍ نحو الغرب للهروب من جيشي غرانت وشيرمان، هؤلاء سيزدادون حرماناً. رجالٌ سوف يموتون من الجوع وكاستر يرفع ذراعيه شارةَ نصر. غرانت يكرهه لفعلِه هذا، ولكنْ ما الذي يمنعه عن فعله؟ لماذا يجب أن يكون حزيناً في الانتصار؟ أليس هذا ما كانوا يأملونه منذ أشهر، سنين؟ النهايةُ تقترب. وقد تكون هذه الضربةَ الأخيرة. كتب بالأمس رسالة إلى القائد الجنوبيّ يدعوه فيها للاستسلام. ليْ لم يُجِبْ. يعلم الآن بأنّه سيكتب رسالةً ثانيةً، فما يعيشه الثلاثون ألف رجل المتبقّين في الصفّ الكونفدرالي كابوسٌ حقيقيّ. بعد حصار بيترسبورغ، والهجمات الدامية، اتّخذتِ الحربُ شكلَ مطاردة. الكونفدراليون في جيش فرجيننا يفرّون، ما عادوا يمتلكون شيئاً. لا يأكلون، ذخيرتهم نفدَتْ، ووجوههم شحبَتْ. اتّخذتِ الحرب هذا الوجه، الأقبحَ بين الوجوه: احتضارٌ بطيءٌ. لم يعد ثمّة أيُّ شكّ: ليْ خسر وغرانت راغبٌ بأن يُخيّمَ الصمتُ، صمتٌ عميقٌ لكي يستطيعَ العودة إلى خيمته وكتابةَ رسالة أخرى، ولكنّ الرجال يصرخون، يتقاذفون قُبّعاتهم في الهواء، يُغنّون ويَعِدون أنفسهم بالذهاب والاحتفال بالمناسبة في أحدِ مواخير واشنطن الخمسين...

«جلالتك...» ينتظر أنباء لكنْ دون أن يفقدَ رباطة جأشه. «قتلَ المتمرّدون الرهائنَ». يظلّ منتصبَ القامة، ولا يطرح أيَّ سؤال. يتخيّلُ سجادَ القصر يغرق في الدّم، الأجسادَ التي تئنُّ، وتنفدُ في النهاية، الرائحةَ المقزّزة للبارود والأحشاء. يعلم بأنّه سيعاقبُ المتمرّدَين، ولن يُظهرَ رحمةً، وهذا ما يفعلُه. حين يلقي الجنود القبضَ عليهما، يرشُّون جيرمام بالرصاص. يُصابُ منغستو في عينهِ لكنّه يظلُّ حيّاً. يُجرُّ مثلَ جثّة حيوان. طلبَ هيلا سيلاسي رؤيتَه. لمجرّد التفرُّس في وجهه بهدوء. يُلقي عليه نظرةَ ازدراء ويأمر بشنقه في ساحة مركاتو. ثمّ عرض جثث المتآمرَين في ساحة مينليك، أمام كاتدرائيّة سان جورج حيث تُوّج ملكاً. سوف يحطّ

الذباب على قوس حاجب منغستو الذي شُجَّ، على الدم المتخثّر للثقبِ الفاغر وعلى لسانه المتدلّي. ستشير الأولاد بسباباتهم إلى هاتين الجثّتين المُتصلّبتين الغريبتين، الملتويتين، اللتين كانتا منذ بضعة أيّام خلَتْ ترعدان المدينة برمّتها. سيرى الناس جميعاً بأنّ الإمبراطور قد عاد وبأنّه قويّ. وسيفهم الشعب بأنّ الأجساد التي تعارضه ستكون نهايتها مخلّعةً، مدمّاةً وبائسةً. من الآن فصاعداً، يعلم بأنّ الريبة والهمس سيستبدّان بكلّ شيء. أين الانتصار في حياة كهذه يملؤها الصراع والانقلابات؟ متى كان مُنتصراً؟ حين كان يمضي في شوارع أديس أبابا، عند عودته، إلى جواره وينغيت وخلفهم عناصرُ قوّة جدعون؟ في ذلك اليوم حيث كان القيظ يخنقه وكان متلهّفاً للرجوع إلى قصره ليلتقطَ أنفاسه؟ هل كانت تلك لحظةُ الأَوْجِ في حياته، التي كان عليه أن يجعلَها تدوم؟ أم كان ذلك قبل؟ عند تتويجه؟ حين كان لا يزال بوسعه التفكير بأنّه سيكون ملكَ الملوك لحياة بأكملها؟ الآن، لم تعدِ المسألةُ على هذا النحو. الحرب بعيدة ولكنّ التهديدَ من الآن فصاعداً سيكون في كلّ مكان. وهو يرمق الذبابَ على عيني منغستو الميتتين، يعلم أنّه من الآن فصاعداً، العزلةُ والحساباتُ الماكرةُ ستستبدُّ بكلّ شيء.

شاخَ، بالطبع. أربعون عاماً من الحرب مرّتْ. أربعون عاماً لم يكن فيها سوى محارب. حياةٌ من المخيّمات، من ساحات القتال، من الاستيقاظ المبكر عند الفجر وأرتال الخيول الطويلة. لم يعرفْ يوماً غير ذلك. لم ينعمْ بزوجه قطّ، ولا بأولاده، لا ببلده، ولا بملذّات الحياة إلّا في حدّها الأدنى. حياتهُ بأكملها كرّسها للصراع مع روما. واليوم يبدأ من جديد. صحيح بأنّه الآن رجل مُسنٌّ، إلّا أنّ الجنود حوله لا يزالون ينظرون إليه بالتقدير ذاتِه. هنيبعل. غدا هذا الاسم السحريّ، هذا الاسم الحربيّ قادراً على إسقاط إمبراطوريّات. هل لا يزال من متّسع لقلبِ الأدوار؟ يعتقدُ بذلك. حين وصل إلى صور، استقبله أنطيوخس بما يليق به من

حفاوة. يمكن للوضع برمّته أن ينقلبَ إذا انتهتِ المعركة بالنصر. اليونان لم تمتْ بعد، وها هي الآن تُلقي بورقتها الأخيرة. أحضرتْ هنيبعل لأنّه أكثرُ رجل تخافه روما، الرجل الذي بوسعه قلبُ الموازين. المحارب صاحب الخبرة. والرومان يدركون بأنّ ما يولد الآن في الشرق هو تهديدٌ لهم. يعرفون بأنّه يجب الإسراعُ في إخماد الجبهة الشرقيّة. اليوم سوف تحصل المواجهة بين الأسطولين وعلى هذه المواجهة سيتقرّر كلُّ شيء. يرنو هنيبعل إلى السفن وهي تنتشر. بماذا يفكّر في هذه اللحظة؟ بأنّ البحر لم يرقْ له يوماً؟ بأنّ روما استطاعت دوماً الاعتماد على أسطولها؟ بأنّ كلّ شيء أخذ يهتزُّ من جديد وبأنّه يعود، رغم سنّه، قائداً حربيّاً ويكفّ عن كونه مجرّدَ مُعارضٍ؟ بماذا يفكّر؟ ربّما يشعر في قرارة نفسه أنّه لن ينتصرَ... التاريخ لا يمنح سوى فرصةٍ واحدةٍ. عمره الآن ستون عاماً وحربه خسرها عندما فُتِحَتْ أبواب كابوا، أو لمّا أوغلتْ أفيالُ زاما عميقاً جدّاً في الصفوف الرومانيّة. وماذا لو كان اليوم، في العمق، خارجَ الحسبان؟ وماذا لو كان موتُ الذين سيسقطون اليوم بلا طائل؟

تقلّبُ صفحاتِ جريدة، في المطعم الصغير هذا حيث أتتْ لتناول وجبتها بمفردها. الأنباءُ شديدة الوطأة. لا يزال العالم يرتعش جرّاء الهجومِ على فندق باردو في تونس. سارع العديد من رؤساء الدول في الانتقالَ إلى موقع الهجوم. «Ktema eis aei». تعود للتفكير بهذه العبارة التي استخدمها ثيوسيديديس لتعريف نهج المؤرّخ. أستاذُها في دمشق، السيد أحمد الخوري، هو من غرس هذا المبدأ فيهم، حين تابعت لمدة عام دروساً في الجامعة السوريّة. تكوين «خبرة مكتسبة إلى الأبد». بوصفه للحروب البلوبونيزية، كان يأمل ثيوسيديديس بأنّ يُقدّمَ إلى البشريّة: علماً نهائيّاً. القرون عبرَتْ. أضاف المؤرّخون الكثير، وكتبوا عن كلّ مجزرة، كلّ إبادة، كلّ اضطراب للتاريخ. «ينبغي عدم تكرار ما حصل». كلُّ جيل تلفّظَ هذه الجملة. فهل التاريخ بلا طائل؟ طرحوا عليه هذا السؤال، تتذكّر ذلك

جيّداً، فزمّ الأستاذ الخوري المسنُّ عينيه بخبثٍ من فوق نظّارته، مُستعيداً لبرهةٍ بشاشته اللبنانيّة. «أتفهّمُ خيبةَ أملِكم...» قال للطلّاب الشبّان الذين كانتْ واحدةً منهم. «ولكن لا تُسارعوا إلى إزاحة ثيوسيديديس. فكّروا بالحبّ...»، فأبدى الشبّان في مُدرَّج القاعة، متفاجئين، مزيداً من الاهتمام. «في اللحظة التي تُصرّحون فيها عن حُبّكم، تُصرّحون به إلى الأبد، أليس كذلك؟ بغضّ النظر عن احتمالات توقُّف الشريكين عن الحبّ، بغضّ النظر عن تدخّلِ الأمّهات، والعمّات، والجدّات اللواتي يحكين لكم عن خيانة الرجال والزمن المفضي إلى تبدُّدِ المشاعر، في اللحظة التي تُحبّون، تُحبّون إلى الأبد وهذا صحيح. فلنقلْ ببساطة إذاً إنّ المؤرّخين ضرْبٌ من العشّاق...» عمَّ انشراح المُدرّجَ، بالطبع، والأستاذ استمتع بالمفعول الذي أحدثَهُ قبل أن يغرقَ مجدّداً بوقار في دراسة تاريخ الحرب البلوبونيزيّة. صارعتْ طوال عمرها، مُجمّعةً قِطعاً، ساعيةً إلى إعادة تكوين تراث. تنظر إلى المتاحف دوماً على أنّها أماكنُ مقدّسةٌ موهوبةٌ إلى الأجيال القادمة، تضمُّ بين جدرانها الآثارَ التي قد جمّعها الإنسان لتبقى إلى الأبد، في مأمنٍ من الفناء. ولكن هل هي في مأمنٍ حقّاً؟ لم تعدْ تعلمُ. تعود للتفكير بخبث الأستاذ العجوز الخوري. الحبّ. والذي يظهر أمام عينيها، وجهُه: عاصم. تعلم أنّها ربّما لن تراه أبداً، ولكنّ في أعماق ذاتها تشعر بأنّ ليلة زيوريخ باتتْ مُكتسبةً إلى الأبد.

سُرعان ما تدور رحى المعركة لغير صالحهم. اللعنةُ على المراكب... لن يستطيعَ أبداً هزيمة روما في البحر. تلجأ سفن الإمبراطوريّة إلى استخدام الحرّاقات[1]. تندلع النار في أشرعة أسطول أنطيوخوس. تشبُّ الحرائق في كافّة الأرجاء، ويأخذ البحر بالتلألؤ. يغصُّ هنيبعل ألماً. روما سوف تنتصر. تتداخلُ الصورُ في ذهنه، فيرى في آن معاً الأسطول البونيَّ يحترق في مرفأ قرطاجة وسفن أنطيوخوس تتمزّق وتتفكّكُ. سيُهزم مُجدّداً. والسؤال

1ـ أوانٍ مملوءة بالزفت والكبريت المشتعل، تستعمل لإحراق أشرعة سفن الخصم.

الوحيد الذي سيقضُّ مضجعَه هذا المساء، بعد أن يتراجعوا إلى صور، هو أن يعرفَ إذا ما كان أنطيوخوس سيسلّمه إلى الرومان أم لا. لأنّهم - بلا ريب - سوف يطلبون ذلك. هل سيسلّمه حليفُهُ بمُقتضى اتفاقٍ فاوضَ حوله، وسلامٍ مصنوع بشقّ الأنفاس؟ إنّه السؤال الوحيد الذي يحملهُ معه، حين السفن تستدير عائدةً، تاركةً السفن المعطوبة تحترق والرجال في عرض البحر يصرخون مُتضرّعين بأن يأتي مَنْ ينقذهم، ثمّ يُنهكون ويغرقون.

سار ليلاً بين مصراته وطرابلس، مستلقياً في المقعد الخلفيّ كي لا يُرى. بعد وصول السيّارة إلى مركز طرابلس، تتركه في زاوية أحد الشوارع. يشكر السائقَ ويغوص في المدينة. الآن هو بمفرده ويسير مسرعاً. لا يبدو أنّه لفتَ انتباه أحد. إذا سُئل أيَّ شيء، سيدَّعي بأنّه رجلُ أعمال تونسيّ أو مديرُ مصرف. لا يتوقّف أمام واجهة فندق رادسون القديم، ليس محتاجاً لأن يلتقط أنفاسَه أو يقدّرَ الأخطار. متلهّفاً. لذا يستعجل. يدلُفُ في الصالون الكبير للفندق حيث تبدو الأرائكُ منتظرة، في تعب، أُناساً لن يأتوا. ستائرُ النوافذ مُسدَلةٌ، لتجنُّب طلقاتِ الرصاص من الخارج، على الأغلب... تستغرق عينيه برهةً لتعتادَ الظلمة. هناك رجل خلف كونتوار، لا بدّ أنّه كونتوار الاستقبال في زمن كان فيه المبنى مقصدَ النزلاء، لكنّه غارق في قراءة جريدة ولا يرفع عينيه حتى. يتقدّمُ. على يمينه، أربعةُ رجال يتحلّقون حول طاولة ويتحادثون بصوت خفيض. رجالُ أعمال. وثمّة خامس بقيَ واقفاً، تفصله عنهم خطوتين، وعن كتفه يتدلى سلاحٌ أوتوماتيكي. ينعطف يساراً، نحو الصالون الآخر، وعندئذ يراه، يتعرّفُ عليه مباشرةً، يجده بمفرده، غائصاً في أريكة، وعيناه تحاولان ثقْبَ الظلمة، ربّما مبتسماً أو متجهماً، والصوت الذي يستقبله، ما إنْ يظهر، هو نفسه تماماً الصوتُ الذي في بيروت، كما لو أنّ الليلةَ ذاتَها تتمدّدُ: «أنا سعيد بلقائك ثانيةً، ملازم أوّل...»، وينبغي أن يعترفَ عاصم بأنّه هو سعيد أيضاً، وذلك يربكُه فما الذي يستدعي بهجتَه في هذه اللحظة؟

-XII-

ليبيسا[1]

1ـ هي حالياً مدينة جبزي التركيّة، مدينة قديمة في إقليم بيثينيا، وتقع في شمال غرب تركيا.

منذ بزوغ الفجر، وغرانت يعاني من صداع نصفيّ. لو يجيزُ لنفسه، لكانَ تجرّعَ زجاجة كاملةً حتّى ينهار على سرير المُخيم وينسى هذا اليوم. غير أنّه لا يستطيع. يبقى في خيمته. الضوءُ يؤلم عينيه. ومع ذلك هناك من يناديه. الصوتُ مُلحّ. «جوابُ الجنرال ليْ، سيدي الجنرال...» يقفز من مكانه. هناك رجل يمدُّ له ظرفاً. يندفع جميع ضبّاط أركانه حول المبعوث ويلبثون بانتظار معرفةِ الجواب. يستلم الظرفَ. يتجمّدُ الوقتُ. كلُّ شيء يجري ببطء. لم يفضَّ الرسالةَ بعد. يتساءل إذا سيجد في نفسه القوّةَ لفعل ذلك. الضبّاط من حوله يرمقونه بأبصارهم. أربعُ سنوات من الحرب تُثقل كاهلَه. قتلى من جميع الأرجاء تتطاول أعناقُهم فوق كتفه ليقرؤوا. وفي النهاية يفتحهُ، ويجد في نفسه القوّةَ ليقرأَ دون أن يتغبّشَ بصره: ليْ يستسلم. كلماتٌ قليلة تَفِي. انتهى كلّ شيء. يرفع رأسه، لا يظهر عليه أيُّ انفعال، يعطي الظرفَ إلى منْ يريد قراءته. يُؤخَذُ الظرفُ منه، يصعبُ عليه تحديدُ مَنْ أخذه بالضبط. لا ينبسُ بكلمة. تشرع الرجال حولَه بالبكاء. بلى. ليس بالغناء، ولا بالصراخ بهجةً بل بذرفِ الدموع على انتصارهم.

أنطيوخس لم يخنْه غير أنّ هنيبعل اضطرَّ إلى الهرب. ستقتصر الحياة من الآن فصاعداً على الهرب. غادر صور إلى كريت، وما لبث أن غادرها نحو مملكة بروسياس[1]. كانت حياته في كلّ مرّة رهينةً بيدَي مُضيفِه. كان

1ـ بروسياس الأوّل (228ـ182 ق م) حاكم بيثينيا.

على الحاكم الذي يستقبلُه، في كلّ مرّة، أن يواجهَ امتعاضِ روما. ويعلم بأنّه يوماً ما سيُباع، أو سيُقايَضُ به من أجل اتّفاق سلام. سيُسلَّم كعربون نيّة طيبة أو يُتركُ كورقة أخيرة في مفاوضات طويلة. ما الذي يستطيع فعلَه إزاء ذلك؟ إنّه في حالة هروب دائم من بلد إلى آخر، بلدان الساحل الشرقيّ للأبيض المتوسّط، وستمضي حياته على هذا النحو حتّى النهاية.

اندلعَ انقلابٌ جديد. هل هم أنفسُهم؟ هل عاد منغستو وجيرمام من بين الموتى ليضايقاه ثانيةً؟ لا... اليومَ يكلّمونه عن شيء آخر. ليس الأمر متعلّقاً برجل وإنمّا بما يشبه تنظيماً سرّياً: ديرغ[1]. يشعر بالزهد. سنوات مرّتْ... تتداخل الأزمنة في ذهنه. وتتراكم الهجمات واحدةً إثر أخرى ضدّ عرشه. حيكت العديدُ من المؤامرات. كلّ سنتين أو أربع. والآن هذه. يطلقون النارَ على القصر ولا ينزل الشعب إلى الشارع لحمايته؟ ثمّة شيءٌ قد تغيّرَ. هل هو يخسر؟ يشعرُ بوهن مقبلٍ من بعيد يستحوذ عليه. يحول دون أن يقفزَ من مكانه، دون أن يصرخ مُصدِراً الأوامر، دون أن يستجيبَ للحدث بحزم. يشعر بأنّ البلد من الآن فصاعداً تنظر إليه بكراهيّة، إليه وإلى سيّاراته الرولز رويس السبع والعشرين، إليه وإلى حاشيته من الرجال عديمي النفع، إليه وإلى ثرواته في بلدٍ يموت فاغرَ الفم.

حين يصلُ غرانت على مقربة من أبوماتوكس كورت هاوس، إلى منزل ماكلين، يجدُ ليْ قد سبقه ووصل، مُرتدياً زيّاً لا تشوبه شائبة. أمّا غرانت فلم يخطر في باله تغييرُ ثيابه. وصل بزيّ مُعفّرٍ. لم يتقصّدْ إهانة خصمه، أتى بالحالة التي عليها، مُلطّخَ الثياب بوحل مخيّمه. فور وصوله، تحلُّ رصانةٌ رسميّة على المكان ويرزح الرجال تحت وطأتها. يكتسي وجه غرانت في هذا اللحظة ملامحَ غريبة، أكثر ما ينمُّ عنها، هو الإحباط. كما لو أنّه مُمزّقٌ جرّاء هذا الانتصار. كأنّ هذه اللحظةَ التي

1ـ (Derg) اسم لجنة التنسيق العسكريّة التي قامت بانقلاب سنة 1974.

تضع حدّاً لأربع سنوات من سفك الدماء والمذابح تغرقهُ في أعمق حزن. يبقى ليْ محافظاً على وقاره، مثاليّاً. لتبادل بضع كلمات قبل توقيع الاستسلام، يذكّرُ غرانت ليْ بأنّه سبق لهما أن تقابلا. إبّان الحملات المكسيكيّة. يتذكّر جيداً الهالةَ التي تُحيط بالجنرال الكونفدرالي منذ تلك الأيام. أتى على استحضار هذه الذكرى ليظهرَ له احترامه، ولكن تلك كانت حياةً أخرى وليْ لا يتذكّر... كم من الرجال سقطتْ منذ ذلك الحين. يتصافحان. فوّض لينكولن غرانت بأن يمنح ليْ شروطَ استسلام سخيّةً. سيُنزَعُ سلاح الجنود الجنوبيّين وسيمدُّونهم في المقابل بالطعام. سيكون الضبّاطُ أحراراً. وينبغي منذ الآن التفكيرُ في المُصالحة. حين يخرجون من منزل أبوماتوكس، يصرخُ جنود الاتّحاد تلقائيّاً من الفرح إلّا أنّ غرانت يُسكتُهمْ بحركة من يده. في حربٍ أهليّةٍ لا يُحتفَلُ بالنصر. عدوُّ الأمس هو جارُ الغد. يخيّمُ الصمتُ على الصفوف. وينتظم الرجال في رتلين مُفسحِينَ في المكان ممرّاً تشريفيّاً تحيّةً للوفد الجنوبيّ، الذي يغادر، كاظماً غُصّته، ليعلنَ للفرق بأنّهم خسروا الحرب غير أنّه سيكون لديهم ما يأكلونه هذا المساء.

حين يصلُ هنيبعل إلى ليبيسا في بيثينيا[1]، يعلم بنبأ موت سيبيون. كم الأمرُ غريب... أن يظلّ حيّاً بعد مَنْ هزمَه. سيبيون كان أصغرَ منه بعشر سنوات، إلّا أنّه مات للتوّ في ليترنوم[2]، في منزله المقابل للبحر. يشعر هنيبعل بحزن غريب. كان يعلم بأنّه ما دام سيبيون حيّاً، فبالإمكان الاعتمادُ عليه كي لا يُمسَّ بأذى. لم يكن سيبيون ليقبلَ بأن يُعدَّ له مصيرٌ شائن. سبق وأن حماه بعد هزيمة زاما، مُستخدماً نفوذه لكي يستطيعَ هنيبعل البقاء في قرطاجة. ولكن الآن... لن يمنعَهم شيءٌ عن ذبحه مثل كلب، في اللحظة التي يرونها مناسبةً. لم يعد محارباً لأنه لم يعد

1ـ شمال غرب تركيا الحالية.

2ـ مدينة ساحلية في إقليم كامبانيا الإيطالي.

لديه جيشٌ. ولم يعد سيّداً لأنّه منفيٌّ، وحتّى لم يعد مُعارضاً لأنّه لم يعد يُخيفُ أحداً. إنّه فزّاعة ستُقتَلُ يوماً بطقسٍ استعراضي لادعاء قوّة مفرطة. إنّه دميةٌ قتلُها سيخدمُ الألعوبةَ التي ستأمرُ بذلك. ليس أكثر. وعلى هذا النحو ستنقضي الحياةُ من الآن فصاعداً، في هذا المنزل، على شاطئ البحر، وهو ينتظر يومَ موتهِ. ولم يعدْ يعتريه أيُّ شكّ بأنّ العالمَ الذي ينتمي إليه آخذٌ بالأفول.

الذي كان يُقدَّس بالأمس يُداسُ اليوم تحت النّعال... عند كلّ صباح، يجيءُ العدوُّ إلى باب قصره. رجالٌ بالزيّ العسكريّ، مسلّحون، يصعدون الدرج أربعاً أربع، مع قائمة أسماء مُدرَجةٍ على ورقة صغيرة. عند كل صباح، يأتي الديرغ ويقومون باعتقالات تطالُ وزراءه، مستشاريه، أفراد الحاشية، وأقرباءه أيضاً. ورويداً رويداً، يوم تلو آخرَ تُقصُّ أجنحته، ويُعزلُ. لا ينبس بكلمة، ينظر إلى الذين يُؤخذونَ ثمّ يطلب من خادمه أن يُعدَّ له ما يشربه. ولا يلبث أن يصبحَ تجوالهُ في الممرّات نادراً. كلُّ من يصادفهم يقصدونهُ بحاجة وهو لم يعد لديه شيءٌ ليعطيه. يحثّونه على الردّ، على أن يرتّبَ أموره أو يتركَ المناورة لابنته. لا يجيب، سُرعان ما يُغادر الحجرات التي قد يلتقي فيها مَنْ يريد الاقتراب منه، دعوني، لا يقولها صراحةً ولكنَّ عينيه تعبّران عنها كلّما صادف أحداً، دعوني، لم يعد يريد شيئاً، ما يطلبه فقط هو أن يأتيَ خادمه في الساعة 4:45 لمساعدته على ارتداء ملابسه، عند كلّ صباح، على جَرِي العادة، أمّا الباقي فلا أهميّةَ له. دعوني، لا تهمُّ الاعتقالات، الإعدامات دون محاكمة وعملياتُ الخنق في أقبية الثكنات ما دام هناك مَنْ يوقظه كلّ يوم عند الساعة 4:45. هذا التنظيم الغريب الذي له اسم وليس له قائد... لم يعدْ يعرفُ إذا كان منغستو مَنْ يعتدي عليه أم شخصٌ آخر. دعوني، يسير بخطوات قصيرة، مثلَ شيخ، بمئزره المطرّز، مُدركاً القلق الذي يضجُّ به قصره عند الاستيقاظ، لأنّ الجميع يعلم بأنّ كلَّ يوم سيأتي وفد عسكريّ ويطرقون الباب، متأبّطين أسلحتهم، ومعهم

قائمة أسماء، وبأنّ كلَّ يوم سيختفي رجالٌ، دعوني، يُقال له بأنّ المجاعةَ تضرب شمال البلاد، يُقال له الفسادُ مُستَشرٍ، قوائمُ الأسماء لا تلبث كلّ يوم أن تطولَ، وبأنّ القصر يفرغ تدريجيّاً، دعوني، إلى اليوم الذي كان هو مَنْ أتى الرجالُ بالزيّ العسكريّ لأخذِهِ.

هل كان يظنّ بأنّ جريانَ سيل الدمّ سيتوقفُ مع استسلام ليْ؟ هل كان يظنُّ أنّه سيكون بإمكانه التنعّمُ بالسلام أخيراً وإيجاد براءته السابقة مجدّداً؟ هناك العديد من الجثث والقتلى يُطالبون بمستحقّاتهم. قابل غرانت الرئيسَ هذا الصباح. وشارك في اجتماع المجلس. بقي يستمع إلى هذا الرجل الذي يقدّرهُ، الرجل الذي قادهم إلى الانتصار، واثقاً بالإجراءات التي كان يتّخذُها، ثمّ اعتذر عن الدعوة إلى المسرح التي قدّمها له الرئيسُ، استأذنَ وعاد إلى فيلادلفيا. وفي عشيّة اليوم ذاته سمع بالنبأ. للوهلة الأولى، لا يفهم لماذا الجميعُ يصرخ، لماذا أناسٌ تبكي في الشارع رغم الوقت المتأخّر جداً. ينتقل النبأُ من فم إلى فم، في الشارع، في المنازل، وفي جميع أرجاء البلاد: اغتيلَ لينكولن للتوّ، في مسرح فورد، في هذه الأمسيّة التي كان هو نفسه مدعوّاً إليها. بعد خمسة أيّام من استسلام الجنوب، لينكولن ماتَ. المقتُولونَ غِيلةً ماثِلون هنا، لا تلبثُ أعدادهم أن تزدادَ، وبكامل وطأتهم يُثقلونَ على عالَمِ الأحياء.

أتى الخادم يبلغهُ: رجالُ الديرغ ينتظرونه أمام الباب. ينزل من غرفته. تبدو الممرّاتُ الآن واسعةً بعدما خلَتْ. يسير دونَ عجلة. في غرف الاستقبال التي يمرّ بمحاذاتها ثمّة مناضدُ مقلوبة وصحونٌ محطّمةٌ على الأرض. لماذا لم تُلمّ؟ القصر نهبٌ للخراب. يهبط الدرج ببطء. حين يصل أخيراً أمام العساكر ـ فتيانٌ بفظاظةِ العامّة يتكلّمون بصوت مرتفع ليداروا انبهارهم أو كي لا يظهرَ احتقارهم جلياً ـ يسمع تكرارَ الأمر بأن يتبعَهم على الفور. يوافق ولكنْ يطلب بأن يرافقَه خادمه. ويطلب

أيضاً بأن يذهبَ في إحدى سياراته الرويس وليس في هذه الفولكسفاغن الكريهةِ الرماديّةِ التي تنتظره أمام الدرج الخارجي بين سيارتي جيب عسكريّتين. لا يبدو على الرجال بالزيّ العسكريّ أنّهم فهموا. يرفضون قطعياً ويأخذونه إلى الثكنة. لم يحتجَّ، وما عاد ينبسُ بكلمة. اسم قائد الثورة بات الآن معروفاً: منغستو هايلي مريام. كان على حقّ: قد تكون بعضاً من روح منغستو الآخرِ تعود. كلُّ شيء يختلط... يُقال بأنّ أمَّ هذا كانت خادمةً في القصر الملكيّ. لدى خروجه من القصر، وهو يصعد الفولكسفاغن، يتجمهر الشعب إلّا أنّ لا أحدَ يهتف له. في الماضي كان في كلّ مكان يظهر فيه يصيح الشعب معبّراً عن بهجتِه. هل هذه هي العلامةُ الحقيقيّةُ بأنّ كلّ شيء أوشك على نهايته وبأنّ العالمَ الذي كان يعرفه، العالمَ الذي كانَ مَلِكاً عليه قد اختفى؟

الجميعُ حوله يشعر بالقلق. ليس بسبب الشيخوخة، وليس بسبب الافتراء عليه، وإنّما بسبب الفاقةِ. لقد بات مُفلساً. جوليا قلقة. يحثّه صديقه مارك توين على كتابة مذكّراته ويعِدهُ بأنّه سيتقاضى أجراً سخيّاً لقاء ذلك. حياة منهزمة. كان رئيساً. ولكن هل هناك من يتذكّر ذلك؟ ولايتان رئاسيّتان. كلاهما نخرهما الفسادُ. فيما بعد جالَ العالم، نام في أبهى القصور، في باريس، لندن، نيودلهي. واستُقبلَ في كلّ مكان زاره استقبال الأبطال والآن ينتهي هنا، مع هذا الغطاء على رجليه، منهوكَ القوى لا يهدهدهُ سوى الكرسيّ الهزّازِ وذكرياته.

يتأمّل زنزانته. في هذا المكان ينتهي كلُّ شيء، بين هذه الجدران الأربعة، في غرفة بلا روح، ليست غيرَ مريحةٍ تماماً وإنّما قبيحة. لن يتزحزحَ منها، سيبقى هنا، في ثكنة الفرقة الرابعة، التي قامت بالانقلاب، هي التي كانت تأتي كلَّ يوم طارقةً باب القصر الرئاسي مع قائمة أسماء وتُعدِمُ الوجهاء في مساء اليوم ذاته أمام فصيل الإعدام، على مسافة

خطواتٍ من القصر. سبق وأن عاش المنفى، الهروبَ أيضاً، تخفّى في كهوف، وسار ليلاً ليفلتَ من مطاردة أعدائه، ولكنّ ضيقَ زنزانة، أبداً. يحاول التأقلمَ. لا ينقصُهُ شيءٌ. يحضرون له الطعام. حتّى إنّهم أخذوه إلى مستشفى الحرس الملكيّ لإجراء عملية بروستات. لا يفكّر بشيء، ولا يأمل بأن يبادرَ أحدٌ إلى تحريره. وبغرابة، ما كان يظنّ بأنّه لا يمكنه الاستغناء عنه، خادمهُ، حياة الفخامة في البلاط، وطبّاخُهُ، لا يفتقدهم. مجرّدٌ من كلّ شيء، ولم يعدْ يمتلك شيئاً. أُفرِغتِ الأيام منْ مقاصدها. لا يتكلّم مع أحدٍ. مجرّدُ جسدٍ يستمرُّ، بلا جدوى، معزول، وغير مرئي. وكلُّ شيء يواصل جريَه في الخارج. البلد يعيشُ. الرجال تعملُ. خرج من العالم، منهزماً، ضئيلاً، وما منْ أحدٍ يبكيه.

الجميعُ حولَه يشعر بالقلق ما عداه. سيكتب مذكّراته. ليتركَ شيئاً لأبنائه، لكنه في العمق غيرُ مبالٍ بذلك. منْ يستطيع أن يفهمَ ما كانت عليه حياته؟ إنّه أعزل ومُرهَق. لا يكفُّ عن التفكير بلينكولن، وليْ، وشيرمان. هؤلاء الثلاثة فقط الذين يمكن له أن يقبل حكمَهم. هم أيضاً رأوا الإنسانَ عارياً. هم أيضاً أمروا بالقتل وهُنّئوا على ذلك. ولطالما عرفوا هم أيضاً بأنّ جيشاً من القتلى يسير وراءهم.

هل يسمّمونه؟ بلى، بالتأكيد. رغمَ ذلك يأكلُ. كيف له أن يفعلَ خلافِ ذلك؟ هو على يقين بأنّهم يسمّمونه لأنّ هذا ما سيفعلُه فيما لو كان مكانَهم. موتٌ تدريجيّ، والذي يمكن إظهاره كأنّه هزيمةُ جسد. ليس جريمةً، ولا إعداماً. هذا ما فعله بوريث مينليك ياسو. وليس نادماً على فِعلته. ياسو كان مجنوناً. مصاباً بمسّ حقّاً. أراده الإيطاليّون أن يكونَ ملك الملوك ليجعلوا منه ألعوبتَهم. أمر بتوقيفه وأبقاه سجيناً في مكان مظلم وقَصيّ في هرري. ثمّ سمّمه. ببطءٍ. فإذاً من الوارد أن يكونَ هذا ما يفعلونه به. لكنّه غيرُ مُبالٍ.

في أحد الأيّام ـ هل لتاريخه أيّةُ أهميّة؟ ـ ينبثق الموتُ. ينبثق حاملاً وجه ابن أحد صيّادي ليبيسا. يصل الفتى راكضاً، لاهثاً، ممتقعَ الوجه من الخوف فيعلمُ هنيبعل، بهذه اللحظة، إنّه يومه الأخير. «إنّهم هنا...!» يكرّر الصبيّ هذه الجملة حتّى يكاد يختنقُ. يحاول هنيبعل دفعَه للتكلّم. كم عددهم؟ أين هم؟ ولكنّ الفتى يكتفي بأن يشير وراءه بالإصبع. وسرعان ما تتردّد طرقاتٌ على الباب.

إنّه زمن الفاجعة الآن. يشعر بالبرد معظمَ الوقت. لم يعدْ بوسعه التدخينُ. سيجاراته العزيزة التي تحمل نكهة المخيّمات والأحصنة ممنوعةٌ عليه. يترك لذهنه أن يَعدوَ وأن يعيدَ دون انقطاع تركيبَ المعركة. كم من وجوه تسكن ذهنه، كم من الرجال عبروا أمامه، بإيقاع الجيوش أو بأرتال طويلة من الأسرى، عبروا بالأسى الأعرجِ للمجروحين أو وهم يركضون مذعورين، كم من الرجال، في تشييع لينكولن، وفي أعياد الذكرى السنويّة، حشد هائلٌ يتزاحم في ذهنه.

يحدس بأنّه لن يتسنّى له وقتٌ للفرار. رغم أنّه تهيّأَ لهذا اليوم. إذ يمكن إحصاءُ سبعة مخارجَ مختلفةٍ لمنزله. كان على يقين بأنّه سيأتي يوم ويُباع فيه إلى الرومان. ولكنّ الأمور تجري بسرعة كبيرة. لا وقتَ له لأيّ شيء. خُلِعَ البابُ. القتلةُ يقتربون. لم يبقَ أمامه سوى بضع لحظات. فيفتح خاتمه المحشوَّ بالسمّ ويتجرّعُ محتواه بنهمٍ، دفعةً واحدة.

يتأقلمُ على العيش في غرفة لا يستطيع الخروجَ منها محافظاً على عدم مبالاة المسنّ تلكَ، كأنّ كلَّ شيء قد غادره منذ زمن طويل، الخوف، البهجة، الإحساس بالطموح أو الرغبة بالانتقام، كأنْ لم يبقَ منه سوى رجلٍ هزيلٍ يرضى أن يتقلّب بيد التاريخ. غير مبالٍ بشيء. إنّه مجرّدُ رجل، هنا، في زنزانة، على مسافة خطوتين من القصر حيث كان

يحكم. إنّها مشيئة التاريخ، لقد فَرِغَ، فَرِغَ من كلّ الصّخَبِ الذي رافقه طوال حياته، كما لو أنّ الهدية الوحيدة التي يمنحها التاريخ له، هو الصّمتُ، الصّمتُ العميق، المُسكّنُ الذي يسبق الموتَ.

إنّه زمن الفاجعة الآن وهذا حسَنٌ. سيحمرُّ خجلاً لو مات متربعاً على مجده. أمّا أن يكونَ مُفلساً، مقروراً، فليس الأمرُ ذا بالٍ. منذ زمن طويل أضاعَ كلماتِ الشكوى ويعتاد، ببطء، على فكرة أن يصرفَ المتبقّي من حياته على شرفته، في الساعات اللطيفة، أثناء الضوء الخافت لآخر النهار قُبيلَ أن تنال منه الرطوبة. ينتهي الرجال مهزومين أبداً. يحمل معه ذكرياتِ حماسته، لياليَ خمره، إنهاكَه من الحرب، يحمل معه كلّ ما كان عليه ويموت دون حسرةٍ لأنّ الباقي هباء.

يتناول سيفاً لأنّه يريد الموتَ والسلاحُ في يده وليبقي الأعداءَ على مسافة منه ريثما يفعلُ السمُّ فعلَه، ولكنّ السلاح يبدو له ثقيلاً بشكل عجيب ولا يقوى على منعه من السقوط أرضاً مُصدراً المعدنُ رنيناً مكتوماً. يلفُّ الدُّوارُ رأسَه. يداهم جندُ الرومان الغرفة، وجوهٌ بليدة وأيدٍ ضخمة. كم عددهم؟ غيرُ واثق بأنّه يستطيع عدَّهم. يتشوّشُ نظره. يتصاعد زبدٌ أبيض على شفتيه. الذهول الذي يقرأه على وجوه مُهاجميه قبل أن يسقط أرضاً، هذا الذهولُ هو انتصارٌ يحفظه في ذهنه متشبّثاً به بكل ما أوتيَ من قوّة.

وثمّ في أحد الأيام يتقدّم منه منغستو هايلي مريام، في زنزانته. أتى ليقتلَه لم يعدْ يستطيع انتظار الشيخوخة أو السمّ للقضاء عليه، مفعولهما بطيءٌ جداً. هل يتحادثان؟ ما الذي يمكن أن يقولَه أحدهما للآخر؟ هيلا سيلاسي يدرك ما الذي أتى جلّاده يفعله. لا يريد التذلّلَ. لا يتحرّكُ. غير مبالٍ، كما كان دوماً. ما عاد سوى رجل ضئيلِ الجسم هزيل ولن يطول

به الأمر حتّى يموتَ. مانغستو يقترب، سيخنقه بين فرشتين. لن يستغرقَ الأمرُ سوى بضعِ ثوانٍ، بضع دقائقَ على أقصى تقدير... سيضغط بقوّة، يُرخي كامل ثقلَه وعالم سيختفي. لا يتحادثان أبداً. لا يوجد ما يقال. أتى الأوّلُ ليقتل الثاني. هذا كلُّ شيء. النهار شاسع في الخارج إلّا أنّ هيلا سيلاسي لن يشهدَه. منغستو لا يزال يقترب، ينحني على السرير، وسرعان ما يبدأ الهواء بالتناقص.

كم مرّ وقتٌ وهو طريح الأرض، يحتضر وإنّما بذهن صاحٍ؟ كم مرّ وقتٌ قبل أنّ يُقدِم أحدُ القتلة ساخطاً، ربّما، لعدم تمكّنه من أداءِ مهمّته كاملةً، على غرز سيفه في ظهرِه أو قصلِ رأسه؟ كم مرّ وقتٌ قبل أن يغيب؟ يعاود التفكيرَ بحياته ـ اللهاثُ الطويل المُقاتل على أرض تنشب فيها الحرائق ـ، يعاود التفكيرَ بالانتصار الذي يحملهُ معه، رغم الموت، الانتصار بأنه غدا اسماً، عصيَّ المنال على أعدائه، «هنيبعل»، ويفترُّ عن ابتسامة.

كلّ شيء ينتهي.

شيريدان. غرانت. شيرمان. ليْ. جيلٌ من الأبطال، من الجزّارين. مَنْ ستراوده الرغبةُ في البكاء على غيابهم؟ ليس الحزن وارداً. بل ثمّة ما يقارب الارتياحَ. كثيرٌ من الدم. الدم الذي أهرق، ووطأته الأقدام، الذي ساحَ على الأرض وغذّى أشجار ميادين المعارك...

دفنوا بعضهم بعضاً. يومَ تشييع شيرمان، الجنرال الجنوبي جانستون، عدوُّه، حمل نعشَه. كانت تمطر وقيل له بأن يعتمرَ قبّعته. رفض، متذرّعاً بأنّ ذلك سيكون عاراً وبأنّ شيرمان لو كان هو من يحمل نعشَه، فلن يقبل قطعاً بأن يفعل ذلك معتمراً قبّعةً... أصرّ جانستون على عناده. وانتهى به الأمر بالإصابة بمرض ذاتِ الرئة الذي أودى به بعد بضعة أسابيعَ. يجمعهما رباطُ الدم ويموتان معاً.

تبقى الجثث. جثثٌ تُخفى وأخرى تُمجّدُ. شيّدَ الوطنُ لغرانت ضريحاً هائلاً والذي قد يبدو واسعاً بالنسبة لهيكله العظميّ البائس. ربّما كان قد فضّل عليه شجرةً في ميدان معركة شيلوه، لكنّ الرخامَ يليق بالأبطال...

بما يخصُّ جثثَ المهزومين، لا تزال الكراهية ماثلةً.

طلب وزير الحرب، إدوين ستانتون، من رئيس إدارة الشؤون العسكريّة بأن يوليَ عنايته لهذه القضيّة: أن يعثر على مكان يتّسع لدفن جثثِ هذه المجزرة الأهليّةِ الهائلة. فيختار مونتغمري ميغز أرلينغتون، الملكيّةَ القديمةَ للجنرال ليْ. أقاموا مقبرة الوطنِ العسكريّةَ في حديقة المهزوم.

يجري إخفاءُ جسدِ هنيبعل، يُدفنَ في السرّ. يُسَارَعُ إلى إخفائِه فهو لايزال قادراً، حتّى دونَ حياةٍ، على إرجَافِ روما.

في قبو ثكنة أديس أبابا، سيُعثَرُ يوماً على عظام النجاشيّ، في قاع حفرةٍ. وستُقام مراسمُ تشييع في كاتدرائيّة سان جورج، من أجل أن تُصبحَ عظامه التي أُبليَتْ بثلاثين عاماً من الظلمة ذخائرَ ومن أجل أن يرقد ملكُ الملوك، أسدُ قبيلة يهوذا، في سلامٍ. ولكن هل لا يزال بإمكانهم فعلُ ذلك، جميع أولئك الرجال، أن يرقدوا في سلام؟

-XIII-

الإسكندريّة

هي في الإسكندريّة، في اللّيل المتوسطيّ، على هذا الشاطئ حيثُ الهواء رطبٌ وطيور السنونو، لحظةَ غياب الشمس، تحدثُ جلبةً مُصمّةً. وبينما تنزل هي هنا هو في طرابلس، متجاوران تقريباً، دون أن يعرفا. مستيقظةً. لغرفتها شرفة صغيرة تُطلُّ على البحر وقد جلستْ فيها. ساقاها على الدرابزين، وحاسرةً تنورتها لتشعرَ ببعض البرودة، تفكّر في مروان مُجدّداً. الهواء المنعش للمساء يُغلّفها. تتذكّر آخر لقاءٍ جمعهما. لقد التقتْه بعد انفصالهما. مرّةً واحدة فقط. هو مَن اتّصلَ، مُنتهزاً فرصة مرورها في القاهرة. صوتُه في الهاتف قد تغيّر، شاخَ. سألها إذا كان يستطيع لقاءها في مقهى ريش عند السادسة مساءً. قبلتْ. راحتْ تتساءل في الساعات التي تفصلها عن الموعد عمّا يريده منها. كان ثمّة شيءٌ ملحٌّ في صوته. وصلتْ إلى المقهى قبل الموعد. وجلست على طاولة صغيرة تستطيع منها مراقبةَ المدخل وطلبتْ كأس شاي. على غير العادة كان المقهى خالياً تقريباً. ومن ثمّ ظهر عند المدخل، كادتْ أن تضع يداً على فمها. لقد هزَل، ويسير مثلَ عجوز. كان بادياً عليه بأنّ هذا لا بدّ خروجهُ الأوّل منذ زمن طويل. كان يرتدي بدلةً جميلة إلّا أنّها تتهدّلُ على جسده وتمنحه هيئةَ دميةٍ متعبة. بماذا تذرّع لكي يخرجَ من بيته على هذه الحال ويأتي للقائها؟ ابتسم حين رآها. احتارتْ إذا كان ينبغي عليها النهوضُ، وتقبيله... حسمَ تردّدَها بإشارة من يده تطلبُ منها البقاء جالسةً، ثمّ تهالك على الكرسيّ مثلَ سبّاح مُنهَكٍ يصل الشاطئ أخيراً. كانت أنفاسه متقطّعةً، ووجهه شديدَ النحول. أعرب له نادلُ المقهى عن سروره برؤيته ثانيةً، مخاطباً إيّاه بـ «السيد» تكراراً ومراراً، ثم مضى ليحضرَ كأس

شاي آخر. لم يتكلّما عن نفسيهما، قصّتهما، انفصالهما. لم يتكلّما عن المرض الذي كان ينخره والذي لن يتركَ منه عمّا قريب سوى عظام في بدلة واسعة جدّاً. لم يكن ذلك سببَ قدومه، فهمتْ ذلك مباشرة. حين وصل كأسُ الشاي الثاني وأصبحا بمفردهما أخيراً، أخرج قطعة ملفوفة بورق حرير من حقيبة ووضعها على الطاولة. «سوف أروي لك قصّةً، قال. لن تسأليني، ولن تقولي شيئاً. وفي نهايتها، سوف تقرّرين أخذَ هذه اللفافة من عدمه». حينئذ في قاعة مقهى ريش الناعسة قليلاً، بدأ يروي. لا شيءَ سيشتّت انتباهه، لا الخطواتُ المجرورة للندّل، ولا دخولُ زمرة من الطلّاب بين الفينة والأخرى دافعين البابَ يملؤهم الشعور أنّهم قادمون إلى واحد من الأماكن التي يُقرَّرُ فيها شكلُ عالم الغد، فيما يشبه النشوةَ والتوتّر، لا شيء، وكانا هما الاثنان يبدوان في منأى عن روّاد المقهى. تحدّثَ عن ماريت باشا. تكلّم مجدّداً عن ساعات الحفريّات المحمومة لسرابيوم، في ذلك الزمن حيث كان علم الآثار الحديث يخطو أولى خطواته. تكلّم عن المنافسة الشرسة التي كانت سائدةً آنذاك بين الدول الأوروبيّة المختلفة. كان لبسيوس، رائدُ علم الآثار الألمانيّ، وماريت كليهما يعرفُ بأنّ الأمهرَ مَنْ يُحرز قطعاً أكثر، وأسرع. وكان أيضاً سالمون فرناندیز، تاجرُ التحف المزعوم الذي كان ينهب المواقعَ. منذ حملة نابليون، ومصر حانوتاً للتحفِ في العراء «ينبغي تخيّلُ، قال بنوع من الحماسة المستعادة، ما الذي عاشَه هؤلاء الرجال. بين أن يكونوا نهّابين أو آثاريّين». شرح بأنّه كان ينبغي التحايلُ للحصول على فرمانات. وبأنّ هذه الحقوق بالحفر لم تكن تُمنح وفق نظام. وأنّ ماريت اضطرّ، بانتظار أحد هذه التراخيص، أن يقطعَ حفريّاته». هنا، قال مروان، أتعلمين ماذا فعل؟ آثاريٌّ. مثلك ومثلي، يعرف بأنّه موجود في الموقع الصحيح، وبأنّ تحت قدميه يوجد كلّ ما بحث عنه منذ أشهر، منذ سنين، غير أنّه لا يستطيع الحفرَ لأنّ ورقةً رسميّة مختومة تنقصه، لأنّه لم يطرقِ البابَ الصحيح أو لم يرشُ الشخصَ المناسب، فماذا يفعل...؟». تناولَ الحيلَ التي اتّبعها ماريت باشا: الحفريّاتِ ليلاً بعد أن يعودَ الحرّاس

المُرسَلون من قبل السلطة الحاكمة إلى بيوتهم. تحت ضوء المشعل، مع فريق مُخفّض. ثمّ تهريب القطع بمساعدة زوّار أجانب. للإفلات من مراقبة السلطات، كان كلُّ زائر فرنسي يعود ومعه تحت شالٍ أو في حقيبة سيّدة، تمثالاً، أو جوهرةً. ألم يكن ذلك نهباً؟ حِيلَ قراصنة؟ ومع ذلك ابتكر ماريت علم الآثار الحديث واختار مصرَ، منتقلاً إلى الإقامة في بولاق، وأسّس فيها متحفاً. ولا يزال مدفوناً فيها، قبالةَ المتحف الذي منحه لمصر والذي كان طريقةً لإيقاف إرسال القطع إلى اللوفر. أصغتْ، متسائلةً لماذا يروي لها كلّ هذا مستغرقةً في الوقت ذاته بتأمّل عينيه اللتيْن لم تفقدا شيئاً من بريقهما. «وثمّ، يأتي ذلك اليوم، قال، الذي يذهب فيه ماريت للقاء بول إميل بوتا في باريس. لا أعلم أين التقيا. ربّما عند بوتا. لا بدّ أنّ الشابَّ ماريت كان منفعلاً ومنبهراً في حضرة قنصل الموصل والقدس وطرابلس، ولاسيّما أنّ الجالسَ أمامه هو مَنْ اكتشف عمالقة خورسباد. لا أعلم بأيّ لحظة وضع هذه القطعةَ أمام بوتا وأيَّ كلمات انتقى. أتخيّلُ بأنّه تكلّم عن أهميّة ألّا ننسى بأنّنا في المحصّلة نهّابو قبور. بأنّ الفراعنة أغلقوا أضرحتهم على أنفسهم إلى الأبد وبأنّ فتْحَنا، واقْتحامَنا لها عنوةً حتى لو باسم التاريخ، يبقى انتهاكَ لصوص. لا ينبغي نسيانُ ذلك. نحن نُنشِئ علماً، نعمل بجدّ، ندرس في المكتبات، نتكلّم عن التراث، عن التاريخ، عن ذاكرة الحضارات، ولكن لا ينبغي السكوتُ عن لذّة الاقتحام عنوةً. نسرقُ من الفناء: الهياكلَ العظميّة، والمومياواتِ، والقطعَ الجنائزيّة. نفتح قاعاتٍ كان ينبغي أن تظلَّ مغلقةً. في الأمس كان بواسطة الديناميت، اليومَ نقوم بذلك باحتراسٍ لا حدود له، ولكن الويلُ لمن ينسى بأنّ الفعلَ هو نفسُه. لا بدّ بأنّ هذا ما قاله ماريت إلى بوتا، ثمّ مدّ له القطعة التي جلبها له. ليس كسارق. وليس كما ستطلبُ منه الإمبراطورةُ بعد بضع سنوات مجوهراتِ الملكة إياح حتب – وبالمناسبة سيرفض أن يعطيَها لها، غاضباً من هذا الطلب المُعيب –، ليس كذلك، يمدُّ هذه القطعةَ إلى بوتا بمثابة ميثاق. ميثاقٍ بينهما، هما اللذان نقّبا، وأعدّا بعثات استكشافيّة، وكانا على رأس فرق، بأن تكون

هناك قطعةٌ مسروقة تُنقَّلُ من جيل إلى جيل كي لا يُنسى بأنّ علم الآثار على صلة بالنهب. ولكن بوتا يحدّجه ببصره، مذهولاً، محمرَّ الوجنتين غضباً. ويعبس، يغمغم، ويصرخ محتجّاً. كيف تجرؤ، أيها الشابُّ... أو شيئاً من هذا القبيل. أتعتبرني نهّاباً؟ أنا عملتُ من أجل فرنسا. من أجل الإنسانيّة جمعاء. يلقي في وجه ماريت جميع كلمات الإطناب هذه التي تنزل كما لو كانت صفعاتٍ على وجه لصّ صغير بعمر الخامسةَ عشرة. إنّه عار. وكلّ هذا... لأنّه لم يفهم، لا يعلم بأنّ الرجل الذي أمامه ليس بحاجة إلى أيّ موعظة أخلاقيّة. وبأنّه سيعطي مصر أكثرَ من أيّ أحد في زمانه. يعود ماريت خائباً، مُتسائلاً عمّا أصابه، وحتّى قلقاً من أن يُقدِمَ القنصل على الإبلاغ ضدّه. ثمّ تمرُّ الأيّام. إلّا أنّ الفكرة تبقى: قطعةٌ مسروقةٌ كي لا ننسى أنّنا نهّابو قبور. وحين دخل حياته الشابُّ ماسبيرو، قبل موت زوجته وابنته بقليل ودفنهما في مقبرة القاهرة القديمة، يرى فيه خلفاً جديراً. ماسبيرو ألمعيٌّ، أنيق، مثقّفٌ. يستشفّ ماريت بأنّ هذا الجيلَ سيكون أكثر منهجيّةً من جيله، وأكثر علميّةً، فيعود في التفكير بالقطعة لأنّه ربّما سيكون جوهريّ لهؤلاء، رجالِ العصر العلمي، أكثر من غيرهم ألّا ينسوا فكرة الاقتحام عنوةً. فيقدّم القطعةَ إلى الشابّ، الذي تفاجأ للوهلة الأولى، بالتأكيد، حتّى إنّه ذُهلَ، واكتنفهُ بعضٌ من الخجل إذ إنّه على الأرجح لم يسرقْ في حياته قطّ، إلّا أن ماسبيرو ذكيٌّ فيقبل».

تعودُ للتفكير بالقصّة التي رواها لها مروان، هنا، والساقان على درابزين شرفتها. في ذاك الموعد الأخير في مقهى ريش. في النهاية صَمَتْ. وعندئذٍ دفعتْ يده القطعةَ نحوها. «احتفظتُ بها طوال حياتي، ليس كلصّ... وإنّما كواجب. ولطالما عرفتُ بأنّي سأعطيكِها». وكانت هذه آخرَ كلماتٍ سمعتْها من شفتيه. لبث صامتاً بعد ذلك، تاركاً لها الوقت لتضعَ يداً على القطعة وتفرد القماش على مهل. فغرتْ فمها حين ظهر تمثالُ الإله بيس. مقدوداً من حجر أسودَ، بحجم راحة اليد. الإلهُ القزمُ ذو الذراعين الطويلتين والرجلين القصيرتين السميكتين. بوجه

أسدٍ ولحيةٍ كثّة. الإلهُ الذي يرقص بطريقةٍ هزليّة، عابساً ليطردَ قوى الشرّ، ويجنّب الرجالَ الكوابيسَ والإخفاقاتِ الجنسيّة. الإلهُ بيس الذي يُوضَعُ تحت رأس المحتَضَرين لحظة الموت لكي يحرسَهم في العالم الآخر. القزمُ المُشْعِر صاحبُ الحاجبين السميكين، الدميمُ والمنفّر. تتناوله بيدها، لم تعدْ تكترث إذا كان روّاد المقهى ينظرون إليها أم لا، إذا كان أحدٌ حولهم يتساءلُ عمّا تكون هذه القطعة... توافقُ ومروان يتبسّم. تتذكّر تلك اللحظة: لمّا تبسّم مروان. نهض، وما عاد نبسَ بكلمة. لا شيء. لا «إلى اللقاء»، لأنّ حريّاً به أن يقول وداعاً، ولا «أراكِ قريباً»، لأنّ ذلك سيكون كذباً. دفعَ وغادرَ وتركته يختفي مع عكّازه الذي لم تكنْ قد عهدته به، وهو يسير مثلَ جبل ينهار، تركته يمضي إلى غيابه. وشدّتِ الإلهَ القزمَ إليها بقوّة. تتذكّر ذلك. وتعود في هذا المساء، على شرفة في الإسكندريّة، إلى التفكير بمروان وهي تشعر لأوّل مرّة بأنها لم تعدْ عشيقةً خسرتْ عشيقَها. هي ابتعدتْ عنه. تعاود التفكير بالإله بيس، في ملمس الحجر في يدها. هذا التمثال الذي دُسَّ في جوف الأرض قبل آلاف السنين، الذي أمسكَه ماريت باشا، ثمّ ماسبيرو، ثمّ آخرون، سلسلةٌ تطول من الآثاريّين الذين قبلوا، عند أخذِه، بالوجه المُظلم لمهنتهم. وكان على بوتا أن يقبلَ. فلو عرف بأنّ مئتين وتسعة صناديقَ ممتلئةٍ بالقطع الأثريّة المستَخرجة من الموقع الذي كان قد اكتشفه ستغرق في قاع دجلةَ، لكان أخذَهُ. تعاود التفكير في هذه السلسلة من الرجال والنساء التي تصل إليها ومن ثمّ إلى الرجل الذي أعطتْه له، ربّما، هو الأوّلُ ليس آثاريّاً. وبعدَه؟ من أين لها أن تعلم؟ تمثال بيس وُضِعَ مجدّداً في مجرى الحياة، مُتنقّلاً من بلد إلى آخر، عبرَ قفزاتٍ. مات البعض، أراد آخرون التخلُّصَ منه، ولكنّ القطعة، إلى أن وصلتْ إليها، كانت تُعطَى دوماً. فتتساءل عمّا سيفسِّرهُ عاصم من هذا الفعل، من هذه القطعة، وماذا سيفعل بها. تفكّر به. والغريب بأنّها تفكّر به كما كانت ستفكّرُ بعشيقها. ولكن هل سيريان بعضَهما مجدّداً؟ هذه القصّة كبُرت في داخلها منذ اليوم الذي التقيا به. اتّخذَ هذا الرجل مكاناً في ذهنها.

تفكّرُ به، في هذه الليلة التي تجمعهما، على الضفّة ذاتها من المتوسط، مُحاطةً بالحرارة الرطبة ذاتها، الكثيفة، التي تجعل أوراق النخيل تنحني، من الإسكندريّة إلى طرابلس، وتأملُ من الإله القزم أن يحرسَه أينما كان، مُنحّياً عنه بعبوسه الكوابيسَ التي تحوم حول الرجال.

-XIV-

طرابلس

جلسَ بمواجهة جوب. يمهلهُ الأمريكيُّ حتّى يتّخذَ مكانه وهو يرمقه بهدوء ثمّ يسأله بابتسامة غريبة:

«لماذا أتيتَ؟».

غيرُ واثقٍ بأنّه يعلم ومع ذلك يُجيب:

«لكي ننهيَ حوارنا».

يتبسّم جوب.

«أنت خيرٌ منهم، ملازم أوّل...» ويسكب كأساً لنفسه. ثمّ، بهيئة مداعبة، يقول له: «لديك حقّ. أنت هنا من أجل أن ينتهيَ كلُّ شيء. وهذا حسنٌ... هذا ما أملتُه».

وقبل أن يستلمَ عاصم دفّةَ الكلام، يردفُ:

«الهزيمةُ ما يجمعُنا، ملازم أوّل...».

عندئذ يشعر عاصم بما أحسّه في بيروت: بأنّ الوقتَ، فجأةً، بسبب قوّة الكلمات، يتّسعُ.

تلتمعُ عينا جوب ببريقٍ وسط عتمة حجرة الصالون الكبيرة. يتناهى بين الحين والآخر من البعيد أصواتُ رشقاتِ أسلحةٍ أتوماتيكيّة. لا يجفل إلّا أنّ قلقاً يعبرُ وجهه، لهنيهة. الهزيمةُ... يعلم عاصم بأنّ ما يقولهُ جوب صحيح. يعلم بأنّ هذا ما يقتسمانهِ منذ البداية: القناعةُ العميقةُ بأنّهما قد انهزما. لم يعدْ للأمر صلةٌ بالنجاح أو الفشل. الهزيمةُ الحقيقيّةُ، العميقةُ، الهزيمةُ التي يستشعرها الإنسانُ في داخله، ذاتَ يوم، مثلَ قوّة تُثقل عليه، تجعله أبطأَ، أقلَّ براءة، هزيمةُ الجسد الذي يترهّلُ، يتنفّخ،

يلهثُ. والعينان اللتان تتمنّيان لو أنّهما لم تريا كلَّ هذا القذْرِ. الهزيمةُ الخاصّةُ، العميقةُ أمام هذا الشيء الذي يدنو، والذي لا يجد الإنسان فكاكاً منه والذي اسمهُ الغياب.

«منْ أجل أيّة قضايا قاتلْنا، ملازم أوّل» كرّر جوب بهيئة تزداد انفعالاً. لا يعلم عاصم كيف يُجيبُ عن هذا السؤالِ. فيطرحُ سؤالاً بدوره.

«والآن، يسألُ الأمريكيَّ دون مراوغةٍ، ماذا ستفعلُ؟» لا يبدو أيُّ انفعال على الآخر، يحدجه بنظرة، ويجيب:

«المعاركُ التي طلبوا منّا كسبَها انتصرْنا بها، ولكنّنا نعلم، أنا وأنت، بأنّنا منهزمان، نشعر بذلك، في داخلنا، ثمّة شيء اجتاز الحدّ، أو فقدَ معناه... أليس هذا صحيحاً، ملازم أوّل؟».

يفكّر عاصم بذلك اليوم، اليوم نفسِه، على طريق سرت، لمّا كان وسط حشدِ المعارضين الليبيين، في ذلك اليوم القائظ مع الهيئة المخلّعةِ للقذافي والأعيرة الناريّة في السماءِ الرطبة. جزءٌ منه تبقّى هناك، ربّما، جوب على الحقّ...

«الآن سأقول ماذا سنفعلُ، أردفَ جوب بثقة أكبرَ وقد اكتستْ ملامحه ابتسامةً غريبةً. سأخبرك أيُّ شخص أنا. حقّاً. بلا قناع. وحين سأفرغ من كلامي، سيكون لك الحكمُ. هل توافق...؟ حين أقول الحكمَ، أعني أنّك أنت مَنْ سيقول لي إذا كان ينبغي أن أعيشَ أو أموت...».

ساد صمتٌ مطبقٌ في بهو الفندق ـ لا يشوبه سوى صوتهِ الذي يبدو أنّه استولى على فضاء الحجرة، أجشَّ، عنيداً، وطغى على الكنبات والمقاعد، مثلَ ملكٍ في مملكته، ويتابع:

«لهذا السبب أرسلوكَ، أليس كذلك...؟ لمعرفة إذا كان ينبغي أن أعيشَ أم لا...؟ لا أطلبُ منك أكثرَ مما طلبوه. غير أنّهم، قاموا بذلك ليعرفوا إذا كنتُ أُشكّلُ خطراً على الولايات المتّحدة أو شيئاً من هذا القبيل... دعْكَ من أمرهم. ما بيننا مختلف».

يُسَارع عاصم للردّ كما لو أراد تجنُّبَ الإغراق في تلك المناطق التي يستشعرُ بأنّه سيتوه فيها.

«أنت تعلم بأنّهم سيفعلون كلَّ ما في وسعهمْ لإيقافك؟».

يتمهّلُ جوب، ثمّ يرمقه بنظرةٍ يخالطها بعضٌ منَ الودّ ويقول له:

«نحن اجتزْنا هذه النقطة».

لم يعدْ يعرف عاصم ماذا يقول. يتّخذُ اللقاء منحًى يُفلِت من يده. يودُّ لو ينهض ويذهب.

«لا أفهم... تمتمَ.

ـ بلى، أنت تفهم جيّداً، أجاب جوب بنظرة قاسية. وأنت تعلم بأنّ الأمرَ سينتهي على هذا النحو. إذا كان برأيك أنّه ينبغي أن أعيشَ، فسأذهب ولن يجدونَني أبداً. ولكن أريد سماعَ ذلك من فمك. نحن انتهينا من الطاعة، أنت وأنا. ما يجمعُنا الآن معاً، هي الصَّراحةُ...».

يتمنّى عاصم أن يقول لا، أن يجدَ الكلماتِ المناسبةَ ليعيدَهُ إلى صوابه ولكنْ لا يتحرّك، لا ينبسُ بكلمة، يبدو موافقاً، فيستأنفُ الآخر:

«سوف أقصُّ عليك ما حدثَ في كالافغان...».

لم يعدْ يحيط بهما أحدٌ. مضى وقت طويل على نهوض رجال الأعمال وذهابهم. لا تزال الكؤوسُ على الطاولة ويصعُبُ معرفة كم ستبقى عليها لفرطِ ما يبدو كلُّ شيء ساكناً. بمفردهما في المبنى. الليلُ الرطب لا يتسلّل من النوافذ المفتوحة جزئيّاً إلّا حين تنبعث هبّةٌ قويةٌ بما يكفي لرفع إحدى ستائر التفتا الثقيلةِ ـأطلالِ الزمن الذي كانت تجري فيه الأموال بسخاء في أرجاء هذا المكان.

«أتعرف أنّ بعضَ الكهّان في العصور القديمة كانوا يعتبرون أنّ بإمكان المرء قراءة إرادة الآلهة عبرَ تأمُّل حركة أطفالٍ في باحة؟ حين يلعبون، في صرخاتهم، وتنقّلاتهم، والحركاتِ التي يقومون بها، في العراكات، والألعاب، كلُّ شيء له معنى.

ـ لماذا تخبرني بذلك...؟ يسأل عاصم.

ـ لأنّني فعلتُ ذلك، أردف جوب بصوت قاس. في أفغانستان، في مدينة كالافغان، فعلتُ ذلك. نظرتُ إلى باحة أطفال. نظرتُ إليهم في جيئتهم وذهابهم. في صرخاتهم. في آثار أقدامهم على تراب. والآلهة كلّمتْني. كان مشهداً جميلاً. نورُ السماء. رنين أصواتهم. أقسمُ لك. كان مشهداً جميلاً. ولكن أتعرفُ ما الذي سمعتُهُ؟ «تدمير». هذه هي الكلمة التي همستْها الآلهة في أُذْني. هناك، مع الأطفال في الذهاب والإياب: «تدمير». كنتُ أشعر بالكلمة كما لو أنّها مكتوبةٌ في الهواء، كما لو أنّ الأطفال أنفسهم يطالبون بها. كان ينبغي قتلُ شيء، حتماً، وبأسرع وقت ممكن. فعلتُ ذلك. الآلهة لا تكذب، أليس كذلك...؟ أطعتُها. أعطيتُ إحداثيات المدرسة لقاعدة Creech في النيفادا وانطلق صاروخ من بعيد لكي يأتيَ ويتحطّم أمامي مُحقّقاً إرادة الآلهة. تدمير. وما عاد للأطفال وجود. فعلتُ ذلك وبقيتُ حتّى النهاية لأستطيعَ التجوّلَ في الباحة بعد أن تخمُدَ النيران والإصغاء إلى السكون، إلّا أنّ السكون لم يخيّمْ وعوضاً عنه حلّتْ ولولةُ القرويّين، والأيدي المتشبّثة، والكراهية التي طفَتْ في كافّة الأرجاء، كراهيتي، وكراهيتُهم، شتائمُهم التي كنت أتفهّمها، أقاسمهُمْ إيّاها، وكان بوسعي ضربُهم مثلما كانوا يضربونني، ما الفرق، كان ينبغي أن تُسدَّدَ الضرباتُ في تلك البرهة، بغضّ النظر عن اتّجاهها، لكي ينتهيَ كلُّ شيء، هذا ما طلبتْه الآلهة، الحجارة قُذفَتْ، والضربات سُدّدتْ، ظننت بأنّ كلَّ هذا سينتهي هناك، إلّا أنّهم أنقذوني. هذه هي العبارةُ التي استخدموها. كان عليّ أن أقفزَ من الحوّامة. فكّرتُ بذلك: القفز والموت ممزّقاً بحجارة كالافغان الجافّة، لكنّ أيّاً من الآلهة لم يطلبْ منّي ذلك. لقد صمَتَتْ».

لم ينبس عاصم بحرف. أصابه الوجوم جرّاءَ ما سمعَه للتوّ. يتمهّلُ جوب. ربّما يعود للتفكير بجاسبير كوب. قال للتوّ السرَّ الذي كان في القبر ولا بدّ بأن كوب، هناك، صار بوسعه أن يصرخَ من وراء الموت، مرتاحاً بأنّ أحداً بات يعرفُ ما فعله. وثمّ فجأةً، يستأنف جوب الكلام:

«فإذاً، ملازم أوّل. هل يجب أن أموتَ؟».

يشعر عاصم بالحرّ، وينتابه ضيقٌ. لا يريد سماع هذا السؤال ولا ما سيستتبعهُ.

«دعْني»، همسَ. وكي لا يعودَ الآخر للتكلُّم، يكرّر، أقوى: «دعْني». هو على وشك النهوض لكنّ جوب أسرعُ منه. وبحركةٍ مباغتةٍ، يُخرج يده من تحت الطاولة ويصرخ:

«لن تتملّصَ، ملازم أوّل. عاهدتْني. الصّراحةَ. تتذكّر؟ يجب أن تجيبَ الآن».

ممسكاً في يده قنبلةً يدويّة.

«ماذا تفعل؟» يسأل عاصم.

ـ «هل اخترتَ؟».

قبل أن يبادر عاصم بأيّ ردّ فعل، يسمع صوت نزعِ جوب مسمارَ الأمان من القنبلة للتوّ. وهو الآن ممسكٌ بها بلصقِ نفسِه. بأيّ لحظةٍ، يُمكنه أن يُحرّر الضغط وسينفجر كلُّ شيء: الأريكة، الطاولة، عاصم... يمكن أن يموتا معاً. بحسب مشيئة جوب. إذا أوقفَ ضغط إصبعهِ، فسوف ينتهي كلُّ شيء هنا. لكنّه لا يفعل ذلك. يظلّ جالساً، وقابضاً على القنبلة بقوّة، مُحدّقاً فيه.

«هل يجب أن أعيشَ؟» يكرّر السؤال.

يصمت عاصم. لم يعدْ في داخله أيّةُ كلمة.

«انظرْ إليّ...!» يصرخ جوب. محمومَ النظرة. يرفع عاصم رأسه ويغرس عينيه في عينيّ الآخر. «لا تقُل شيئاً...؟ ألا تقوى على ذلك؟ أجبْ، ملازم أوّل».

عندئذ، وفي نَفَسٍ لا يكاد يُسمَع، يفلتُ عاصم هذه الكلمة: «أن تموتَ...» وفي اللحظة ذاتها التي يسمع فيها جوب هذه الكلمةَ، على نحو غريب، يُشرِقُ وجهُه، ليس خائباً مثلَ سجين صدر الحكم عليه للتوّ وإنما مرتاحاً كما لو كان ينتظر هذه الكلمةَ منذ أمد بعيد جدّاً، كما لو

كانتْ هذه أجملَ هديّة يمكن أن يتلقّاها، وعندئذ قال، بابتسامة مُمتنّةٍ، جميلة تقريباً رغم حمّى النظرة:

« الموتَ على عظامي هذه... هذا حَسَن. شكراً. كلُّ شيء على ما يرام».

ينهض عاصم ببطء. يُحسُّ بأنّ جوب سيدَعهُ يُغادر. لم يعدْ معه، لا يبدو عليه حتى أنّه يراه. لا تزال يده ممسكةً بالقنبلة، رافعاً وجهه قليلاً نحو الأعلى، مُتّحداً مع قوى غير مرئيّة، تفصلها سنواتٌ ضوئيّة عن هذه المدينة التي تحيط به، مُحدّقاً بالقرون. قد يستحضر في ذهنه ثانية أشباحَ الأطفال وشبحَ جاسبير كوب، أو ربّما يفكّر في ليلة أبوت آباد، بصوت الحوّامة أثناء رحلة الإياب، بتلك الجثّة عند قدميه، أو في باحة مدرسة كالافغان تحت سماء أفغانستان أو بأجوبة الآلهة التي لم تكن تقول سوى «تدمير»... ينهض عاصم، وينسحب خطوةً خطوةً، ببطء، ثمّ يخرج، مُخلّفاً جوب وراءه دون أيّة كلمة، دون أيّة نظرة. إنّ مسافةً طويلةً تفصلهما من الآن فصاعداً. لا يلتفتُ وراءه. هواء الشارع يُشعِره بالارتياح. تسير بضعُ سيّارات مسرعاتٍ، في البعيد، في محاذاة البحر. يجتاز الشارعَ، يعلم بأنّ كلَّ شيء ينتهي، هناك، في تلك الحجرة التي غادرها للتوّ. لا بدّ أنّ جوب بقيَ في مكانه بالوضعيّة نفسها تماماً، مُكلّماً أشباحَه ربّما، أو لاعناً أعداءه... ومن ثمّ يمزّق الصمتَ دويُّ انفجار، مكتومٍ بالجدران السميكة لفندق راديسون. يعلم بأنّ رجالاً ونساء، في كلّ أرجاء الحيّ، استيقظوا مفزوعينَ، متسائلين عمّا حدث للتوّ. يعلم بأنّ هناك مَنْ سيأتي في النهاية ليرى ما حدثَ لكنّهم لن يعثُروا على شيء، لأنهّ ما عاد هناك شيءٌ سوى أشلاءَ متفحّمةٍ من جسد وابتسامةٍ تطفو إلى الأبد.

-XV-

كاني ديلا باتاليا[1]

1ـ كاني ديلا باتاليا (Canne della Battaglia، بالإيطاليّة) أي «كاناي التي وقعت فيها المعركة»، وهو الاسم الحالي لقرية كاناي وللموقع الأثري الذي جرت فيه معركة كاناي 216 ق.م.

يسودُ الهدوء قاعة المتحف مع أنّ العالَم يحترق. تدمر سقطَتْ. قتلوا خالد الأسعد. علمَتْ بذلك للتوّ. تسير في قاعة مُتحف باردو حيث شاركَتْ في مؤتمرٍ حول الحفاظ على التراث. قبل أشهر كان أناسٌ هنا يركضون، يصرخون منتحبين، وينزفون... قدومُهم اليومَ، للتعبير رمزيّاً عن تضامنهم وإعادةِ التأكيد على قيَمهم. تكلّمُوا، والمستمعون صفّقُوا، ثمّ انحنى أحدُ زملائها نحوها وهمس لها: «قطعوا رأسَ خالد الأسعد» وهو يُريها هاتفه الذي كانتْ تظهر عليه أخبار قصيرةٌ لقنواتٍ إخباريّة. نهضَتْ، مُترنّحةً. وغادرتِ المنصّةَ. رغبتْ أن تكونَ مع القِطعِ بمفردها. هامَتْ على مَهلٍ في أرجاء هذا المتحف الهائل الذي يحملُ اسماً باتَ موسوماً بالدّم ولم تتوقفْ إلّا حين ألفَتَ نفسَها أمام القناع الأحمر المصنوع من الآجُرّ، ذي الأنف الملتوي، والفم العابس، مع هذين التجويفين الداكنيْن أمامها عِوضاً عن العينين. مِمّنْ يهزأُ؟ منها؟ أمْ من عجزِهم أمام البربريّة؟ منْ مرضِها؟ أم منَ الكلماتِ المُطمئِنة للدكتور حلّوش الذي ينظر إلى نتائج التحليل كما ينظر ربُّ أسرةٍ إلى دفاتر درجاتِ أولاده؟ كلّا. القناعُ ينظر أبعدَ: إلى الناس المهتاجة تحتَ عينيه، إلى الرجال والنساء الذين يعبرون جيئةً وذهاباً أمام هذه الواجهةِ. لقد رأى الناسَ، يومَ الاعتداء، ملفوحةً بالذُّعر في هذا المتحف الذي تحوّلَ حينها إلى فَخّ. سمع طلقاتِ النار، الصرخاتِ. وقد يكون لمحَ آثار الدّم على الجدران... ويعبسُ بوجه هذه الإنسانيّة التي تقتل نفسَها. هل يفعلَ ذلك بدافع الاشمئزاز أم لمجرّد مُحاكاةِ جنونِ البشر؟ عمّا قريب ستُحرَسُ ردُهاتُ هذه المباني أكثرَ من السفارات والثكنات. المجرمون

الذين يُقطّعون بالجلّاخة عمالقةَ متحف الموصلِ، هم أنفسُهم الذين استولوا على فندق زنوبيا في تدمرَ مُحدّقين في الآثار الغابرة بشهوة نَسرٍ، هم أنفسهم الذين يريدون أن يُنْسُوا النساءَ القراءةَ، الذين يُحرِقون الماضي ويُسْقِطون الأعمدة في المواقع الموغلةِ في القدم. مكثتْ مدّةً طويلة في هذه الحجرة، أمام القناع الأحمر إلى أن قالتْ لنفسها بأنّه لا ينظرُ إلى شيء. كلّا. التجويفان بدل العينين، كما الفمُ الفاغر، إنّهم هنا لنلجَ داخلَه، لتجتَذِبنا بغتةً قرونٌ من الزمن. لذا تغوص في العمق، لبضع دقائقَ حيث لا يتبقّى أحد في هذه الأثناء حولها، قصيّةً عن كلّ شيءٍ، عن الدكتور حلّوش الذي يقول بأن النتائجَ مُشجّعة، عن المُشاركين الآخرين في هذا المؤتمر الذين يتفرّقون بمجموعاتٍ صغيرةٍ في القاعات الواسعة لهذا المتحف المشيَّدِ كقصر للفسيفساء إلّا أنّه استحال ضريحاً، هؤلاء الزملاء الذين يتجوّلون في القاعات مُحاولين ألّا يُحدِثوا أصواتاً، مُتأثّرين بهالة الموت التي تُحَسُّ في أرجاء المكان. تترك كلّ هذا، ومن المفارقة، تشعر بنفسها قويّةً. هنا، أمام القناع، لأوّلِ مرّةٍ منذ أسابيعَ، تشعر تصميماً في داخلها. الصراعُ سيستمرُّ. ستعمل أكثرَ، رغم التعب الذي سينجمُ عن العلاج، ستمضي جيئةً وذهاباً من باريسَ إلى بغدادَ، من أوروبا الثريّةِ والمتكرّشةِ، جنيف، زيوريخ، لندن، إلى البقاع المضطربةِ، لا يزال لديها القوّةُ لتفعلَ ذلك، لذا ستفعلُه. سوف تلاحق القطعَ المنهوبةَ، وستُدافع عن هذه المتاحف التي يُضحَّى بها. تضعُ يداً على الزجاج أمامَ القناع، كما لو أنّها تُقسِمُ. تناولتْ في كلمتها التي ألقتْها في المؤتمر الذي انتهى للتوّ الصراعَ ضدّ الظلاميّةِ، هذا الصراعُ الذي لا يمكن أن يكونَ خاسراً ولن يخسرَ أبداً، تؤمنُ بهذه الكلمات. وموتُ خالد الأسعد لا يُلغيها. سيسيلُ الدَّمُ من جديد، وستُحطّمُ روائع قادمةٌ من أزمنة قديمة، وستباعُ في السوق السوداء، سيُقتَلُ رجال ونساء، ولكنْ يستحيل أن تكونَ هناك هزيمةٌ. لأنّ ذلك سيعني قبولَ ألّا نكونَ ما نحن عليه، ذلك سيعني أن ننسى كيفَ نعيش. قرأنا الشعرَ منذ زمن طويل، وتأمّلْنا بإعجاب فسيفسائياتٍ منذ زمن طويل، يستحيلُ علينا التنازل. من الإسكندريّة إلى

بغدادَ. منْ تونسَ إلى تدمرَ، ستستأنفُ حدَّ الإرهاق ولكن لا يهمُّ بما أنّ الهزيمةَ غيرُ واردة.

يقود السيّارة صوبَ الجنوب. حرٌّ آبٍ يُرعش الهواء. يسير يساراً بمحاذاة الشاطئ الأدرياتيكي. وقبل أنْ يصلَ بارليتا، يترك الطريقَ الرئيسيَّ مُنعطفاً داخل الدروب الترابيّة. للوهلة الأولى، لا يراها، ثم تظهر يافطةٌ صغيرة معلنة عن وجود مجرى مائي: الأوفانتو. جافٌّ في مثل هذا الوقت ويبدو صغيراً للغاية وضيّقاً. كأنّه مجرى للأعشاب الضارّة. على جانب الطريق، بعد مُنعطَفٍ، تقف عاهراتٌ في ظلّ جسرٍ لم يكتملْ. يافعاتٌ لا تتجاوز أعمارهُنَّ الخامسةَ عشرةَ. لا بدّ أنّهن رومانيّاتٌ أو ألبانيّاتٌ. أجسادُ أطفال لم تتكوّرْ أثداؤهنّ أو بالكاد، غير أنّهنَّ يقمْنَ منذ الآن بحركاتٍ شهوانيّة. يتسنّى له النظر إليهنّ وهو يجتازهنَّ. الطريقُ ضيّق. ينادونه، مُطلقاتٍ حركاتٍ بقصد الإثارة غير أنّها لا تبعثُ سوى حزنٍ مُروّعٍ. يقفْنَ في مكان مجهول، في هذا الريف الذي تطرقُه الشمس، على طولِ طريقٍ ضيّقٍ لا تمرّ فيه أيُّ شاحنة. ماذا يفعلْنَ هنا تحت هذا الجسر القذر، بملامحهنّ الأشبهِ بقططِ المجاري؟ يمضي قُدماً. كلُّ هذا محزنٌ غير أنّ سكونَ الأرجاء يُضفي على المشهد برمّته جمالاً مَهيباً. ماذا لو كان هؤلاء، اليافعاتُ ذواتُ الأجساد المدنّسة، يساهمْنَ في هذا المكان، وسط الهباء، بحصّةٍ من هذا الجمال؟ قبحٌ وجمال. التضحيةُ بالبراءة وعظمةُ الطبيعة التي تصمتُ من وطأة القيظ لكنّها تنتظر ساعتها، تنتظر انهزامَ النهار وهبوبَ الريح، لكي تضجّ وتنشطَ من جديد.

استطاعتْ تأجيلَ رحلتها يومين. تريد البقاء هنا، في تونسَ، في جادة بورقيبة هذه التي ينظر إليها البرابرة بكراهيّة لأنّها حرُّة، لأنّ النساء يسرنَ فيها برأس مرفوع، مزهوّاتٍ بمشاركتهنّ في إسقاط الديكتاتور. تريد البقاء في تونسَ لأنّ ثمّة في هواء هذا المكان ما يشبه دُواراً. كما

في أربيل. مَنْ يعرف كيف ستكون هذه البقاعُ بعد سنة، أو سنتين؟ منْ يعلم إذا ما كانت هذه حقبة جديدة تُشرّع أبوابها واسعةً على شتّى الاحتمالات، أم إنّها مجرّدُ حدثٍ خارج السياق سيجري كمُّه سريعاً؟ في باب البحر، تنادي تاكسي وتطلب أن يُقلَّها إلى سيدي بوسعيد. تريد السير في محاذاة الشاطئ، وأن تُشبعَ نظرها بالمواقع القرطاجيّة. تطلب من السائق أن يمرَّ عبر المرفأ البونيّ، عبرَ الشارع الذي فيه مدخل مقبرةِ الأطفال. يُحاولُ أن يشرحَ لها بأنّ ذلك سيطيلُ المسافة لكنّها تُصرُّ، لا تريد التوقّفَ، أو النزول من السيّارة، مُجرّدُ المرور من أمام المقبرة والتأكُّد من أنّ كلَّ شيء في مكانه، راسخٌ، وبأنّ لا شيءَ اهتزّ لأنّ هذه الأماكنَ شهدَتْ سقوط حضاراتٍ، عانت النسيانَ، وعُزلة الزمان، وبأنّها، رغم كلّ شيء، باقيةٌ هنا، وتحدّقُ فينا.

يصل في النهاية ويركن سيارته أمام مدخلِ الموقع. لا يوجد أحد. يتسنّى له الوقت ليفكّرَ باحتمالٍ له وجاهتُه في أن يكون كلُّ شيءٍ مغلقاً، في مثل هذه الساعة، من منتصف شهر آب، في يوم قائظ إلى هذا الحدّ... ولكنْ لا. ينفتحُ الباب ويظهر رجل قصير جالس في تخشيبة. لا يبدو أنّه تفاجأَ بوصول زائر، لا يسألُهُ شيئاً فيما توقّعَ أنْ يكونَ لديه، فيما لو أنّه في مكان الموظف، الفضول لمعرفة السبب الذي يدفع الناس للقدوم إلى هنا. كلُّ شيء هادئ. لا يتأخّر في القاعة ويصعدُ التلّةَ مباشرةً. كاني ديلا باتاليا هكذا أصبح اسمُ المكان. يرى البحر من الأعلى. تغيب الشمس من ورائه. نسائم ـمنعشةٌـ تأتي من عرض البحر مُصدرةً حفيفاً خفيّاً خلَلَ أشجار الصنوبر. ما مِنْ حضورٍ بشريّ. يخيّمُ سكونٌ عمره دهور. إلى اليسار، في البعيد، يُرى رأسُ غارغانو بوضوح. وفي الأسفل، تمتدُّ أشجار الصنوبر والغارِ في كل الأرجاء، من أعلى التلّ وصولاً إلى البحر، والسكونُ ذاته. تغطّي منطقةَ أرض المعركة الآن عرائشُ عنبٍ. أيُّ نبيذ يُعتصَرُ منها؟ لا بدَّ أنّ الجذور، على مرّ السنين، شقَّتْ لنفسها طريقاً بين

حُطام الأسلحة والهياكل العظميّة. يتناهى إليه من البعيد هديلُ اليمام الهادئ. الإحساسُ بالسلام ينبعث من كلّ شيء، في منأًى عن الطريق، والمدنِ، وحرارةِ الحشد، رغم أنّه يقف على مقبرةٍ. كاني ديلا باتاليا. هنا هَزمَ هنيبعل الجيشَ الرومانيَّ. هنا حيثُ قُتلَ خمسةٌ وأربعون ألفَ رومانيّ في بضع ساعاتٍ. السّهلُ المفرطُ الجمالِ، المفرط الرقّةِ، الذي تحت بصره عبقتْ به رائحة نتانةِ الأحشاء لزمن طويل. يحاول تخيّلَ ذلك: خمسةٌ وأربعون ألفَ جسدٍ مبتورٍ، محتَضَرٍ ولا يزال يتحرّكُ قليلاً مُحاولاً أن يجرجرَ نفسه دون جدوى متوسّلاً أن يأتي أحد لإنقاذه. قد يكون سرُّ سكون المكان قادماً منْ سكون القبر. كيف جرى أن يكون مكانُ أحدِ أكبرِ حمّاماتِ الدّم في تاريخ البشريّة بهذه الروعة؟ يُسلِمُ نفسَه للهواء الساخن المتصاعد من البحر يملؤُهُ. ضوءُ الصيف يتراخى بدَعَةٍ على التلال البعيدة. مات جوب، هناكَ، بيده التي أفلتتِ القنبلة، مقذوفاً بعصف الانفجار، ومتناثراً أشلاء بإرادته. كلُّ شيء ينتهي الآن. الهواءُ منعش. فينحني نحو الأرض. هنا. على قمّة التلّ. ويحفر حفرةً عند قدميه، مُتمهّلاً، دون عجَلة.

تصل أعلى قرية سيدي بوسعيد. تاهَ سائق التاكسي قربَ المنارة. تدفع له، تترجّلُ وتسير نحو المقبرة البحريّة الصغيرة التي تتربّع فوق قمّة التلّ. من هنا، المشهدُ واسعٌ على البحر. تجلس على الحائط الصغير وتتأمّلُ المدى. إنّها قريبةٌ جدّاً منه. في محطّة العالم نفسِها، لاغيةً نفسها مثلهُ لتدع سكون التلال يطفو ولا أهميّة لما عداه. أتت هنا لتكريم خالد الأسعد. الرجل المسنّ الذي تعرّض للتعذيب أيّاماً. كان البرابرةُ يريدون معرفةَ مكان كنز تدمرَ. صمدَ، واحتقرهُمْ حتّى النهاية. ذبحوه بالمديةِ في الموقع ذاته الذي كان حياته. ومنْ ثمّ علّقوا جسدَه عالياً بكابل مُتدلّ عن رافعة، ووضِعَ رأسُه على الأرض تحت قدميْه. العجوزُ بريام لَم يسلَمْ من دنَسِهم حتى في الموت. لن ينعمَ بظلال الأبراج الجنائزيّة ولا بنعومةِ تراب تدمرَ.

يتأرجحُ، ثقيلاً وبشعاً، في نسائم الصحراء الساخنة، مثلَ جثّة في مسلخ. غداً، سيهدمون تدمرَ. غداً سينسفون بالديناميت معبدَ بِلْ، والأبراج الجنائزيّةَ وأعمدةَ ممرّ المدينة القديمة. ما عاد شيءٌ يستطيع منعَهم من ذلك. تريد أن تفكّر به. فتنهضُ وقبور المدفن خلفَ ظهرها، تُغمِض عينيها مولياةً وجهها صوب البحر. تُسلِمُ نفسها للهواء يملؤُها. تفكّر بخالد الأسعد وتتمتم صلاة قديمة بالآراميّة. لتكونَ العصورُ القديمة حاضرةً هنا، إلى جانبها. قبورُ المدفن البحريّ تحدّق في الرأس الطيّبِ على خطّ الأفق وربّما البحرُ هو الوحيدُ الذي يتذكّر عوالمَ طواها النسيان.

في هذا التراب الذي يرفعهُ، كان ثمّة صراخٌ ومعارك، كان ثمّة ألم وصمتٌ مطبق. يعاود التفكير في جوب الذي لن يدفنَ، جوب المُتشظّي. يعلم بأنّه بات الآن بعيداً عن كلّ هذا، وينتابه شعور في اللحظة التي يُخرِجُ فيها التمثالَ من جيبه، بأنّ الموتى يرمقونه بنظراتهم. جوب حاضرٌ هنا. وآخرون أيضاً. الذين صادفَهم. والذين قتلَهم. إلّا أنّ هذا لا يمنعُه من المواصلة. ثمّة شيءٌ أقوى، وأكثرُ انسجاماً. يفكّر بمريم التي أعطتْه هذا التمثال. ويدرك بأنّها ستتفهّمُ ما هو مُوشِكٌ على فعله. مريمُ التي ترافقه والتي في هذه اللحظة بالضبط، هي على الضفة الأخرى من المتوسط، في سيدي بوسعيد في أعلى القرية، في المدفن البحريّ، على الجدار الواطئ المطلّ على البحر. ثمّةَ ما يسري بينهما في هذا الضياءِ الباهتِ لآخر النهار. يُخرج تمثالَ الإله بيس الذي أعطتْه له، ذاك التمثالُ الذي نجا من الحفريّات، متنقلاً من يد إلى يد مثلَ سرّ، الإلهُ القزم، الدميمُ، المشوّهُ، ذو القضيبِ المبالَغ في حجمه، الذي يحرس الرجالَ ويطرد عنهم الأرواح الشريرة، يُخرجُه، لا يعرف شيئاً عن قصته، ولا حتى شيئاً عن دلالته، يتذكّر ما روته له مريم من قصّة الثور آبيس أثناء ليلة الحبّ التي جمعتْهما، وعن ضريح الثيران المقدّسةِ، يتذكّر عمودَ الدخان الأزرقِ الذي تصاعدَ من الضريح لمدّة أربع ساعاتٍ لمّا فتحَ مارييت باشا

بابَ السرابيوم وكأنّ للتمثال الذي بين يديه المقدرة على رأبِ الصّدوع التي أُحدِثتْ في الأضرحة. كما لو أنّه سيعيد التوازنَ، للذي هرب آنذاك ـ الهواء الفاسد للقرون ـ، للذي قد مُحيا ـ أثر قدم آخر الكُهّان ـ. يحمله بخشوع ويضعه في الحفرة التي حفرَها. لا بدّ أن التمثال ارتعش لملامسة التراب مُجدّداً. هل يشعر أنّه بعيدٌ عن مصر؟ كلّا. لأنّه قريب جدّاً، مثلَ مريمَ هي أيضاً قريبةٌ جدّاً في هذه اللحظة، في المدفن البحريّ لسيدي بوسعيد وفي سكون الضياء الذي يتراخى بلطف على التراب كي لا يُثقِلهُ. هل يعلمُ التمثال بأنّه يودعُه الترابَ؟ بأنّه يستخدمه لغايةٍ: أن يدفُنَ معه ظلالَه وجميع الظلال الأخرى، ظلالَ الآلاف من قتلى معركة كاناي. سيصبح لديهم أخيراً إلهٌ يحرسهم، الإلهُ القزم الذي يُدسُّ تحت رؤوس الموتى ليمنحَهم السكينةَ ويطرد عنهم القلق. يَدسّهُ هنا، في تل كاني ديلا باتاليا، فيخيّم الارتياح على الجميع. أنصِتوا إلى هزائمنا. يدسُّه ليحرسَ غوليي الصفّ الأوّل الذين لم يستسلموا، هنيبعلَ الذي قضى مسموماً، ليحرسَ بالتكشيرة العابسة لوحشٍ مُشْعرٍ غرانتْ وشيرمان، المنتصرَيْن المتحسّريْن، ومئات الآلاف من هؤلاء الشبان الذين قُصِفَتْ أعمارُهم. أنصِتوا إلى هزائمنا. ليحرسَ خالد الأسعد أيضاً بريامَ المقطوعَ الرأس. يدسُّه وهذه طريقته بإعلان هزيمته، بمنحِها اسماً. ليس حزيناً، يفعلُ ذلك بحنوّ وسكينة. خسرْنا. ليس لأنّنا لم نكنْ جديرين، ليس بسبب أخطائنا أو لنقصٍ في فطنتنا، لم نكن أكثرَ تعجرفاً أو جنوناً من الآخرين، غير أنّنا نعانق الهزيمةَ لأنّه ما من انتصارٍ والجنرالات الرافلةُ بالأوسمة، الطواطمُ التي تعبدها المجتمعاتُ بحماسة، يوافقون، ويعلمون بذلك منذ البداية، أوغلُوا بعيداً جداً، تاهُوا لمدّة أطولَ من أن يعود هناك مكانٌ للانتصار. أنصِتوا إلى هزائمنا. يدسُّه وكان يمكِنُ لمريمَ أن تقومَ بذلك، في الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسّط الذي عرفَ هذا القدْرَ من الضوء وهذا القدْرَ من الدّم. هي تفعل ذلك، أيضاً، بتلك النظرة الحائمة التي تتركها تحلّقُ فوق البحر، تفعل ذلك، وهي أيضاً تفكّرُ بذاك الرجل الذي رأته مرّةً واحدةً فقط في زيوريخ ومنذ ذلك الحين يسكنُها، لأنّه أعطاها

هذه الأبياتِ، «أيّها الجسَدُ، تذكّرْ...»، في الوقت الذي كانت بأمسّ الحاجة لها، ذكرى نشوةِ الجسد، الضرورة المُلحّة للتذكُّر بأنّنا هذا، بلى، اللذّةُ في وجه البرابرة، النشوةُ والمواجهةُ، هي ممتلئةٌ بتلك الليلة ومثله في هذه اللحظة، عاريةٌ أمام الاتّساع. يحبّان بعضَهما. لا يلتقيان، ليسا في المكان نفسه، إنهما ببساطة ينظران إلى البحر ذاته، هذا الأبيضُ المتوسّط من دمٍ وفرحٍ حيثُ وُلدَتْ عوالم لا نظيرَ لها، ويحبّان بعضهما. ولا يهمّ إذا كانَت قصّتهما ـ على خلاف الآخرين ـبدأتْ بالجسدين وبُنيَتْ على العكس، في الغياب الآن، تراه، وتعلم أنّ في داخلهِ هزيمتها ذاتها، هزيمةُ الزمن الذي يُحني قامَتنا تدريجيّاً، هزيمةُ الحيويّةِ التي نشعرُ بها تخور وتختفي. أنصِتوا إلى هزائمنا. ليس للحزن مكانٌ، لم تخسَرْ شيئاً ولا هو أيضاً. ينحني، يضع تمثالَ الإله القزمِ في الأرض ويرتعشُ التراب ارتياحاً. عاد شيءٌ إليه. سيمكثُ هنا للقرون القادمة، مُستهجناً ربّما وجودَه في هذه الأرض المحروثةِ بالسيوف والمسكونةِ بالهياكل العظميّة، لكنه يدرك بأنّ الأمر منصفٌ. يعلم بأنّ جوب ينظر إليه، وبأنّ في الجهة الأخرى من البحر تقف مريم وسط شواهدِ قبور المدفن البحريّ لسيدي بوسعيد، على أراضي تلك الإمبراطوريةِ التي لم تتحقّقْ لأنّ روما ابتلعَتْها، أحرقَتْها، جعلَتْها تزول، غير أنّها لا تزال حاضرةً بقوّة، مضمومةً بأرجائها في كلمة «قرطاجة»، التي تشملُ كلَّ شيء، قرطاجة، المجيدة لأنّها هزمتِ النسيانَ رغم الرماد، أنصِتوا إلى هزائمنا، يقولانها معاً، بشيء من الرهافة والنشوة، أنصِتوا إلى هزائمنا، ما نحن إلّا بشرٌ، فلا يمكن أن يكونَ هناك انتصارٌ لنا، ليس هناك سوى الرغبةِ حتّى الغياب، الرغبةِ وعذوبةِ الهواء الدافئ مُلامساً البشَرَة.

إشارات

في الفصل VII، جميع جمل هيلا سيلاسي هي اقتباسات مأخوذة من الكلمة التي ألقاها في مقرّ عصبة الأمم المتحدة، في جنيف، 30 حزيران 1936.

اقتباس كفافي مأخوذ من قصيدة بعنوان «أيّها الجسَد، تذكّر...»، من مجموعة (قصائد، ترجمة مارغريت يورسنار) ضمن سلسلة «شعر / غاليمار» الصادرة عن منشورات غاليمار.

الاقتباسات عن محمود درويش مأخوذة من قصيدتي «مديح الظلّ العالي» و«سنختار سوفكليس»[1]، من ديوان بعنوان سنختار سوفكليس (ترجمة إلياس صنبر)، صادر عن منشورات أكت سود.

1ـ أوردنا اقتباسات القصيدتين من الأصل العربي في كتاب «محمود درويش ـ المجلد الثاني»، دار العودة، بيروت 1994.

فهرست

I- زيوريخ 9

II- آرغوس 35

III- أربيل 55

IV- بيروت 73

V- Al_JNAH STREET 91

VI- كابوا 115

VII- جنيف 127

VIII- باريس 143

IX- أديس أبابا 163

X- زاما 173

XI- سيرنايكا 183

XII- ليبيسا 197

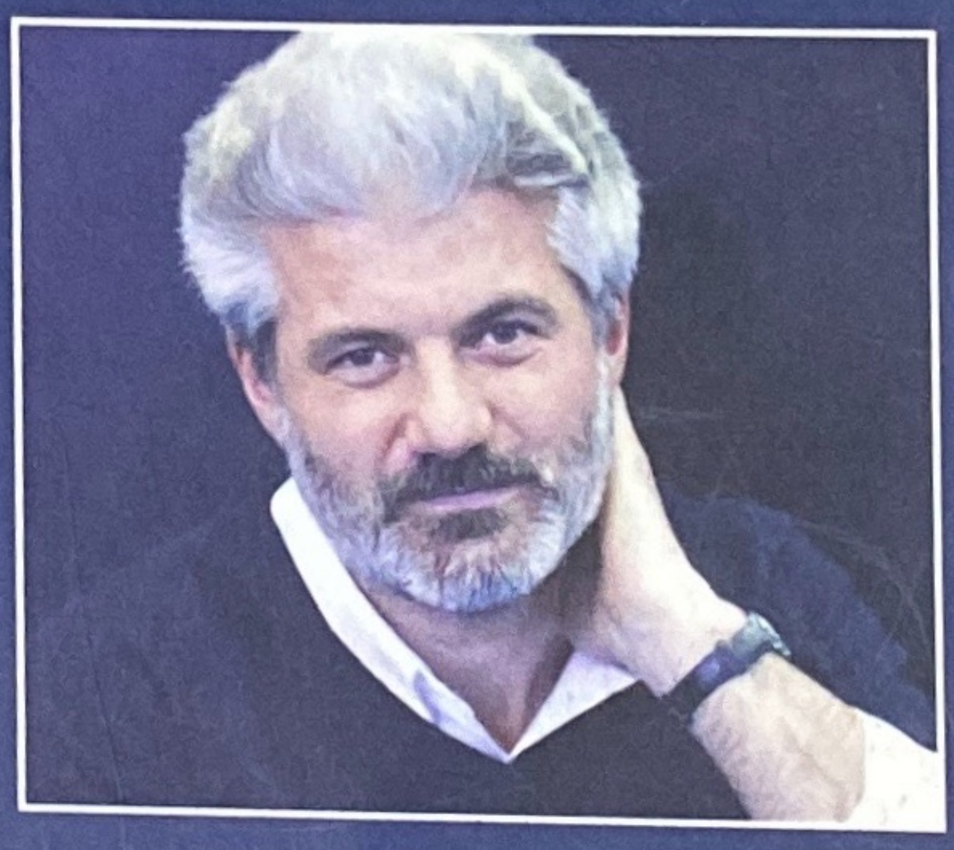
XIII- الإسكندريّة 211

XIV- طرابلس 219

XV- كانى ديلا باتاليا 227

«انصتوا إلى هزائمنا... خسرْنا. ليس لأنّنا لم نكنْ جديرين، ليس بسبب أخطائنا أو لنقص في فطنتنا، لم نكن أكثرَ تعجرفاً أو جنوناً من الآخرين، غير أنّنا نعانق الهزيمةَ لأنّه ما من انتصارٍ والجنرالات الرافلةُ بالأوسمة، الطواطمُ التي تعبدها المجتمعاتُ بحماسة، يوافقون، ويعلمون بذلك منذ البداية، أوغلُوا بعيداً جداً، تاهُوا لمدّة أطولَ من أن يعود هناك مكانٌ للانتصار.»

لقاء بمحض الصدفة يجمع عاصم (عميل الاستخبارات الفرنسيّة) ومريم (الآثاريّة العراقيّة)، في فندق في مدينة زوريخ السويسريّة، أو عند حافة الهاوية، إذ سرعان ما يتكشّف الوهن الذي يكتنف حياتهما. عاصم ينتابه السأم، ورغم نجاحه في جميع المهمّات التي أوكلت إليه يشعر بالهزيمة عميقة في داخله: «لماذا لا يكون هناك أبدا لحظات فرح خالص لا يعقبها شيء سوى حياة ترفل بالسلام نعيشها في دَعَةٍ؟». مريم تعمل على إنقاذ القطع الأثريّة في أكثر بقاع الأرض توتراً، حيث تستحكم الهمجيّة ويصعب تفادي الهزيمة. «لا يكتفون بمتحف الموصل. يتقدّمون، وفي كلّ مكانٍ يمرّون فيه، يحطّمون التماثيل وينسفون الآثار... يتقدّمون... يمحون المواقع واحداً واحداً، النمرود، الحضر... بمطارق، بجرّافات...»



ثمّ لا تلبث هذه السرديّة أن تتسایر مع ثلاث سرديات أخرى تخرج من التاريخ (هنيبعل، أوليس غرانت، هيلا سيلاسي)، تجاور هذه السرديّات يمنح اللحظة الراهنة إمكانيّة التأمّل كما يشحن تجارب التاريخ بحرارة الراهن، ما يؤكّد على ترابط الأزمنة في صيرورة تعبر مثل نشيد ترجيديّ يتردّد صداه في مصائر البشر على خلاف أزمنتهم وأماكنهم. فما من حدود واضحة تفصل الانتصار عن الهزيمة، واللذين يخضعان في الغالب للصدفة، طالما لن تكون المحصّلة سوى موت وصدوع، ما يجعل الانتصار -أيّ انتصار- هشاً أو مرحلة من مراحل إنضاج الهزيمة التي لا فكاك منها أمام الذات، وأمام الزمن. وبالتالي يكون مبرّراً لنا التساؤل إلى أيّة هزائم تهيئنا انتصاراتنا؟ وكيف يمكن أن نعانقها إذا بدا واضحاً زيف ما عداها؟

رواية مقلقة وقاتمة، مشغولة برهافة جارحة، وبنبرة ملحميّة غنائيّة عالية، تصدر عن تأمّل طويل وعميق في التاريخ البشري، حيث الفن والحب والشعر وكل ما تعرّف فيه الحضارة عن نفسها خير ما فيه.

لوران غوديه (المولود سنة ١٩٧٢ في باريس) واحد من أميز الكتّاب الفرنسيّين المعاصرين، يكتب المسرح والروايّة والقصّة القصيرة، نالت روايته «موت الملك تسونغور، ٢٠٠٢» جائزة غونكور للطلبة، إضافة إلى جائزة المكتبات سنة ٢٠٠٣، كما حازت روايته «شمس آل سكورتا» على جائزة غونكور سنة ٢٠٠٤، والتي تعدّ أرفع جائزة أدبيّة فرنسيّة.

ISBN 978-2843091459
9 782843 091452

لوحة الغلاف: الفنان مؤيد محسن